بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة آل البيت
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

رسالة ماجستير بعنوان:

الهِجاءُ السِّياسيّ في الشِّعر العبّاسيّ حتى نهاية القرن الرابع الهجريّ: دراسةٌ في المضامين

Political Satire in the Abbasid Poetry until the end of the Fourth Century A.H.: An Objective Study

إعداد الطالب:
سعد صالح سويلم العنزي
الرقم الجامعي: ١٠٢٠٣٠١٠٠٣

إشـــــراف :
أ.د. محمد محمود الدروبيّ

الفصل الدراسي الأول
٢٠١٣/٢٠١٤م

الهِجاءُ السِّياسيّ في الشِّعر العبّاسيّ حتى نهاية القرن الرابع الهجريّ:
دراسةٌ في المضامين

Political Satire in the Abbasid Poetry until the end of the Fourth Century A.H.: An Objective Study

إعداد الطالب:
سعد صالح سويلم العنزي

إشـــراف:
أ.د. محمد محمود الدروبيّ

أعضاء لجنة المناقشة التوقيع

١. أ.د. محمد محمود الدروبـــي مشرفاً .....
٢.. مها عبد القادر المبيضين عضواً .....
٣. أ.د. عبد الجليل عبد المهدي عضواً .....

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة آل البيت.

ونوقشت يوم الأحد، الموافق ٢٠١٤/١/٥م وأُوصي بإجازتها.

الإهـــــداء

إلى والديّ الغاليين

اللذين كافحا من أجل أن أكون،

وتحمّلا مشاقَ العُمر من غير كللٍ أو ملل،

ابتغاءَ أن يُزهرَ الورد

شكر وتقدير

يسرني أن أُزجي فائق الشكر والعرفان إلى أساتذتي العلماء الفضلاء الذين أولوني العناية والرِّعاية، ولم يبخلوا علي بثمين وقتهم وجهودهم، وفتحوا لي صُدروهم وعُقولهم، وتحمّلوا كثرة السؤال عن مسائل بحثية كان تؤرّق كاتب هذه السّطور إبان البحث والإعداد والكتابة لهذا العمل العلميّ.

وأحسب أن كلمات الثناء والمودة لا تفي أُستاذي المشرف على هذه الرسالة، الأُستاذ الدكتور محمد محمود الدروبي، عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة آل البيت، إذ تعهّد هذا العمل منذ كان فكرة لمعت في الذهن، وخصص لي مساحة من الوقت في مكتبه ومنزله، وأمدني بفوائد عظيمة، ومصادر ثمينة، وتوجيهات منهجية سديد، فله أعظم الشكر وأوفى التقدير، داعياً الله أن يكثر أمثاله، وأن يجزيه عن حروف هذه الرسالة الجزاء الأوفى.

كما يسعدني أن أُشكر للأُستاذين الكريمين عضوي لجنة المناقشة:الأُستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، والدكتورة مها مبيضين، لتفضلهما بإبداء ملاحظاتهما التي ستكون لها فائدة عظيمة في إصلاح العمل وتصويب أخطائه.

وأشكر أخيراً كل من أعانني من الأهل والأصدقاء، داعياً لهم بالخير والنجاح والفلاح.

الباحث

فهرس الموضوعات

Contents

المُلخص باللغة العربيّة ..... ط
المقدمة ١
الفصـــل الأوَّل : هِـــجـــــــاءُ الخُلفـــــاء العبـــاسييـــن ٦
* بواعث هجاء الخلفاء. ٧
* الخلفاء العباسيون أمام هجاء الشعراء ونقدهم. ١١
- السفاح. ١٢
- المنصور. ١٢
- المهدي. ١٤
- هارون الرشيد. ١٨
- الأمين. ١٩
- المأمون. ٢٠
- إبراهيم بن المهدي. ٢٢
- المعتصم. ٢٥
- الواثق. ٢٨
- المتوكل. ٢٩
- المستعين. ٣٠
- المعتز. ٣٥
- المعتضد. ٣٦
* تصوير خراب مؤسسة الخلافة. ٣٦
الفصـــل الثانـــي : هِـــجـــاءُ الـــوزراء ٣٩
* بواعث هجاء الوزراء. ٤٠

* موقف الشعراء من تنصيب الوزراء. ٤١
* نقد ماضي الوزراء وسيرهم السابقة. ٤٤
* موقف الشعراء من عدم أهلية الوزراء. ٤٨
* تصوير ظلم الوزراء وتعديهم. ٥٠
* موقف الشعراء من ظلم الوزراء وتعديهم. ٥٣
* نقد مثالب الوزراء الأُخرى. ٥٨
الفصـــل الثالث : هِجـاءُ الـــولاةِ والقـــادة ٦٤
* بواعث هجاء الولاة والقادة. ٦٥
* موقف الشُّعراء من تنصيب الولاة والقادة. ٦٨
* معاني هجاء الولاة والقادة. ٧٢
- سوء معاملة الرَّعية. ٧٣
- الخيانة. ٧٦
- إخلاف الوعد. ٨١
- الاحتجاب. ٨٥
- الجهل. ٨٨
- اللؤم. ٨٩
- الجبن. ٩١
- الكبر. ٩٤
- مُعاداة الدِّين. ٩٦
- الاتهام بالشذوذ. ٩٧
- الطَّعن في الأعراض. ٩٨
* موقف الشعراء من نكبات الولاة والقادة. ١٠٠
الفصـــل الرابـــع : هِـــجـــــاءُ القُـــضـــاة ١٠٥
* بواعث هجاء القضاة. ١٠٦

* معاني هجاء القضاة. ١١١
- الجور والظُّلم. ١١١
- الجهل وتناقض الأحكام. ١١٢
- الانحراف الخُلقي. ١١٥
- خيانة الأمانة. ١١٨
- الشره. ١٢٠
- النفاق. ١٢١
- أخذ الرِّشوة. ١٢٢
- الحرص على الدنيا. ١٢٣
- الطعن في الأحساب والأنساب. ١٢٥
- العيوب الجسدية. ١٢٧
* موقف الشعراء من نكبات القضاة. ١٣٠
الفصـــل الخامـــس: هِـــجـــاءُ كُتّـــــاب الدَّولـــــة ١٣٤
* بواعث هجاء الكُتّاب. ١٣٥
* اتجاهات هجاء الكُتّاب. ١٣٧
- هجاء طائفة الكُتّاب. ١٣٧
* هجاء أُسر الكُتّاب. ١٤٠
- هجاء أفراد الكُتّاب. ١٤٢
* نقد جهل الكُتّاب وعدم كفايتهم. ١٤٣
* موقف الشعراء من نكبات الكُتّاب. ١٤٧
* نقد مثالب الكُتّاب الأُخرى. ١٤٩
الخاتمـــة ١٦٦
المصـادر والمراجـــع ١٦٨
* المصادر القديمة. ١٦٨

* المراجع الحديثة..... ١٧٢
Abstract..... ١٧٤

الهجاء السّياسيّ في الشعر العباسي
حتى نهاية القرن الرابع الهجري:
دراسة في المضامين

إعـداد الطالب
سعد صالح سويلم العنزيّ

إشراف
أ.د. محمد محمود الدروبي

المُلخص باللغة العربيّة

تناولت هذه الدراسة الجوانب الموضوعيّة في شعر الهجاء السياسيّ في العصر العباسي، من قيام الدولة العباسيّة إلى نهاية القرن الرابع، وهي مدة غنية بشعرها وانتاجها، وقد تضافرت فيها عوامل وبواعث عديدة أدت إلى ازدهار الشعر الذي قيل لأسباب سياسيّة خاصة، ومن ضمنه الشعر الهجائي الذي تناول رجال الحكم والإدارة في الدولة العباسية، معبراً عن رؤى ومواقف سياسيّة ومذهبية وعقدية، فضلاً عن البواعث الشخصية التي اختلطت بتلك الرؤى والمواقف.

ومن أجل دراسة هذا النوع من الهجاء السياسيّ، رأى الدارس بعد الاستقراء أن هجاء رُموز الخلافة ورجال الحكم والإدارة يشكل اللون المميز للأهاجي السياسيّة في هذا العصر، فقد حمّل الشعراء هذا الهجاء مواقفهم السياسيّة ورؤاهم العقدية وأفكارهم المذهبية، فضلاً عن مواقفهم الذاتية، وعليه قامت الدراسة على خمسة فصول.

أمّا الفصل الأول، فقد تناول هجاء الخلفاء العباسيين، وعرض بواعث هذا الهجاء، ونماذج مما نال الخلفاء العباسيين من أهاجي الشعراء التي طالت رأس السُّلطة، كما تطرق هذا الفصل إلى ما قاله الشعراء في تصوير خراب مؤسسة الخلافة. وجاء الفصل الثاني للحديث عن هجاء الوزراء، فكشف عن بواعث هذا الهجاء ومواقف الشعراء من تعيين الوزراء وسيرهم السابقة وظلمهم وتعديهم. وعُقد الفصل الثالث للحديث عن هجاء الولاة والقادة، مبيناً بواعث هذا الهجاء ومواقف الشعراء من تعيين الولاة والقادة، مع تفعيل المعاني التي تناولتها أهاجي الولاة والقادة، وموقف الشعراء من النكبات التي حلّت بهم.

وجاء الفصل الرابع للحديث عن هجاء القضاة، متناولاً بواعث هذا الهجاء وأهمّ معانيه، كاشفاً اللثام عن موقف الشعراء من نكبات القضاة، وأخيراً عُقد الفصل الخامس للحديث عن هجاء كُتّاب الدَّولة العباسيّة، فأشار إلى بواعث هجائهم واتجاهاته ومواقف الشعراء من نكباتهم.

وقد توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج المهمة التي أوضحت أهمية الهجاء السياسي في العصر العباسي، ومشاركة كبار الشعراء فيه، وقيام هذا الشعر بدور إصلاحي في تنبيه الدّولة على مواطن الخلل والفساد والضعف، ورسم صورة لما يجب أن تكون الأُمور عليه.

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، من يهده الله فهو المهتدِ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فيعد الهجاء باباً رئيساً من أبواب الشعر العربي القديم، ولوناً مهماً من ألوانه المميزة، وقد عرفه شعراء الجاهلية وتعاطوه للنيل من خصومهم، محاولين الحطَّ من أقدار الأشخاص الذين كان الهجاء يقع عليهم، ولم تقل أهمية هذا الباب من الشعر عن بقية الأبواب الأُخرى، بل لعله وجد ما يكفل له التأثير الواضح في البيئات التي كان يشيع فيها، إذ كانت العصبيات بأنواعها: القبلية والسياسية والدينية والاجتماعية تذكي هذا الشعر، وتمده بالطاقات التي يحتاجها؛ لكي يظل محافظاً على حياته وبقائه واستمراره.

وعندما جاء الإسلام، تراجعت أهمية الهجاء كثيراً، بسبب موقف الدِّين الجديد من العصبيات، ولكن شعراء النبي، صلى الله عليه وسلم، دخلوا في نقائض مع شعراء المشركين، وعيروهم بمثالبهم القديمة، وذهب بعض الهجائين كعبد الله بن رواحة إلى هجائهم بالكفر ونبذ الإيمان والتوحيد والإصرار على الوثنية. ومهما يكن، فسرعان ما عادت الروح إلى الهجاء- بضروبه التقليدية القائمة على التعصب – في عهد الدولة الأُموية، وبلغ فن النقائض أوجه في هذا العصر، وكثر عدد الشعراء الذين دخلوا هذا الميدان، وظهرت بواعث جديدة للهجاء أهمها العصبيات العرقية التي ظهرت بعد دخول الأعاجم الإسلام وتعرب كثير منهم.

وعندما أطل العصر العباسي خفتت حدّة الهجاء بشكل واضح، لكنه ظل حياً في النفوس، وبخلاف ما هو شائع، دخلت الهجاء اتجاهات وألوان جديدة لم تكن معروفة سابقاً، أو كان حضورها فاتراً من قبل، واستطاع الشعراء الهجاؤون في هذا العصر أن يدخلوا ميادين السياسة، وأن يقفوا في وجه السلطة الحاكمة، وأن يحاربوا مظاهر التدهور في إدارة الدولة، مركزين على النقد، مبرزين الرذائل والمفاسد والمثالب، موظفين أساليب التجريح والنقد والطعن والذم والسب واللعن والسخرية، وفعلاً استطاع شعراء الهجاء أن يرسموا صُورة لكثير من رجال الدولة، كالخلفاء، والوزراء والولاة والقادة والقضاة وكُتّاب الدواوين وغيرهم من الطوائف التي كانت تعمل ضمن منظومة السياسة والإدارة آنذاك. وعليه، يمكن القول إن الهجاء السياسيّ لون من

شعر الهجاء، يتضمن أبعاداً سياسيةً واضحة، ويوجّه لنقد نظام الحُكم والإدارة في الدَّولة، وغالباً ما يكون موجهاً إلى الأشخاص الذين يقومون على هذا الحكم، كالخلفاء والوزراء والقادة والولاة وغيرهم، وتعبير هذا اللون عن عقيدةٍ سياسيّة أو مذهبية أو رؤية شخصيّة غايتها نقد الحكم والعاملين عليه.

وعليه، اهتمت هذه الدراسة ببحث واقع الهجاء السياسي، كما نقله الشعر العباسي، من قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع؛ بهدف رسم صورة دقيقة عن طبيعة هذا اللون وبواعثه وشعرائه واتجاهاته ومضامينه الموضوعيّة.

وتكمن أهمية هذه الدراسة فيما يلي:

أولاً: ازدهار شعر الهجاء السياسي في العصر العباسي واتساع مجالاته وكثرة شعرائه.

ثانياً: ارتباط هذا اللون من الهجاء بالحياة السياسية وتعبيره عن مظاهر فسادها وانحطاطها وتأخرها.

ثالثاً: تعبير هذا اللون من الهجاء عن مدى الحرية الفكرية التي حظي بها الشعراء في هذا العصر، وما طال بعضهم من الأذى بسبب ذلك.

رابعاً: دور النقد السياسي الذي قام به الشعراء العباسيون في تنبيه الدولة على مواطن العيوب والفساد ومحاولة إصلاحها.

خامساً: إلقاء هذا النوع من الهجاء الضوء على الحالة النفسية للشعراء العباسيين الذين كانوا يتعاطون هجاء رجال السياسة والحكم والإدارة.

سادساً: وجود البواعث السياسية والدينية والاجتماعية والذاتية التي كانت تذكي هذا الهجاء وتمده بالطاقات اللازمة لبقائه.

سابعاً: عدم وجود دراسة جامعية مستقلة اختصت بدراسة هذا النوع وتحليله وتبين اتجاهاته ومضامينه.

انطلقت هذه الدراسة من مجموعة من الفرضيات التي سعي الباحث إلى إثباتها، أو نفيها، في ضوء الاستقراء الدقيق للمادة الشعرية التي تقع ضمن نطاق البحث، وهذه الفرضيات هي:

١- كان لاتصال العرب مع الأُمم المجاورة، ولا سيما الفرس والأتراك، تأثير في هذا اللون من الهجاء السياسي الناقد.

٢- ترك الاتجاه المذهبي أثراً على هذا اللون من الهجاء.

٣- كانت حدود الحرية التي سمحت للشعراء العباسيين الدخول في هذا اللون من الهجاء واسعة.

٤- كان لهذا الهجاء آثار إيجابية في الإصلاح السياسي آنذاك.

٥- كان للجانب الشخصي دوره في التدخل في هذا اللون من الهجاء.

٦- كان متاحاً انتشار شعر الهجاء السياسي بين الناس، وإطلاعهم عليه.

٧- نوّع الشعراء العباسيون شعرهم في هجاء الساسة بين القصائد والمقطوعات.

٨- هناك أسباب غير معلنة دعت الشعراء إلى كتابة أهاجيهم السياسية.

ووفقاً لمتطلبات البحث سارت الدراسة – بمشيئة الله عزّ وجل – معتمدةً على عددٍ من المناهج، حسبما اقتضته طبيعة الموضوع، ولكنها ركزت على المنهج التحليلي في تبين قسمات الموضوع والوقوف على تفريعاته الموضوعية المختلفة، وأفادت من المنهج النفسي في سبر أغوار نفسيات الشعراء وتحليل مواقفهم الذاتية، كما اعتمدت الدراسة على المنهج الجمالي في الوقوف على بعض اللمحات الفنية في هذا النوع من الشعر.

واتبعت الدراسة الخطوات المنهجية الآتية:

١- العودة إلى دواوين الشعر العباسي في المدة المحددة واستقراؤها استقراءً شاملاً واستخراج النصوص ذات الصلة بموضوع الدراسة.

٢- تصنيف اتجاهات الشعر ووصف الظواهر المتعلقة بذلك.

٣- تحليل مضامين الشعر والمقارنة بين موضوعاته.

٤- رصد ما توصلت إليه الدراسة من نتائج بحثية.

ورغم أهمية هذا اللون من الهجاء، فلم يجد الباحث دراسة اختصت بتناوله، وكل ما استطاع الباحث الاطلاع عليه من دراسات ذات صلة بالموضوع يتمثل فيما يلي:

أولاً: توجد دراسات سابقة تناولت موضوع الهجاء في الشعر العربي بشكل عام، من غير تخصيص البحث بعصر أو مدة زمنية محددة، أو تخصيص لون من ألوان الهجاء بالدراسة، ومن هذه الدراسة دراسة إيليا حاوي الموسومة بـ "فن الهجاء وتطوره عند العرب"، وهي تدرس حياة هذا الفن من الجاهلية إلى المتنبي، وفيها بعض الوقفات على نماذج محدودة من الشعر السياسي العباسي، ومن هذه الدراسات دراسة سامي الدهان الموسومة بـ "الهجاء"، وهي دراسة مركزة جدّاً، تلقى ضوءاً ضئيلاً على فن الهجاء بعامة.

ثانياً: توجد دراسات تناولت موضوع الهجاء كاملاً من قبل العصر العباسي، من غير إفراد الهجاء السياسي بدراسة مستقلة، ومن هذه الدراسات دراستا محمد محمد حسين "الهجاء والهجاؤون في الجاهلية"، و"الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام"، وهما دراستان قديمتان في هذا الباب، ومن ذلك دراسة عباس بيومي عجلان الموسومة بـ "الهجاء الجاهلي: صوره وأساليبه الفنية".

ثالثاً: أفرد بعض الدراسين موضوع الهجاء في العصر العباسي بدراسات عامة من غير إفراد الهجاء السياسي بدراسة مستقلة، وأهم هذه الدراسات دراسة قحطان رشيد التميمي الموسومة بـ "اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري"، وتعدُّ هذه الدراسة من أهمِّ الدِّراسات التي خصصت مساحة جيدة للاتجاه السياسي والإداري في اتجاهات الهجاء الموضوعية في القرن الثالث، ففي الفصل الثالث من الباب الأول من هذه الدراسة، تناول التميمي أبرز محاور الهجاء السياسيّ، ولكن لطبيعة دراسته لم يتوسع في تناول مضامين هذا الهجاء.

رابعاً: أفرد بعض الدراسين قصيدة الهجاء عند شاعر عباسي بعينه بدراسات خاصة، من غير تخصصٍ للهجاء السياسيّ، ومن أهم الدراسات التي مثلت هذا الاتجاه دراسة عبد الحميد جيدة الموسومة بـ "قصيدة الهجاء عند دعبل وابن الرومي"، وتضمنت هذه الدّراسة وقفة غير طويلة عند قصيدة الهجاء السياسيّ عند الشاعرين المذكورين.

وهكذا، يرى الباحث أن الدِّراسات التي تناولت الهجاء – بعامة – كثيرة، ولكننا في المقابل لا نجد دراسة أفردت موضوع الهجاء السياسي، على أهميته، كما يؤخذ على أكثر هذه الدِّراسات وقوفها عند الظواهر الكبرى وعدم الانتقال إلى التفصيلات التي تحمل الصورة الدقيقة

عن هذا النوع من الشعر. وكل ما يجده الباحث في موضوع الهجاء السياسي في الشعر العباسي لا يتجاوز المباحث والمحاور والفصول القصيرة التي أفردتها بعض هذه الدراسات، وأهمها دراسة قحطان التميمي.

وهكذا جاءت هذه الدراسة لتتناول شعر الهجاء العباسي ذي الصبغة السياسيّة، وقد رأى الباحث أن يكون هذا الشعر موزعاً بالنظر إلى الفئة التي وُجِّه إليها الهجاء من رجال الدولة العباسية، وعليه، قامت الدراسة على خمسة فصول، تناول الفصل الأول هجاء الخلفاء العباسيين، عارضاً بواعث هذا الهجاء ونماذج مما قاله الشعراء في هجاء الخلفاء ونقد سلوكهم السياسي والإداري والشخصي. وتناول الفصل الثاني هجاء الوزراء، باحثاً في بواعث هذا الهجاء، ومتناولاً مواقف الشعراء من تنصيب الوزراء وظلمهم ونكباتهم، ودرس الفصل الثالث هجاء الولاة والقضاة، فتناول بواعث هذا الهجاء ومعانيه وموقف الشعراء من نكبات الولاة والقادة. واختصّ بالفصل الرابع بهجاء القضاة، فعرض بواعث هذا الهجاء والمعاني التي تناولها وموقف الشعراء من نكبات القضاة. وجاء الفصل الخامس – أخيراً – ليدرس هجاء كُتّاب الدّولة، فتناول بواعث هذا الهجاء أيضاً واتجاهاته ومعانيه وموقف الشعراء من نكبات الكُتّاب كذلك. وجاءت الخاتمة متضمنة أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.

والحقيقة أن البحث في هذا الموضوع لم يكن سهلاً، فهناك صعوبات كثيرة واجهت الباحث وأهمّها:

١. عدم وجود مرجعية مدونة كاملة تضم شعر الهجاء العباسيّ، فالمادة الشعرية متفرقة في الدواوين وكتب الأدب، وهذا يتطلب مزيداً من البحث والعناء.

٢. كثرة الشعراء العباسيين وتعدّد الأغراض التي تناولوها في شعرهم، مما يتطلب وقتاً طويلاً في القراءة والمراجعة.

٣. تداخل محاور الموضوع، وذلك أن قصيدة الهجاء قد تشتمل على هجاء الوزراء والولاة والقادة والكتاب معاً.

٤. انتشار الإقذاع في هذا النوع من الهجاء، مما يشكل عائقاً خلقياً أمام الاستشهاد بالأشعار التي تتجاوز حدود الحشمة والالتزام.

ولكنْ – بعون الله تعالى – استطاع الباحث أن يذُلل كثيراً من العوائق حتى جاءت الدراسة على هذه الصورة التي أحمد الله عليها، واستمد منه القوة على المواصلة، إن شاء الله تعالى.

والحمد لله ربّ العالمين.

الباحث

الفصـــل الأوَّل : هِـــجـــــــاءُ الخُلفـــــــاء العبـــاسييـــن

* **بواعث هجاء الخلفاء.**
* **الخلفاء العباسيون أمام هجاء الشعراء ونقدهم.**
* **تصوير خراب مُؤسسة الخلافة.**

* بواعث هجاء الخلفاء.

مثّل الخلفاء العباسيون رأس السُّلطة السياسيّة العباسيّة، فهم أولياء الأمر وخلفاء الله وسُلطانه، وهم ساسة الرعية وحُكّام الناس والمسؤولون عن إقامة الشرع وتدبير الشُّؤون وإقامة النَّظام، ولذا، كان الخلفاء على علاقة ماسة بالشعراء في هذا العصر، وكانت قصورهم تستقبل الشُّعراء المُدَّاح الذين جادوا بقصائد المدح التي تُعبّر – في مجملها – عن القبول بسياسة الخليفة، والرضا بحكمه، والتطلع إلى كسب مودته، واستعطائه وطلب مكافأته المُنتظرة، وقد مثّل هؤلاء الشُّعراء جانباً عظيماً من شعراء العصر العباسيّ الذين توسعوا في التكسب من الخلفاء إلى حدَّ الإفراط، وكانوا يعودون إلى منازلهم بالعطايا الجزيلة التي تُعبّر في المقابل عن رضا الخلفاء بالمدائح وإعجابهم بها، ومُقابلة ذلك الإعجاب بالإغداق على القائل.

ولكن هذه الصُّورة الغالبة على توجهات الشُّعراء في هذه المُدّة لم تكن الصُّورة الوحيدة التي ظهرت أمامنا في مشهد العلاقة بين الخليفة والشاعر، فقد رأينا فيما يُقابل هذه الصورة صورة أُخرى تمثلت بموقف الشاعر المعارض للخليفة، وإن بدت هذه الصُّورة بشكل أقلّ مما ظهرت به الصُّورة الآنفة، وقد تمثلت الصُّورة الأُخرى بقيام طائفة من الشعراء بحمل لواء المعارضة السياسيّة، وتوجيه النقد السياسيّ لرأس الهرم السياسيّ، أي الخليفة، والحديث عن الفساد السياسيّ والبُعد عن الحُكم الرشيد، بما جرّ على المجتمع شيوع المظالم وضياع الحقوق وانتهاك الحُرمات وفساد الأخلاق والبعد عن معالم الدِّين وأحكام الشريعة، وصولاً إلى إخلال الخلفاء بواجباتهم الدِّينية والدنيويّة، وانصرافهم إلى شؤونهم الخاصة، وتجميع الأموال، وتكديس الثروات، وبناء القصور والبرك، والاهتمام باللهو والترف والشهوات والملذات، والاستكثار من الجواري، مما قاد الخلافة العباسيّة إلى الضعف والهوان، حتى أصبح الخليفة – أخيراً – مُسيّراً يتحكم فيه حفنة من قادة الجُند، وكان هذا المستوى تعبيراً صارخاً عن تراجع هيبة الخلافة في نفوس الناس.

لم يكن الوضع السياسيّ يُرضي كثيراً من الشُّعراء، ولا سيّما من ذوي التوجهات السياسيّة، فقد وقف هؤلاء ضد الخلفاء، وحاولوا أن ينقدوا الأحوال السياسيّة عن طريق تعريض هؤلاء الخلفاء إلى الطعن والذم والتجريح والاستهزاء، وجاء هذا الموقف الرافض للفساد السياسيّ على شكل قصائد ومقطوعات هجائيّة وجّه الشُّعراء سهامها إلى الخلفاء، على خطورة ما كان ينتظرهم من صنوف التهديد والتعذيب، أو القتل أحياناً، والمُلاحظ أن بعض الشعراء سلك في هجاء الخلفاء طريقاً قائماً على التَّصريح والمكاشفة من غير خوف أو وجل، ولعل أشهر هؤلاء الشعراء الشاعر دِعْبل الخُزاعي الذي وقف موقفاً سياسياً جريئاً لكلِّ مَنْ عاصره

من الخلفاء العباسيين، حتى "لم يسلم منه أحدٌ من الخلفاء، ولا وزرائهم، ولا أولادهم"[١]. وقد مضى دعبل في سبيل المقاومة والمعارضة، ولم يكن يعرف تقية ولا حرجاً[٢]، وجعل جُلّ شعره في التنديد بالخلفاء، والحديث عن صُور الظلم التي مارسوها على الرعية، وهذا ما جعله يعيش عمره على سبيل التضحيّة، معرضاً حياته للمخاطر، هائماً على وجهه[٣]، خوفاً من أن تلحقه سيوف السُّلطة التي هجاها فتقطع عُنقه، ولعلَّ هذا الموقف هو الذي عبّر عنه دعبل بمقولته المشهورة: "أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة"[٤].

وفيما يُقابل ذلك، سلك بعض الشُّعراء سُبلاً مُواربة في هجاء الخلفاء، تقوم على التخفي والتستر وعدم المصارحة والإعلان، خشيةً من بطش الخليفة وسوء عذابه ونقمته، وقد حاول هذا الصنف من الشُّعراء عدم إظهار أسمائهم، أو التكتم على مواقفهم الحقيقيّة، لئلا يؤخذ بجريرة الهجاء الذي وجّه إلى الخليفة على سبيل النقد السِّياسيّ أو الرفض للواقع الفاسد، وحدّث في بعض الأحيان أن واجه الخليفة الشاعر بهجائه، فلم يكن من الشاعر إلا أن تنصل نافياً أن الهجاء المقول في الخليفة صَدَرَ عنه، ومن الشواهد على هذا المسلك أنّه لما مات الخليفةُ السَّفَّاح، وولي أخوه المنصور، دخل عليه الشاعر أبو دُلامة، فقال له أبو جعفر: ألست القائل لأبي العبّاس:

وكُنَّـــا بالخَلِيفَـــةِ قَـــدْ عَقَـــدْنَا ... لِـــواءَ الأَمْـــرِ فـــانْتَقَضَ اللِّـــواءُ

فَـــنَحنُ رَعِيَّـــةٌ هَلَكَـــتْ ضَـــيَاعاً ... تَسُـــوقُ بِنـــا إلـــى الفِـــتَنِ الرُّعَـــاءُ

قال: ما قلتُ هذا يا أميرَ المؤمنين. قال: كذبتَ والله، ثم اعتذر أبو دلامة بعد تنصله، وأمر به المنصور فأُدخل إلى الحبس[٥].

ومن الشواهد الواضحة على مُحاولة الشعراء إخفاء أهاجيهم في الخلفاء وتسترهم في إبرازها قصيدة بشار بن برد التي قالها في هجاء الخليفة المنصور، وكان بشار وجّه هذه

---

(١) الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)، الأغاني، نشره عبد الأمير مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلميّة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج٢، ص١٣١.

(٢) حاوي، إيليا، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص٤٧٤.

(٣) دعبل، دعبل بن علي الخزاعي (ت ٢٤٦هـ)، ديوان دعبل الخزاعي، جمع وتحقيق: عبد الصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٦٩.

(٤) ابن خلكان شمس الدين، أحمد بن محمد (ت ٦٨٥هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٨- ١٣٩٢هـ/ ١٩٦٨- ١٩٧٢م، ج٢، ص٢٦٦.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج١، ص٢٩٠، وأبو دُلامة، زند بن الجون الأسدي (ت ١٦١هـ)، ديوان أبي دلامة الأسدي، شرح وتحقيق: د. إيميل بديع يعقوب، دار الجيل، بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٩.

القصيدة إلى الأمير إبراهيم بن عبد الله الطالبي الذي ثار على المنصور في مدينة البصرة، وكان بشار يؤيده، فلما قُتل إبراهيم، وانتهت ثورته سنة ١٤٥هـ، خاف بشار بطش الخليفة، فعمد إلى قصيدته، وأجرى فيها تغييرات، وجعلها في أبي مُسلم الخراساني، وحذف منها أبياتاً وأبدل أسماءً، فقد كان أولها[١]:

أبا جَعْفرٍ مـا طُـولُ عـيشٍ بـدائمِ ولا سَـالمٌ عمّـا قليـلٍ بسـالمِ

قَلَبَ هذا البيت، فصار:

أبا مُسـلمٍ مـا طُـولُ عـيشٍ بـدائمِ ولا سـالمٌ عمّـا قليـلٍ بسـالمِ

وغيّر البيتَ الذي يقول فيه:

فَرُمْ وَزراً يُنْجِيـكَ يـا ابـنَ سـلامةٍ فلستَ بنـاجٍ مـن مَضـيمِ وضَـائمِ

فجعله:

فَرُمْ وَزراً يُنْجيـكَ يـا ابـنَ وَشـيكةٍ فلستَ بنـاجٍ مـن مَضـيمٍ وضَـائمِ

وسلامة هي أُم المنصور، ووشيكة هي أُم أبي مُسلم.

ثم حذف بشار البيت الثاني من هذين البيتين:

أقـولُ لِبسَّـامٍ عليـه جَلالـةٌ غـدا أريحيـاً عاشـقاً للمكـارمِ

مـن الفـاطميين الـدُّعاةِ إلـى الهُـدى جَهاراً، ومَنْ يهـديك مثـلُ ابـنِ فـاطمِ

وجَعَلَ بشار التحريضَ فيها على أبي مُسلم، والمدحَ والمشورة للمنصور، بعد أن كان التحريضُ على أبي مسلم، والمدحُ والمشورة لإبراهيم الطالبيّ.

ونُلاحظ أنَّ طائفة من الأشعار الهجائية التي قَصَدَ بها الشُّعراء العباسيون خُلفاءهم جاءت غفلاً من إثبات اسم القائل، أي إنها وردت من غير النص على اسم الشاعر، كأن يُقال: قال أحدهم...، أو قال شاعر...، أو قائل أحد البغداديين...، أو قال شاعر من أهل سامراء...، ونحو ذلك من العبارات القائمة على التعمية، ومن الشواهد على ذلك ما ذكره الطبري في حوادث سنة ٢٥٢هـ، يقول[٢]: "وقال بعضُ الشعراء في خلع المُستعين:

---

(١) انظر: الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٩- ١٥٠، ٢١١.

(٢) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، بيروت، د.ت، ج٩، ص٣٥٠، وابن الأثير، أبو الحسن، علي بن أبي الكرم=

خُلـــعَ الخَليفـــةُ أحمـــدُ بـــن مُحمّـــدٍ وسَـــيُقتلُ التَّـــالي لـــه، أو يُخلـــعُ
ويَـــزولُ مُلـــكُ بنـــي أبيـــه ولا يُـــرى أحَـــدٌ تملّـــكَ مَـــنهمُ يَسْـــتمْتعُ
إيّهـــاً بنـــي العبّـــاسِ إنَّ سَـــبيلكُمْ فـــي قَتْـــلِ أعْبُـــدكُمْ طَريـــقٌ مَهْيَـــعُ[1]
رَقَّعـــتمُ دُنيـــاكُمُ فَتَمزَّقَـــتْ بِكُـــمْ الحَيـــاةُ تمزُّقـــاً لا يُرْقـــعُ

وإذن، لم يكن الخلفاء رُغم مكانتهم السياسيّة بمعزل عن تعرّض الشعراء لهم بالذم والهجاء، لبواعث سياسيّة في المقام الأوّل، وشخصيّة في المقام الثّاني، فقد نالت الأهاجي من أكثر الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة في هذه المُدّة، مع مُلاحظة أنَّ تيار الهجاء بدأ ضعيفاً في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل، ولكنه أخذ يشتد ويتعاظم مع مرور الوقت وضعف هيبة الخلافة في النفوس، وتعاظم تيار هجاء الخلفاء في القرن الثالث بسبب تدهور مكانة الخليفة في عهد النفوذ التُّركي وانقضاء عهد الخلفاء العباسيين الأقوياء.

ويجدر مُلاحظة أنَّ عدداً كبيراً من الشعراء العباسيين الذين نسجوا قصائدهم ومقطوعاتهم في هجاء الخلفاء نسجوا بالمثل – قصائد ومقطوعات في مدحهم، فبشار بن برد والبحتري وابن الرومي وغيرهم من مشاهير شعراء العصر، قالوا في الخلفاء مدحاً وهجاءً، مُعبرين عن ثنائية السلب والإيجاب، وكان الموقف مدحاً أو هجاءً مُرتبطاً بعلاقة الشاعر بالخليفة، فإذا كانت العلاقة جيدة مدحه وأثنى عليه، وإذ تعكر صفو العلاقة حلت الأهاجي محل المدائح، وتحوّل المدح والثناء إلى ثلب وهجاء، وقد تتغير الأحوال وتعود العلاقات إلى سابق عهدها، ويرجع الشاعر إلى مدح الخليفة واسترضائه، على أنَّ بعض الشعراء لم يتغير موقفه، رُغم محاولة الخليفة استمالته، كما هو شأن دِعْبل الذي كان يصدر في موقفه من الخلفاء ورجال الدولة عن رؤيةٍ عقدية وموقفٍ سياسيّ، فهو يعارض سياسة العباسيين إجمالاً، وتعمر نَفْسَهُ روحٌ مشبعةٌ بالتشيّع العلويّ الذي يُؤمن بأحقية العباسيين بالحُكم والخلافة.

ولو رجعنا إلى الشاعر ابن الرومي، فسنجد له غير مواقف من الخلفاء العباسيين، فهو يكيل لهم مدائح كثيرة يعمر بها ديوانه، ولكنه يهجوهم هجاء سياسياً شديداً بعد قضائهم سنة ٢٥٠هـ على ثورة يحيى بن عمر العلوي، ويبدو أن هذا الحادث المؤسف الذي انتهى بمقتل

=(ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج٦، ص١٨٢- ١٨٣.

(١) مهيع: واسع.

الثائر أثار ابن الرُّومي فكتب مرثاةً حارةً في الفقيد، وهاجم فيها بني العبّاس الذين سُرّوا بهذا الخبر المحزن، وخاطبهم قائلاً[١]:

ألا أيهـــــا المُسْتبشـــــرونَ بِيومِـــــهِ أظلّـــت علـــيكم غُمـــةٌ لا تُفَـــرجُ
أكلُّكـــم أمســـى اطمـــأن مِهـــادُهُ بـــأنَّ رســـولَ اللهِ فـــي القبـــرِ مُـــزْعَجُ؟
فـــلا تَشـــمتوا وليخســـأ المـــرءُ مِـــنكُم بوجـــهٍ كـــأنَّ اللـــونَ مِنْـــه اليرَنْـــدَجُ[٢]

ثم ينتقل إلى التصريح باسم بني العباس الذي بلغوا في الطغيان والغي منزلة عالية، وغرهم بالله الغرور، وأقاموا ولاة السوء على الناس[٣]:

تُمـــدُّون فـــي طُغيـــانكم وضَـــلالكم ويُسْـــتدرجُ المغـــرورُ مـــنكم فَيـــدُرْجُ
أَجِنُّـــوا "بنـــي العبّـــاس" مـــن شَـــنآنكم وأرْكُوا علـــى فـــي العِيـــابِ وأشْـــرِجُوا[٤]
وخلـــوا ولاةَ السَّـــوء مـــنكم وَغـــيَّهُم فأحـــدِ بِهـــم أن يغرقـــوا حَيْـــثُ لحّجـــوا

وهكذا يوجّه ابن الرّومي في هذه القصيدة سهامَ النقد السياسي للعباسيين، فهم ظلمة غاشمون، وولاتهم سوء، وأولى بهم ألا يشتموا؛ لأن الدَّهر قَلِبٌ، ولأن الأيام ستدور عليهم، وإذا كانوا قد نجحوا في قتل ثائر علويٍّ فسيخرج له آخر سيكتب له النصر عليهم. ثم يعمد إلى المقارنة بين العباسيين والعلويين مقارنة ساخرة، فالعباسيون تبعّجت بطونهم من كثرة الأكل، وهم ثقال الخطى أكفالهم تترجرج، بينما العلويون مسهم الجوع والضوى[٥].

* الخلفاء العباسيون أمام هجاء الشعراء ونقدهم.

واجه الخلفاء العباسيون كما أشار الباحث هجاءً قوياً من بعض الشعراء الذين لم يرق لهم حُكم العباسيين، أو كانوا على خلاف شخصيّ مع بعض الخلفاء، فعبروا عن عدم رضاهم بالتعرض للخليفة ونقد سياسته وأخلاقه وسلوكه وشخصه، وهو المحور الأكثر أهمية في هجاء الخلفاء العباسيين، ونظراً لتشعب الموضوع، سوف نستعرض طائفة من الأهاجي التي قالها الشعراء في الخلفاء على الترتيب، تأكيداً على أن موجه الشعراء السياسيّ نالت أكثر الخلفاء، مع

---

(١) ابن الرومي، أبو الحسن، علي بن العباس بن جريج (ت٢٨٣هـ)، الديوان، تحقيق: د. حسين نصّار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣١٣- ١٤٠١هـ/١٩٧٣-١٩٨١م، ج٢، ص٤٩٥.

(٢) اليرندج: صبغ أو جلد أسود اللون.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٩٦.

(٤) الشنآن: البُغض.

(٥) جيدة، عبد الحميد، قصيدة الهجاء عند دعبل الخزاعي وابن الرومي، دار الشمال، طرابلس، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الإشارة إلى مقدار التطورات التي بدأت تظهر مع مرور الوقت وتدهور مستوى قوة الخلافة نفسها.

- السفاح.

بناءً على الخبر الذي ساقه أبو الفرج الأصفهاني، وقد أورده الباحث قبل قليل، يُعدُّ الشاعر أبو دلامة الأسدي من أوائل الشعراء العباسيين الذين وجهوا شعرهم الهجائي إلى صدور الخلفاء، رُغم أنَّ أبا دلامة كان صاحب أدب ونادرة وظرف وخبر وفصاحة[١]، ولم يكن له موقف سياسيّ يُدافع عنه حتى يقول شعراً يتعرّض فيه للخليفة السّفاح، أول خلفاء الدولة العباسية، يقول[٢]:

وكُنّـــــا بالخَليفـــــةِ قَـــــدْ عَقَـــــدنا لـــــواءَ الأمـــــرِ فـــــانتقضَ اللِّـــــواءُ
فـــــنحنُ رَعِيّـــــةٌ هَلكـــــتْ ضَـــــيَاعاً تَسَـــــوقُ بنـــــا إلـــــى الفِـــــتَنِ الرُّعَـــــاءُ

ولا يبدو أبو دلامة مُعارضاً سياسيّاً بقدر ما يتراءى ناقماً على الحال الذي انتهت إليه الرعيّة في عهد السَّفاح، فالبيت الأول يُفصح عما كان يؤمله الشاعر وغيره من الخليفة الأوّل، ولكن هذا المأمول سرعان ما تبدد، فخاب الرجاء في الخليفة، وتردت أحوالُ الناس إلى درجة الضياع، وعانوا وقع الفتن التي جلبت معها الفساد والهلاك واضطراب حبل الأمن، وكأنما كان الخليفة هو قائد الناس الذي يقودهم فيما واجهوه من فتن، حتى لكأنما هو الراعي الذي يُوجّه قطيعه ويسوقه في تلكم الفتن السّوداء.

لقد حاول أبو دُلامة، أن يشخص ما أصاب مؤسسة الخلافة من خراب تمثل بعجز الخليفة نفسه عن قيادة الأمر بهمة وكفاية عالية، حتى انعكس هذا الواقع السياسيّ المرير على المجتمع، فإذا هو يعيش حالةً من الاضطراب والضياع، وإذا الخليفة ومَنْ معه من ولاة الأمر هم رؤوس الفتنة التي يُساق الناس إليها سوقاً، كما لو كانوا قطعاناً من الماشية، لا تعرف إلى أين يسوقها الجزّار.

- المنصور.

نال الخليفة المنصور – الخليفة الثاني – شيء من أهاجي الشُّعراء المعاصرين له، وتُعدُّ قصيدة بشار ابن برد الميمية في هجائه من أشهر الأهاجي التي شُهرت آنذاك، وقد مرّ أن بشاراً

---

(١) انظر: الخطيب البغدادي أبو بكر، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الفكر– بيروت، د.ت، ج٨، ص٤٨٨، والأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج١٠، ص٢٨١.

(٢) أبو دُلامة، الديوان، مصدر سابق، ص٢٩.

خاف من الخليفة المنصور، فقلب وغيّر فيها، من أجل إخفاء حقيقة أنه قالها في هجاء الخليفة، مُحولاً إياها إلى هجاء أبي مُسلم الخراساني الذي قتله المنصور، وفيها يقولُ هاجياً المنصور[١]:

أبا جَعْفرٍ ما طولُ عيشٍ بدائمٍ ... ولا سالمٌ عما قليلٍ بسالمِ
علـــى المَلَـــكِ الجَبّـــارِ يَقْـــتحمُ الـــرَّدى ... ويَصْـــرعُهُ فـــي المـــآزقِ المُـــتلازمِ
كأنَّـــك لـــم تَسْـــمعْ بقتـــلِ مُتَـــوَّجٍ ... عَظـــيمٍ ولـــم تَسْـــمع بفتـــكِ الأعـــاجمِ
تَقســـم كِســـرى رَهْطَـــهُ بســـيوفهم ... وأمســـى أبُـــو العبَّـــاس أحْـــلامَ نـــائمِ[٢]
....
ومروانُ قد دارت علـــى رأســـهِ الرَّحـــى ... وكـــانَ لِمـــا أجْرَمْـــتَ نَـــزْرَ الجَـــرائمِ[٣]
فأصبحتَ تجـــري سَـــادراً فـــي طَـــريقهم ... ولا تتقـــي أشـــباهَ تلـــكَ النَّقـــائمِ[٤]
تجـــردتَ للإســـلامِ تَعْفُـــو سَـــبيلَهُ ... وتُعْـــري مَطـــاهُ لليُـــوثِ الضَّـــراغمِ[٥]
فما زلـــتَ حتَّـــى استَتنصـــرَ الـــدِّينُ أهلَـــهُ ... عَليـــكَ، فَعـــاذُوا بالسُّـــيوفِ الصَّـــوارمِ[٦]
فَـــرُمْ وَزراً يُنْجيـــك يـــا ابـــنَ سَـــلامةٍ، ... فلســـتَ بنـــاجٍ مـــن مَضـــيم وضـــائمِ[٧]
لحـــا اللهُ قَومـــاً رأسَّـــوكَ عَلـــيهمُ ... وما زِلـــتَ مَرْؤوســـاً خَبيـــثَ المطَـــاعمِ[٨]

يبدو واضحاً من هذه الأبيات أنَّ الشَّاعر يذكر كُنية الخليفة (أبا جعفر)، ويُصرح باسم أُمه (ابن سلامة)، ويشير بشكل غير صريح إلى أنّه الخليفة (رأسّوك)، وهذا أول مسالك الهجاء التي يذرعها الشاعر، ثم يتحوّل بعد ذلك إلى سوق بعض الشواهد على الحُكّام الذين سبقوا من عجم وعرب، وكيف انتهى مصيرهم إلى الهلاك، كأنهم لم يملكوا يوماً واحداً، ويسوق الشاعر هذه الشواهد على سبيل ردع الخليفة وتخويفه من التمادي في البغي والظلم والغُرور، إذ إن الفناء أتى على من فاقوه عجباً وغياً وظلماً، فما أغنى ما كانوا فيه من أُبهةٍ وسُلطان.

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٩- ١٥٠، وبشار بن برد (ت ١٦٧هـ)، ديوان بشار بن برد، قدّم له وشرحه: د.صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج٤، ص١٧٣- ١٧٤.

(٢) أبو العباس: الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، أحد الخلفاء الأُمويين المتأخرين.

(٣) النزر: القليل.

(٤) السّادر: الذي لا يهتم بما يصنع.

(٥) مطاه: ظهره.

(٦) الصوارم: القواطع.

(٧) الوزر: الحبل المنيع.

(٨) لحا الله قوماً: لعنهم وقبحهم.

وبعد ذكره بعض الشواهد على الطغاة البائدين قبل المنصور، يدنو الشاعر أكثر من غرضه، وهو هجاء الخليفة والقدح فيه، فيبين أنَّ المنصور يسلك سبيل أُولئك الطغاة، فهو سائر في طريقهم، ولم يبدر منه ما يدلُّ على اتقائه عواقب المصائب والنقم التي أصابتهم بسبب غيهم وتماديهم في باطلهم. ويذهب الشاعر إلى ما هو أبعد من ذلك حين يجعل الخليفة من أعداء الإسلام الذين محو آثار الدِّين وكشفوا عوراته للطاغين عليه، بيد أنَّ الدِّين استصرخ أهله، فهبوا يُقاتلون المنصور ويدافعون عن الشَّريعة، وهو يُشيرُ إلى ثورة إبراهيم بن عبد الله الطالبيّ ضدّ المنصور، مُؤكداً أنَّ هذه الثَّورة ستقضي على المنصور، ولن يتمكن من إحرازِ النجاة لنفسه. وينتهي بشار إلى تسفيه الذين اختاروا المنصور رئيساً عليهم، وكأنما هو ينزع أهليته لتقلّد الشَّأن العام للمُسلمين، ولا يراه أهلاً للقيادة.

- المهدي.

وينقضي عهدُ المنصور، ويتولى الخلافة ابنه المهدي من بعده، ورُغم أن بشاراً خصّ هذا الخليفة بالعديد من مدائحه، فإنه أفرغ في هجائه بعض الأبيات والمقطوعة اللاذعة التي تُعبّر عن نقدٍ سياسيٍّ وشخصيٍّ قاسٍ، ومن أشدّها قوله[١]:

خَليفـــــــةٌ ..... بِعَمَّاتِـــــــهِ يَلْعـــــــبُ بالـــــــدَّبُّوقِ والصَّـــــــوْلَجانْ

أبْـــــــدَلَنَا اللهُ بـــــــه غَيْـــــــرَهُ وَدَسَّ "موســـــى" في ..... "الخَيْزُرانْ"

يُعدُّ هذان البيتان من أقذع الهجاء الذي نظمه الشُّعراء العباسيون في هجاء الخلفاء، ويبدو هذا الإقذاع واضحاً في الشطر الأول من البيت الأول والشطر الثاني من البيت الثاني، ويتمثل هذا الإقذاع باتهام الخليفة بالزنا، وهو أحد الكبائر المُحرّمة في الشَّرع الإسلاميّ، ويبدو هذا الاتهام عظيماً من وجهتين، أولهما أنّه موجّه إلى خليفة المُسلمين الذي هو المسؤول عن تطبيق أحكام الشّرع وتنفيذ حدود الله، فإذا كان ارتكاب الحدّ آتياً من جهته، فهذا أغلظ وأعظم مما لو أتى من غيره من المسلمين، وثانيهما أنّ تهمة الخليفة بالزنا ليست كغيرها من التُّهم، فهو متهم بارتكاب هذه الفاحشة مع عماته اللواتي هُن من محارمه، وهذا أغلظ في التهمة مما لو كان الزنا بغير أرحامه اللواتي حرمهن الله عليه حُرمةً أبدية.

وكما يبدو هذا الإقذاع ماثلاً في الشطر الثاني من البيت الثاني، ففيه تصريح بذكر سوءة المرأة ولعل مما زاد في حِدّة هذا الإقذاع المُسفّ أن السَّوءة المذكورة مضافة إلى امرأة مُسماة هي الخَيْزران، وهي إحدى الجواري اللواتي تزوجهن الخليفة المهدي، وهي أُم ولديه موسى

---

(١) بشار بن برد، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص١٨١– ١٨٢، والبيتان في الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مصدر سابق، ج٨، ص١٨١، والأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤١.

الهادي وهارون الرشيد. ولعلّ في هذا الشطر ما يدلّ على أن الخليفة المقصود بهذا الهجاء المُقذع هو المهدي لا غيره، إذ تبدو الإشارة واضحة إلى أحد أبنائه – موسى – وإحدى جواريه – الخيزران.

لقد حاول بشار أن يُعبّر في هذين البيتين عن فساد أخلاق الخليفة، وعدم تورعه من ارتكاب أعظم المُحرمات الشرعية، ولم يكتفِ حتى وجّه النقد إلى سوء سياسته، إذ كان منصرفاً إلى قضاء شهواته وملذاته الخاصة، حتى أدمن اللعب والتسلية، وترك شؤون الرعية مُهملة، فالخليفة يلعب بالدَّبوق والصَّولجان، وتبدو السخرية واضحة في الإشارة إلى اللعبة الأُولى، فهي لعبة للصبيان والأطفال، لا للكبار، فرغم أن الخليفة مباح له أن يلهو من حيث المبدأ، إلا أنه يختار من الملاهي ما لا يناسبه، فهو يحب التسلية بأحد ألعاب صغار السِّن، وفي هذا هجاء يُسلب الخليفة رجولته، وينحط به إلى مستوى الطفولة.

ويبدو واضحاً من البيت الثَّاني عدم قناعة بشار بالمهدي ليكون خليفةً للمسلمين، فضلاً عن ولي عهده موسى الهادي، ولذا يدعو الله متوسلاً إليه أن يبدل المسلمين خيراً منه، وأن يريحهم من ولي عهده القادم، وتبدو السّخرية في إلباس الدعوة الأخيرة صُورة هزليّة قوامها اختفاء ولي العهد ودخوله مجدداً إلى الموضع الذي منه ولد وخرج إلى هذه الدُّنيا، وهي سخرية لاذعة ممزوجة بالهجاء المُقذع. وإذا كان الهجّاء، يصوّر مثله الأعلى، من خلال سخطه وغضبه أو اشمئزازه واحتقاره[١]، فهذا ما فعله بشار في هذين البيتين اللذين صوّر فيهما مثله السلبي والأعلى.

وكان بشارٌ قد هجا الخليفة المهدي قبل هذين البيتين بيتين آخرين، نقد فيهما تسلط الوزير يعقوب بن دواد على الخليفة، وهيمنته على سياسية الدَّولة، حتى بات الآمر الناهي على خليفة ضعيف لا حول له ولا قوة بتدبير شؤون البلاد والعباد، هذا مع انصراف الخليفة –على ضعفه– إلى قضاء أوقاته بالعبث واللهو، والانصراف عن رعاية الشؤون العامة للناس، يقول بشار في هذين البيتين[٢]:

"بَنـــي أُميـــةَ" هُبَّـــوا طَـــالَ نَـــومُكُمْ إنَّ الخَليفـــــةَ "يعقـــــوبُ بـــــنُ دَوادِ"
ضَـــاعتْ خِلافـــتكَمُ يـــا قَـــومُ فالتمســـوا خَليفـــــةَ اللهِ بَـــيْنَ الـــزِّقِ والعُـــودِ

---

(١) حسين، محمد محمد، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠، ص١٩.

(٢) بشار بن برد، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص٥١، والأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤١.

وجاء البيت الأوّل في رواية أُخرى على هذه الصّورة[١]:

يا أيُّهـــا النَّـــاسُ قـــد ضَـــاعت خِلافـــتكُمْ إنَّ الخَليفـــــةَ "يعقـــــوبُ بـــــنُ دَواد"

يبدو واضحاً أن الشَّاعر يُوجّه هجاءه اللاذع للخليفة أكثر مما يوجّه إلى الوزير، فالوزير أقوى من الخليفة وقد استولى على الأمر، وأمّا الخليفة فقد ضيع الخلافة حين سلّمها إلى الوزير، وانصرف هو إلى قضاء شهواته وملذاته الخاصة، ولا سيّما سماع الغناء وشرب الخمر، متناسياً دوره في حكم المُسلمين وإقامة العدل بين الرعية.

ولعل البدء بتوجيه الخطاب إلى الأُمويين الذين كانوا يتقلدون الخلافة قبل أن يتغلب عليهم بنو العباس ويُسقطوا حُكمهم، هو تحريض من الشاعر على عودة الخلافة إلى الأُمويين ما دام أن الخليفة العباسيّ لم يعد له وجود حقيقي في ضوء تسلط وزيره يعقوب بن دواد على مقاليد الأمر وتحكمه بسياسة الدّولة كاملةً.

ويرى الشاعر أن الفرصة أصبحت مواتية لبني أُمية ليهبوا من جديد؛ لاسترداد ملكهم الذي اغتصبه العباسيون منهم، ويرد هذا على سبيل التهكم بالعباسيين الذين ضعفت خلافتهم إلى درجة الهزال، حين تخلى الخليفة عن واجباته الأساسية وأسندها إلى وزيره، وانصرف هو إلى الشرب والغناء. وهكذا شخّص بشار حال الخلافة بالضياع، وهو مؤشر إلى مدى التدهور الذي أصاب مُؤسسة الحكم آنذاك.

ولعل من أوضح ما يدلّ على قسوة العقوبة التي كان يلقاها الشاعر إذا وجّه سهام نقده، أو هجائه اللاذع، إلى الخليفة ما لقيه بشار بعد أن تناهى إلى سمع الخليفة المهدي بعض الأبيات السابقة التي قالها في هجائه، إذ ساق أبو الفرج الأصفهاني خبر أمر المهدي بقتل بشار بعدما هجاه، فقال[٢]: "دخل يعقوب بن دواد على المهدي، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنَّ هذا الأعمى الملحد الزنديق قد هجاك؛ فقال: بأي شيءٍ؟ فقال: بما لا ينطق به لساني، ولا يتوهمه فكري؛ فقال له: بحياتي إلا أنشدتني! فقال: والله لو خيّرتني بين إنشادي إيّاه وبين ضرب عُنقي لاخترتُ ضرب عُنقي، فحلف عليه المهدي بالأيمان التي لا فُسحةَ فيها أن يخبره؛ فقال: أما لفظاً فلا، ولكنّي أكتبُ ذلك، فكتبه ودفعه إليه، فكاد ينْشقّ غيضاً، وعمد على الانحدار إلى البصرة للنَّظر في أمرها... ثم دعا بابن نَهيك فأمره بضربه – أي بشار – بالسّوط فضربه بين يديه على صَدْر

---

(١) بشار بن برد، الديوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٨.

(٢) انظر: الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤١– ٢٤٢.

الحرَّاقة[١] سبعين أتلفه فيها... فلما ضربه سبعين سوطاً بان الموت فيه، فألقي في سفينة حتى مات".

يقول الدكتور يوسف خليف مُعلقاً على مقتل بشار: "ومن الممكن أن تكون الزندقة هي السبب في قتل بشار، ولكن من المُحتمل إلى حدٍّ بعيد أن تكون هناك أسباب أُخرى لعبت دورها في هذه المأساة، واستغلت الزندقة لتكون السبب المباشر الظاهر أمام الناس. ومن المُحتمل جدّاً أن يكون هجاء بشار للخليفة المهدي ولوزيره يعقوب بن دواد هو السبب المباشر لقتله، فالرواة يتحدثون بأبيات شديد الإفحاش يهجو فيها الخليفة ووزيره"[٢].

ومن الشعراء الذين هجوا المهدي السيد الحميريّ، المشهور بميوله الشيعية المعارضة للعباسيين، يقول[٣]:

ظَنَنـــــا أنَّـــــه "المهـــــديُّ" حَقّـــــاً ولا تقـــــعُ الأُمـــــورُ كمـــــا ظَنَنّـــــا
وَلا واللهِ مـــــــــا المهـــــــــديُّ إلاَّ إمـــــامٌ فضـــــلُهُ أعلـــــى وأســـــنى

يُركّز الشاعرُ في هجائه للخليفة المهدي على نقض المعاني الإيجابيّة التي يحملها لقبه، وهذا اللقب له دلالاته العقديّة عند السُّنة والشيعة على السّواء، وهو يُشير إلى الهداية التي ينشرها المهدي المُنتظر الذي يملأ طباق الأرض عدلاً كما مُلئت جَوراً، وإن هذا المعنى الإيجابي كان مأمولاً أن يتجلى في شخص الخليفة الذي اتخذ هذا اللقب الديني، بيد أن الشاعر خاب ظنُّه بحاملِ اللقب، ودلالة على هذه الخيبة يُغلظ القسم بأن الخليفة "المهدي" ليس "مهدياً"، لأن أفعاله لا تُوافق معنى هذا اللقب، ولأن فضل المهدي الحقيقي أعلى وأسمى مما عليه الخليفة العباسي الملقب بالمهدي.

---

(١) الحرّاقة: السّفينة التي يُرمى بها النار على العدو.

(٢) خليف، يوسف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٥٤.

(٣) السيّد الحميريّ، محمد بن إسماعيل (ت١٧٣هـ)، ديوان السيد الحميري، شرحه وقدم له: ضياء الأعلميّ، مؤسسة النور للمطبوعات، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٠٦- ٢٠٧.

- هارون الرشيد.

وصف الخليفة هارون الرشيد من بعض الشعراء بالغفلة التي سوّلت لبعض كُتّاب الدواوين السّطو على أموال الدّولة وسرقتها، فقد ذُكر أن شاعراً مدح أبا حاتم، أحد كُتّاب الديوان آنذاك، فلم يصله بشيء، فأنشأ يقول:

لَتُنْضــــفنّي يـــــا "أبـــــا حـــــاتمٍ" أو لأصـــــــيرنَّ إلـــــــى حَـــــاكمِ
أوّلَ مـــــا أتْلَفـــــت مـــــن مالـــــهِ خمســـينَ ألفـــاً فـــي شِـــرَى هاشـــمِ
خمســـــينَ ألفـــــاً وَضَـــــحاً كُلّهـــــا مـــــن مـــــالِ هـــــذا المَلِـــكِ النَّـــائمِ

وأوصل صاحبُ الخبر الشِّعرَ إلى الرشيد، فقال صدق، لولا أني نائم ما كانت تجري على هذا السبيل، وأمر بتدقيق الحساب فَوجِدَ ما يدلّ على صدق الشاعر(١). ولعلّ في وصف الخليفة بالنائم ما يدلّ على غفلته، وعدم معرفته بما يدور من حوله في إدارات الدّولة، وما يقوم به المؤتمنون على المال من سرقته، من غير أن يعرف أحدٌ بهم.

وتعرّض دعبل الخزاعي في إحدى مراثيه لآل البيت لهارون الرشيد بعد موته، فقال(٢):

أرى "أُميّـــــةَ" مَعْـــــذورينَ إن قَتَلُـــــوا ولا أرى لبنـــــي العبّـــــاسِ مـــــن عُـــــذْرِ
....
أربَـــعْ "بِطُـــوسٍ" علـــى قَبْـــرِ الزَّكـــيّ بهـــا إن كُنـــتَ مـــن دِيـــنٍ علـــى وَطَـــر(٣)
قَبرانِ فـــي "طـــوسَ": خَيْـــرُ النـــاسِ كُلِّهـــمُ وقَبْـــرِ شَـــرّهم، هـــذا مـــن العِبـــرِ! (٤)
ما يَنْفعُ كُلُّ الرِّجس من قُـــربِ الزَّكـــيّ، ولا علـــى الزّكـــيّ بقُربِ الرِّجسِ من ضَـــررِ(٥)
هَيهاتَ كُـــلُّ امـــرىءٍ رَهْـــنٌ بمـــا كَسَـــبَتْ لـــه يَـــداهُ، فَخُـــذْ مـــا شـــئتَ، أو فَـــذرِ

تشف هذه الأبيات عن موقف دعبل من الرشيد إذ يصفه بأنه "شرّ الناس"، و"الرِّجس"، ويؤكد أن قرب قبره من قبر علي بن موسى الرِّضا ليس ينفعه، وليس يلحق الضرر بالرِّضا؛ لأن كل واحد منهما له ما عمل، وما كسبت يداه.

---

(١) البيهقي، إبراهيم بن محمد (من أهل القرن الرابع)، المحاسن والمساوئ، قدّم له وحققه: محمد سويد، دار إحياء العلوم، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٥٦٨.

(٢) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٩٧– ١٩٨.

(٣) أربع: وقف وانتظر، وقبر الزكي: أراد الإمام علي بن موسى الرِّضا.

(٤) قبر شرهم: أراد الرشيد.

(٥) الرِّجس: أراد الرشيد.

- الأمين.

نال الخليفة الأمين بعض ما نال أسلافه من الهجاء الممزوج بالسخرية والتهكم، فقد نظم أبو نواس بعض المقطوعات في الاستهزاء به، والتطير من تدبيره، رُغم مدحه إياه بعددٍ وافرٍ من القصائد التي حفظها ديوانه المطبوع، وتُمثل مقطوعاته في هجاء الأمين الوجه الخفي لعلاقة الشاعر السّلبية بالخليفة، بعدما عبرت قصائده المدحية التي تعد بالعشرات عن الوجه الظاهر لهذه العلاقة، يقول أبو نواس في إحدى مقطوعاته[١]:

احْمَدُوا اللهَ كَثيراً ... يا جَميعَ المُسْلِمينَا
ثُمَّ تُولّوا لا تَمَلُّوا: ... رَبّنا أبْقِ الأمينَا
صَبَّرَ ..... حتَّى ... جَعَلَ التَّصْبيرَ دِيْنَا[٢]
فاقْتَدَى النَّاسُ جَميعاً ... بأميرِ المُؤْمِنينَا

إنَّ دعوة المسلمين لحمد الله عزَّ وجلَّ، ودعوتهم إلى بقاء الأمين خليفة عليهم، ما هي إلا من قبيل السخرية التي يستهل بها الشاعر؛ كون ما بعدها يسوّغ الاستهلال بها، وهي ليست دعوة حقيقة أبداً، إذ إن ما يفعله الخليفة من حماقات سيشير إليها الشاعر، لا توجب الحمد والشكر، بل توجب الحوقلة والاسترجاع.

ويبدو الهجاء المُقذع في البيت الثالث تحديداً، ففي هذا البيت إشارة إلى السلوك الشاذّ الذي كان يمارسه الخليفة مع غلمانه، وهو اللواط، وعبّر عن ذلك بلفظ "صبّر" الذي يشير إلى تكويم الغلام أمام الفاعل؛ لممارسة فعلته الشّاذة به، ويدل الشطر الثاني من البيت نفسه إلى إدمان الخليفة التمتع غير المشروع بغلمانه حتى أضحى هذا الفعل ديدناً له وعادةً لا يكاد يتركها، وزاد الطين بِلّةً أن اقتدى العامة بفعل خليفتهم حتى شاع الشذوذ الجنسي وانتشر بين الناس.

ولعل اتهام الخليفة بهذا السلوك يُذكرنا بشعر بشار بن برد الذي ذكر فيه زنا الخليفة المهدي بمحارمه، وقد سبق ذكره قبل قليل. ويبدو واضحاً أن السلوك الجنسي الشاذ، أو الشائن، كان أحد المعاني الهجائية التي ألزقها الشعراء العباسيون بخلفائهم، ويؤكد هذا قول أبي نواس في مقطوعاته الأُخرى في هجاء الأمين أيضاً[٣]:

قَدْ رفعنَا البُزاقَ مُذْ شَهْرَيْنِ ... إذْ كَفانَا نَداوةُ .....

---

(١) أبو نواس، الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس، تحقيق وشرح: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٥٥٤.

(٢) صبّر الخصي: كومه أمامه ليفعل به المُنكر.

(٣) أبو نواس، الديوان، مصدر سابق، ص٥٥٤.

ابـــنُ عَـــمِّ النَّبـــي هـــذا إمـــامٌ ولا عَـــدمْنَاهُ قُـــدوةُ الثَّقلـــيْنِ
يـــا بُغـــاةَ الخِصْـــيانِ لا تَحْـــذَرُوهُ واعفِصُـــوهُمْ بَقيـــةَ العَصْـــرينِ

ولا تختلف هذه المقطوعة عن سابقتها، ففيها هجاءٌ للخليفة ممزوج بالسخرية، وفيها اتهام للخليفة باللواط، وفيها ما يشير إلى استفحال هذه الظاهرة الخُلقية الشاذة في المجتمع العباسيّ، ولا غرابة في ذلك ما دام الناس يقتدون بإمامهم في ارتكاب هذا السلوك الغريب.

- المأمون.

وانتقالاً إلى الخليفة المأمون الذي ولي الخلافة بعد أن خَلَعَ أخاه الأمين، يجد الدّارس أن عدداً من الشُّعراء نظموا القصائد والمقطوعات في هجائه ونقد سياسته وتدبيره، وتتعانق معاني الهجاء الموجهة إليه مع المعاني الواردة في المقطوعات الهجائية الموجّهة إلى الخلفاء الذين سبقوه، من ذلك ما قاله عمه الأمير الشاعر إبراهيم بن المهدي في هجائه، يقول[١]:

صـــدَّ عَـــنْ تَوْبَـــةٍ وعَـــنْ إخْبـــاتِ ولَهـــاً بـــالمُجُونِ والقَيْنـــاتِ
لَـــيْسَ يَنْفَـــكُّ مَازجـــاً فـــي يَدَيْـــهِ خَمْـــرَ "قَطْرَبُّـــلٍ" بمـــاءِ "الفُـــراتِ"[٢]
مـــا يُبـــالي إذا خـــلا "بـــأبي عيســـى" وشَـــرْبٍ مِـــنْ بُـــدَّنٍ عَطِـــراتِ
أنْ يَغَـــصَّ المظلُـــومُ فـــي حَوْمَـــةِ الجَـــوْ رِ بـــداءٍ بَـــيْنَ الحَشَـــا واللَّهـــاةِ

تتضمن هذه الأبيات هجوماً على الخليفة واتهاماً له بارتكاب المعصية، والتمادي في البعد عن الدِّين، ويدلُّ على هذا التمادي صدود المهجو عن التوبة والإقلاع عن معصيته، وإذا كان مفروضاً أن يكون خليفة المسلمين خاشعاً مخبتاً لله، قائماً بأحكام الدِّين، فإن المأمون – من وجهة نظر عمّه إبراهيم المهدي – يُباين هذا المأمول، فلا يبدو إلا منصرفاً إلى اللهو والمجون، وما يُخالف الدِّين، فهو يركّز جُلّ أوقاته في الجلوس إلى القينات المغنيات، مع الانصراف إلى الخلاعة واللهو غير البرئ، وينغمس في مجالسه اللاهية بشرب الخمر، حتى إن كؤوس الشّراب لا تبرح يديه. ويخص الشاعر خمر "قَطْرَبُّل"، لأن خمر هذه البلدة مشهور بفعله في الرأس ما لا تفعله غير من الخمور المُعتّقة، حتى إن تأثير الخمر القطربلي في الخليفة يتركه غير صاحٍ لما كان يجب أن يكون يقظاً بحقه.

---

(١) إبراهيم المهدي، أبو إسحاق العباسي (ت ٢٢٤هـ)، شرح ديوان إبراهيم بن المهدي، جمع وتحقيق: أنطوال القوّال، دار الفكر العربي، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٣٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٣٢، والصولي، أبو بكر، محمد بن يحيى (ت ٣٣٤هـ)، أشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق، تحقيق: ج. هيورث، دن، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣٢.

(٢) قطربل: محلة قريبة من بغداد مشهورة بخمورها.

وكما يرى الشاعر، فإنَّ هذه الأفعال السيئة التي تركت الخليفة سكران لا يكاد يصحو من سكرته، وجعلته غير مبالٍ بما يدور في الخارج وراء أسوار قصره اللاهي، فلا هو يسمع نداء المظلومين، ولا هو ملتفت إلى استغاثة الذين وقع عليه الجور، فالمظلوم يصرخ بأعلى صوته ولا مجيب، والخليفة في صمم عن سماع أصوات أصحابه الحقّ؛ بسبب انشغاله بملذاته الخاصة، وهذا ما يجعل التواصل بين الراعي والرعية أمراً صعباً، فما دام الخليفة غير مبالٍ إلا بتناول الكؤوس من يد ساقيه "أبي عيسى"، وما دامت الجواري الجميلات يرقصن في حَضرته في مجالس أُنسه الخمرية، فلن يكون للضعيف أو المظلوم صوت مسموع، ولو علا وارتفع هذا الصوت.

ومن شعر إبراهيم بن المهدي – أيضاً – في هجاء ابن أخيه الخليفة المأمون قوله[١]:

إذا الشِّـــيعيُّ جَمْجَـــمَ فـــي مَقـــالٍ فَسَـــرَّكَ أن يَبُـــوحَ بـــذاتِ نَفْسِـــهِ
فَصَـــلِّ عَلَـــى النَّبـــيِّ وصَـــاحِبَيْهِ وزَيْرَيـــهِ وجَارَيْـــهِ بِرِمْســـهِ[٢]

يوجّه إبراهيم بن المهدي الذي كان يُظهر ميوله السُّنية نقده إلى الخليفة المأمون الذي كان ميالاً إلى التشيع، فيصفه بالشيعيّ صراحةً، وإن كان هذا الوصف لا يحتمل الإطلاق أيضاً، مُبيناً طريقه كشف ما يخفيه الشيعي من اعتقاد، فإذا أردت أن تتكشف الشيعي وما هو عليه من عقيدة، فأبدأ عنده بالصلاة على الرسول، صلى الله عليه وسلّم، وأكثر من ذكر صاحبيه أبي بكر وعُمر، رضي الله عنهما، فعندها يتضايق الرافضي وينزعج، ويُسفر عن حقيقته التي يحاول إخفاءها، وهي كُرّه الصحابة وعدم توقير أكثرهم.

ومما قال الشعراء العباسيون في هجاء المأمون ونقده قول دِعبل الخزاعيّ[٣]:

أيَسْـــومُني المـــأمونُ خِطّـــةَ جاهـــلٍ أو مـــا رأى بـــالأمسِ رَأسَ مُحمّـــدِ؟!
نُـــوفي عَلَـــى هـــامِ الخَلائـــفِ مِثْلَمـــا تُـــوفي الجبـــالُ علـــى رُؤوسِ القَـــرْدَدِ[٤]
ونَحَـــلُّ فـــي أكْنـــافِ كُـــلِّ مُمَنَّـــعٍ حتَّـــى نُـــذَلِّلَ شَـــاهِقاً لـــم يُصْـــعدِ[٥]

---

(١) المسعودي أبو الحسن، علي بن الحسن (ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدِّين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت، ج٤، ص٥.

(٢) الرمس: القبر، وأراد أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، وقد دُفانا إلى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٣) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٧٥– ١٧٦.

(٤) هام: رؤوس، والخلائف: الخلفاء، والقردد: ما ارتفع من الأرض.

(٥) أكناف: نواحٍ، ومُمنع: جبل شاهق.

إنَّ التِّـــــراتِ مُسَـــــهَّدٌ طُلابُهـــــا فـــاكفُفْ لُعابـــكَ عَـــنْ لُعـــاب الأســـودِ[١]
لا تَحْسَـــبنَّ جَهْلـــي كحِلـــمِ أبـــي، فمـــا حِلـــمُ المشـــايخِ مثـــلُ جَهْـــلِ الأمْـــردِ[٢]
إنِّـــي مِـــنَ القَـــومِ الـــذين سُـــيُوفُهمْ قَتلـــتْ أخـــاكَ وشَـــرَّفتكَ بِمَقْعَـــدِ
شَـــادُوا بِـــذكركَ بعـــدَ طُـــولِ خُمُولـــهِ واسَـــتْنَقذُوكَ مـــن الحَضـــيضِ الأوهـــدِ[٣]

تختلطُ في هذه الأبيات معاني الفخر بمعاني الهجاء، فالشاعر يفخر على الخليفة المأمون، ويوجّه إليه سهام التحذير الشديد الممزوج بمعاني الهجاء، ويبرز هذا الهجاء بمعانيه السياسيّة، فهو يبين للمأمون دور قبيلة "خُزاعة" في خلع أخيه محمد الأمين وقتله، وكأنما هو يُحذّر المأمون من المصير الذي لقيه أخوه على يد الخُزاعيين، وهو يشير – ههنا – إلى دور القائد طاهر بن الحسين الخزاعيّ – قائد جيش المأمون – الذي قَتَلَ الأمين، مُبيناً للمأمون أن سيوف "خزاعة" هي التي قتلت أخاه ونصبته خليفة مكان أخيه، وكأنما هو يمتنّ على المأمون بأنهم هم من ساعدوه في ثورته ضدّ أخيه.

ويتضمن البيت الأخير هجاءً قاسياً للمأمون، إذ يكاشفه الشاعر بحقيقة حاله قبل أن ينصره الخُزاعيون، إذ كان خاملاً فرفعوه إلى الأعالي[٤]، واستنفذوه من وَحْلِ الخمول إلى منصب الخلافة. وقد ذُكر أنّ المأمون قال تعقيباً على هذا البيت الذي فعل فعله في الخليفة: "متى كُنتُ خاملاً وبِدَرِّ الخلافةِ غُذِّيت، وفي حِجْرها رُبّيت، خليفةٌ وابنُ خليفةٍ وأخو خليفةٍ؟!"[٥].

- إبراهيم بن المهدي.

ولما بُويع إبراهيم بن المهدي بالخلافة مُدّةً من الزمن، في أثناء خلافة المأمون، لم يسلم هو الآخر من تعرّض الشعراء له بالهجاء ذي الصِّبغة السياسيّة، فقد نالته أشعار دعبل الخزاعي، المشهور بهجاء الخلفاء العباسيين طيلة النصف الأول من القرن الثالث الهجري، ومن ذلك قوله يهجو الخليفة الجديد وقد طالبه الناس والجُند بعطاياهم، فحبسها عنهم[٦]:

يـــا مَعْشَـــرَ الأجنـــادِ لا تَقْنَطُـــوا وارْضَـــوا بمـــا كـــانَ، ولا تَسْـــخَطُوا[٧]
فَســـوفَ تُعْطَـــونَ حُنَيْنِيَّـــةً يَلَتـــذُّها الأمْـــردُ والأشْـــمطُ[١]

---

(١) التِّرات: الثأرات، والأسود: الحية العظيمة.
(٢) الأمرد: الفتى لم يظهر الشعر في وجهه.
(٣) الحضيض الأوهد: المنخفض السحيق من الأرض.
(٤) حاوي، إيليا، فن الهجاء وتطوره عند العرب، مصدر سابق، ص٤٧٨.
(٥) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٧٦ (الحاشية ٣).
(٦) المصدر نفسه، ص٢١٨– ٢١٩.
(٧) قنط: يئس.

والمَعْبـــــــــــديَّاتُ لِقُـــــــــــوّادِكُمْ ... لا تَـــــدْخُلُ الكِـــــيْسَ ولا تُـــــربْطُ[٢]

وهكـــــــذا يَـــــــرْزُقُ أصْـــــــحابَهُ ... خَليفـــــــةٌ مُصْـــــــحفُهُ البَـــــــرْبَطُ[٣]

قَـــــدْ خَـــــتَمَ الصَّـــــكَ بـــــأرزاقِكُمْ ... وصَـــــحَّحَ العَـــــزْمَ، فلـــــم تُغمَطُـــــوا[٤]

بَيْعَـــــــهُ إبـــــــراهيمَ مَشْـــــــؤُومةٌ ... تُقْتَـــــلُ فيـــــه الخَلْـــــقُ أو تُقْحَـــــطُ[٥]

ذكر أبو الفرج الأصفهاني في مُناسبة هذه المقطوعة أن إبراهيم بن المهدي، في أيام خلافته على بغداد، قلّ عنده المال، فألحّ عليه الأجناد لما احتبس عنهم العطاء، وخرج إليهم رسوله يقول: إنَّه لا مالَ عنده، فقال قوم من أهل بغداد – على سبيل السخرية – أخرجوا إلينا خليفتنا ليغني لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات؛ فتكون عطاءً لهم!! فأنشد دعبل في ذلك هذه الأبيات[٦]. ويبدو أن دعبلاً ظلّ منحازاً إلى المأمون ضد عمّه إبراهيم بن المهدي الذي ثار عليه؛ لأن المأمون كان منحازاً إلى الشيعة، على حين كان إبراهيم بن المهدي يُظهر التسنن، ويخالف المأمون في مذهبه[٧].

تُعبّر هذه المقطوعة الهجائيّة عن موقف الشاعر السّاخر من الخليفة الجديد الذي بُويع حديثاً، فأظهر الإفلاس وعدم القدرة على إدارة شؤون المال منذ أول عهده، حتى لم يبقَ في يده ما يدفعه من رواتب الجند الذين لا يصبرون في العادة على تأخير أرزاقهم؛ لأنها مصدرهم المالي الوحيد في الغالب. ويبدو الشاعر مشحوناً بالروح الساخرة حين يدعو الجند إلى الرجاء وعدم اليأس والرضا بالعطاء القادم من الخليفة، وتعلو وتيرة السخرية حين يكشف عن نوع هذا العطاء المرتقب، فهو ليس عطاء المال، كما هو مُتوقع، بل هو عطاء الألحان والأغاني التي شُهر إبراهيم بن المهدي بإتقانها حتى لقبه الناس بالخليفة المُغني.

وإذن، فالخليفة حين يكون مُغنياً، سيكون عطاؤه ألحاناً تُفرق على كل طُلاب الأُعطيات، ومن لهم جرايات، كالجند وغيرهم، وبما أن الجند هم على رأس المطالبين بحقهم في العطاء،

---

(١) حنينيّة: أي ألحاناً منسوبة إلى المغني الأُمويّ المشهور حُنين الحِيريّ، والأمرد: الفتى لا شعر في وجهه، والأشمط: ذو الشيب.

(٢) المعبديات: أراد الألحان المنسوبة إلى المغني الأُموي المشهور معبد.

(٣) البربط: عُود الطرب.

(٤) تُغمطوا: تُظلموا.

(٥) تقحط: يصيبها القحط الشديد وهو مَحْلُ الأرض وعدم انباتها.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٢٠، ص١٦٣– ١٦٤.

(٧) الأشتر، عبد الكريم، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت: دراسة تحليلية لحياته وشعره، المطبعة العلمية، الطبعة الثانية، دمشق، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص٨١.

وهم جند الخليفة، فسيكون عطاؤهم ألحاناً خاصةً منسوبة إلى حُنين الحِيري المغني المشهور، وهي ألحان ذات قيمة خاصة في الألحان الدّارجة، وأمّا قادة الجيش، فإن مكآفاتهم ستكون من ألحان معبد، وهي ذات شأن رفيع بين فنون الألحان!!

ويُركز الشاعر في هجائه الوارد في البيت الرابع من المقطوعة حين يجعل الخليفة بعيداً عن الدِّين، مشغولاً بمجالس الطرب والغناء، مُستلذاً بسماع آلالات التي تحول بينه وبين الانصراف إلى العبادة وإقامة شعائر الدِّين، ولعل في إشارة الشاعر إلى أن عود الطرب أضحى قُرآن الخليفة، يصل إلى قمة النقد للسلوك اللاهي الذي أبعد خليفة المسلمين عن القُرآن الكريم، بل استبدل مصحفه بنوعٍ آخر من المصاحف التي لا تُقرأ.

ويختم الشاعر مقطوعته بالتَّشاؤم من عهد الخليفة المبايع حديثاً، مُبيناً أن الأمل لا يلوح بمجيء هذا الخليفة القادم، وأن الشؤم هو الذي يعمر نفوس الرعية التي تكتوي بنار الجوع والقحط والمظالم.

ويبدو من شعر دعبل أنّه لم يكن ممّن بايع إبراهيم بن المهدي، بل إن أشعاره تشير إلى خلاف ذلك تماماً، فقد تناول دعبل الخليفة الجديد بالهجاء السياسي منذ بُويع، يقول[١]:

نَعَـــرَ ابـــنُ شَـــكلةَ بـــالعراقِ وأهلِـــهِ ... فَهَفَـــا إليـــه كُـــلُّ أطلـــسَ مـــائقِ[٢]

إنْ كـــانَ إبـــراهيمُ مُضْـــطَلِعاً بهـــا ... فَلْتَصْـــلُحَنْ مِـــنْ بَعْـــدِهِ لِمُخَـــارقِ[٣]

ولَتَصْـــلُحَنَّ مِـــنْ بعـــدِ ذاكَ لِزَلْـــزَلٍ ... ولَتَصْـــلُحَنَّ مِـــنْ بعـــدِهِ لِلمَـــارقِ[٤]

أنَّـــى يَكُـــونُ ولَـــيْسَ ذاك بِكَـــائنٍ ... يَـــرِثُ الخِلافـــةَ فَاسِـــقٌ عـــن فاســـقِ

يبدو واضحاً من هذه الأبيات موقف الشاعر المعارض من مجيء إبراهيم بن المهدي، فهو في نظره داعية فتنة وفرقة، ولم يتلف حوله إلا كل منافق مُراوغ، أو جاهل غلبه حُمقه، ويتراءى ابن المهدي من وجهة نظر الشاعر صالحاً للغناء لا للسياسة، إذ إن توليه الخلافة، وهو ليس لها بأهل وليس عنده الكفاية، سيفتح الطريق أمام جماعة المُغنين الذين يتحلّقون حوله؛ لتسلّم شؤون الخلافة من بعده، وعند ذلك لن يصل إلى هذا المنصب المهم سوى الفُسّاق وأهل المجون. يقول مُحقق الدِّيوان مُعلقاً على هذا الشعر: "في هذه الأبيات من روعة التصوير وعمق التعبير

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٤٤- ٢٤٥.

(٢) نعر: قام بالفتنة ودعا إليها، وابن شكلة: إبراهيم بن المهدي، وهفا: أسرع، وأطلس: ذئب مغبر اللون، والمائق: الأحمق.

(٣) مخارق: اسم مُغنٍ عباسي مُعاصر لإبراهيم بن المهدي.

(٤) زلزل: مُغنٍ عباسيٍّ كذلك، والمارق: المفارق للجماعة، وقيل هو اسم مُغنٍ كذلك.

ما يتجلى للمتأمل فيها، فانظره كيف يُصور الحال، حال الخلافة والمرتقين إليها، وكيف يختار الأشباه والنظائر للخليفة الجديد في دولته الجديدة!!"[١].

ومن شعر الوزير محمّد بن عبد الملك الزَّيَّات يهجو إبراهيم المهدي ذاكراً اعتناءه بالغناء والألحان[٢]:

إذا هـــزَّ أعْـــوادَ المنـــابرِ ..... تَغنّـــــى بليلـــــى أو بميّـــــةَ أو هِنْـــــدِ

وفي هذا البيت من السخرية ما فيه، إذ إن الخليفة يحوّل خطبته في جموع المسلمين إلى أُغنية، يتغزل فيها بالنِّساء، ناسياً مقام الخطابة العظيم، فضلاً عن اهتزاز أردافه طرباً لهذا الغناء فوق المنبر!!

- المعتصم.

يتابع دعبل الخزاعي أهاجيه للخلفاء العباسيين اللاحقين، ومن ذلك قصيدته البائية التي هجا فيها الخليفة المعتصم الذي خلف أخاه المأمون في الخلافة، وتُعدُّ هذه القصيدة من أشدّ قصائد الهجاء السياسيّة التي نسجها الشعراء العباسيون في ثلب خلفائهم ونقد سلوكهم السياسيّ، وهي تركّز على المعاني السلبية التي تمثّلت في شخص الخليفة الذي لم يستبشر الناس بقدومه، ودلالةً على ذلك، بكى الباكون، واكتئب المكتئبون، وانهمرت الدموع من عيونهم غزيرة فياضة، وما ذلك إلا لأن الدِّين أضحى شتاتاً مُتفرقاً بعد الوحدة والاجتماع، منذ جاء المعتصم خليفةً تنقصه المؤهلات التي تؤهله لتسلّم الأمر، إذ تنقصه الهداية والدِّيانة والعقل، يقول[٣]:

بَكَـــى لشَـــتَاتِ الـــدِّينِ مُكتئـــبٌ صَـــبٌّ وفَاضَ بفرط الدَّمعِ من عَيْنِهِ غـــــرْبُ[٤]

وقـــامَ إمـــامٌ لـــم يَكُـــنْ ذا هِدَايـــةٍ، فَلَـــيْسَ لـــه دِيْـــنٌ، ولَـــيْسَ لَـــهُ لُـــبُّ[٥]

يُشير الشاعر إلى أن مجيء المعتصم خليفة للمسلمين وحاكماً للعرب لم يكن مُتوقعاً، لما كان شائعاً في أوساط العامة من أن عدد خلفاء بني العباس لن يتجاوزوا سبعة، ثم يزول مُلكهم، وبما أن المعتصم كان ثامن خلفائهم، فإن مجيئه خَرَقَ المتوقع، وباين ما كان يُروى عن السابقين، وبما أن المعتصم كسر المقولات المأثورة التي لا تستند في الواقع إلى أساس صحيح،

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٤٤ (الحاشية ٤).

(٢) الجبوري، يحيى وهيب، محمد بن عبد الملك الزيات: سيرته وأدبه وتحقيق ديوانه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ودار البشير– عمان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٨٠.

(٣) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٠٢.

(٤) الصّب: المُحبّ، والغرب: مقدم العين أو مؤخرها.

(٥) اللُّب: العقل.

فإن الشَّاعر يتخذ من ترتيب المعتصم ثامناً بين الخلفاء العباسيين للمقاربة بينه وبين كلب أهل الكهف الذي هو ثامنهم. وهذه المشاكلة التي عقدها الشاعر بين خلفاء العباسيين السبعة وأهل الكهف، لكي يصل من ذلك إلى ضربته اللاذعة للمعتصم بوصفه ثامنهم، أي كلبهم![١]. ولعل النزول بمقام الخليفة إلى مستوى الحيوان يدل على مستوى شدّة الهجاء الذي يواجه به الشاعر الخليفة. ويزداد هذا المستوى شدّة حين يجعل الشاعر كلب أهل الكهف أعلى شأناً وأرفع قيمةً من الخليفة، إذ لم يكن للكلب المشار إليه ذنب يدعو إلى ذمه، وأما الخليفة، فله من الذنوب الكثيرة ما يدعو إلى تفضيل الكلب عليه[٢]:

وما كانت الأبناءُ تأتي بمثلِهِ ... يُمَلَّكُ يَوماً، أو تَدينُ له العُربُ
ولكن كما قَالَ الذين تَتَابَعُوا ... من السَّلَفِ الماضينَ إذ عَظُمَ الخطبُ
مُلوكُ بني العَبَّاسِ في الكُتُب سَبْعَةٌ، ... ولم تأتنا عن ثامنٍ لهمُ الكُتُبُ
كذلك أهلُ الكَهفِ في الكَهْفِ سَبْعَةٌ ... كِرامٌ إذا عُدُّوا وثَامنُهمْ كلبُ
وإنّي لأُعلي كَلبُهُم رِفْعَةً ... لأنَّك ذُو ذنبٍ، ولَيْسَ له ذَنبُ

إن قصّة أهل الكهف هي قصّة لا مبالية، ليست تدل على المدح أو الهجاء، إلا أن الشاعر تولاها بعصبه وعللّها تعليلاً هجائياً مبتكراً[٣].

ويستمر الشاعرُ في هجائه المعتصم، مُصوراً الخليفة الجديد وقد عُقدت له البيعة بالعجوزِ المُسنة التي تزينت بالتاج وتطوقت بالعِقْد وارتدت اللباس الفضفاض الخاص بالنِّساء، وهو ينقد بهذه الصُّورة هيئة الخليفة الجديد حين قُلّد الخلافة ووضع التاج على رأسه وخلعوا البُردة على كتفيه، وكأنما هو يشير لى أن علامات الخلافة كالبردة والتاج لم تكن لائقة بالخليفة، ودلالة على ذلك أضحى حين لبسها كالمرأةِ الهرمة التي شاخت وعلا سِنّها[٤]:

كأنَّكَ إذ مُلّكتها لِشَقَائِنا ... عَجُوزٌ عليها التَّاجُ والعِقْدُ والإتبُ[٥]

---

(١) إسماعيل، عز الدين، في الأدب العباسي بين الرؤية والفن، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٦٣- ٦٤، وجيدة، عبد الحميد، قصيدة الهجاء عند دعبل الخزاعي وابن الرُّومي، مصدر سابق، ص١٨٢.

(٢) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٠٢- ١٠٣.

(٣) حاوي، إيليا، فن الهجاء وتطوره عند العرب، مصدر سابق، ص٤٨.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٥) الإتب: بُرد واسع تلبسه المرأة من غير جيب ولا كُمين.

وينتقل الشاعر في الدورة الأخيرة من بائيته إلى توجيه النقد السّياسيّ إلى الخليفة المُعتصم بشكل لا مُواربة فيه، مُبيناً أهم مظاهر الضّعف والتدهور السّياسيّ الذي حلّ بمؤسسة الخلافة حين تقلدّها المعتصم، وتتمثل هذه المظاهر بغلبة العُنصر التُّركيّ على الجيش العباسيّ، حتى أضحى القواد الأتراك كوصيف وأشناس يتحكمان في الأمر العام، فهما الحاكمان الحقيقيان لا المعتصم، وقد أدى هذا الانقلاب إلى اختلال عظيم، إذ ضاع المُلك بأيدٍ غير عربية أمست تسوس الرعية بغير الهدى والحق، مما ضاعف المصيبة على الناس.

ويرى الشاعر في البيت قبل الأخير أن حكم المعتصم لا يمكن وصفه إلا بأنه حكمٌ تركيٌّ خالص، ليس فيه إلا معاني الذل والهوان للعرب وأهل الإسلام، ومن ذلك اتخاذ المُعتصم الفضل بن مروان النَّصراني كاتباً ووزيراً له، وتلك – على ما يرى الشاعر – ثلمة أُصيب بها الإسلام، إذ أصبح النصارى وزراء الخلافة[١]:

لقد ضـــاعَ مُلْـــكُ النَّـــاسِ إذ سَـــاسَ مُلكهُمْ "وَصَيْـــفٌ" و"أَشْنـــاسٌ" وقد عَظُـــمَ الكَـــربُ[٢]
و"فَضْـــل بـــنُ مـــروانٍ" سَـــيثلمُ ثَلْمَـــةً يَظَـــلُّ لهـــا الإســـلامُ لَيْـــسَ لـــه شِعبُ[٣]
وهَمُّـــــكَ تُركـــــيٌّ عليـــــهِ مَهانـــــةٌ فأنْـــــتَ لـــــه أُمٌّ، وأنْـــــتَ لـــــه أبُ

ويختم الشاعرُ قَصيدته بخاتمة تَشير إلى انفتاح قاعدة التوقعات على مصراعيها لديه؛ بسبب ما رأى من أحداث ومصائب في عهد المعتصم، حتى يصل سقف هذه التوقعات إلى خروج الشمس من مغربها، أي قيام الساعة، بكلِّ ما تحمله من المشاهد العظيمة التي تذهل الخلق وتغصّهم حتى لا يهنأ شاربٌ بشرابه[٤]:

وإنـــي لأرجـــو أن يُـــرى مِـــنْ مَغيبهـــا مَطَالعُ شَمْسٍ قـــد يَغُـــصُّ بهـــا الشَّـــربِ[٥]

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٠٣.

(٢) وصيف وأشناس: غلامان تُركيان ازداد نفوذهما العسكري في عهد المُعتصم.

(٣) الثلمة: الكَسرة.

(٤) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٠٣.

(٥) الشّرب: القوم يشربون.

- الواثق.

انقضى عهد المعتصم وتولى الخلافة من بعده ابنُهُ الواثق، فقابل الشاعرُ دعبل الخزاعي هذا الانتقال بهجائه الناقد، بأكثر من مقطوعة، يقول في إحدى مقطوعاته[١]:

الحَمْـــدُ للـــهِ لا صَـــبْرٌ ولا جَلَـــدُ ولا عـــزاءٌ إذا أهْـــلُ الـــبلادِ رَقَـــدُوا
خَليفَـــةٌ مـــاتَ لـــم يَحْـــزنْ لَـــهُ أحـــدُ، وآخـــرٌ قـــامَ لـــم يَفْـــرَحْ بـــه أحَـــدُ
فَمـــرَّ هـــذا ومَـــرَّ الشُّـــؤمُ يَتبعُـــهُ، وقـــامَ هـــذا فقـــامَ الوَيـــلُ والنَّكَـــدُ

يحمد الشاعرُ الله – عزَّ وجلَّ – إذ قبض الخليفةَ المعتصمَ إليه، مُبيناً أنَّ هذه الوفاة لم تدعُ أحداً إلى إظهار الصَّبر والتجلّد والعَزاء، فقد رقد الناس وغطوا في سباتهم العميق، ولم يظهروا أيِّ شكلٍ من أشكال الحُزن على هذا الفقد، كما لم يظهروا الفرح والبشرى بمقدم الخليفة الواثق الجديد، وكأنّ ما يجري من تقلبات سياسيّة بات لا يعني الرعية والأوساط الاجتماعية في شيءٍ، فهم غير مكترثين بمن ذهب وبمن جاء من الحُكّام؛ لقناعاتهم أن كلَّ ما يحدث هو تغيّر الوجوه والأسماء فحسب، وأمَّا الحال السياسيّة فهي ذاتها، فعهد المعتصم انقضى بشؤمه على الرَّعية، وجاء عهد الواثق مُنذراً بالويل والنكد.

ويقول دعبل في مقطوعته الأُخرى في المناسبة ذاتها[٢]:

قـــد قُلـــتُ إذ غَيَّبـــوهُ وانْصَـــرفُوا فـــي شَـــرِّ قَبْـــرٍ لشـــرِّ مَـــدْفُونِ:
اذهـــبْ إلـــى النَّـــارِ والعَـــذابِ فمـــا خِلْتُـــكَ إلا مِـــنَ الشَّـــياطينِ
مَـــا زلـــتَ حتَّـــى عَقَـــدتَ بَيْعـــةَ مـــن أضَـــرَّ بالمُســـلمينَ والـــدِّينِ

وقد ذُكر أنَّ دعبل الخزاعي قَالَ هذه الأبيات يُعارضُ الوزير محمد بن عبد الملك الزَّيَّات في بيتيه اللذين رثى فيهما المعتصم، وهما[٣]:

قـــد قُلـــتُ إذْ غَيَّبـــوهُ وانْصَـــرفُوا فـــي خَيْـــرِ قَبْـــرٍ لخَيـــرِ مَـــدْفُونِ:
لَـــن يجبـــرَ اللهُ أُمـــةً فَقَـــدت مِثْلَـــكَ إلا بِمثـــلِ هَـــارونِ

وواضح للقارئ مدى الصِّلة التي تربط بين الشِّعرين، إذ عمد دعبل إلى قلب معاني الرثاء الإيجابية إلى معاني الهجاء السّلبية، "فخير قبر" يصبح بهذه المعارضة الشعرية "شر قبر"، و"خير

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩٩– ٣٠٠.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٢٠، ص١٥٨، الجبوري، يحيى، محمد بن عبد الملك الزيات، مصدر سابق، ص٢٧٣– ٢٧٤.

مدفون" يصبح "شر مدفون"، وواضح أن الزيات يعبر عن جانب الحزن العميق بهذا الفقد، بينما يعبر دعبل عن الجانب الآخر القائم على الفرح والسُّرور، داعياً على الخليفة الراحل بالويل والثبور والعذاب المقيم في نار جهنم، سالكاً إياه في عدادِ الشياطين.

وإذا كان الشاعر الزَّيَّات ينظر إلى فقد الخليفة على أنّه مصيبة عظيمة وفادحة لن يجبر الله كسرها إلا بولاية الخليفة الجديد، يعمد دعبل إلى نقض هذا المعنى مُبيناً أنَّ البيعةَ الجديدةَ لن تأتي بخير لصالح المُسلمين؛ لأنَّ صاحب البيعة لم ينل منه الإسلام والمسلمون سوى الضَّرر، فكيف يكون الضَّررُ جبراً للكسر؟!

- المتوكل.

يستمر دعبل الخزاعي – بوصفه أشهر شعراء الهجاء السياسي في هذه المُدّة – بالتعرّض للخلفاء العباسيين بالهجاء الذي يُعبّر عنه معارضته السياسيّة القوية، ورغم أن الخليفة المتوكل الذي ولي الخلافة بعد الواثق شدّد على الشيعة، وأظهر السُّنة وتحمّس لها، فإنه لم يُسمع لدعبل– ذي الميول الشيعيّة – فيه سوى بيت واحد، يقول أبو الفرج الأصفهاني: "أخبرني الحسن، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن مَهرويه، قال: حدثني محمّد بن جرير، قال: أنشدني عُبيد الله بن يعقوب هذا البيت وحده لدعبل يهجو به المُتوكل، وما سمعتُ له غيره فيه[١]:

ولســـــتُ بقائـــــلٍ قَـــــذْعاً، ولكـــــنْ لأمـــــرٍ مـــــا تَعبَّـــــدكَ العَبيـــــدُ[٢]

يُسفر الشاعر في بيته الأوحد الذي قاله في هجاء المُتوكل عن رغبته في ألا يقول كلاماً فاحشاً يخدش الخُلق في هجاء الخليفة المتوكل، ولكنه يستدرك على نفسه، متهماً المتوكل بالعيب والعار، إذ صيّره العبيد عبداً لهم. وقد قيل إنَّ دعبلاً رمى المتوكل في هذا البيت بالأُبنة[٣]. إن هذا البيت – كما يصفه مصطفى الشكعة – بيت قاس موجع؛ لأنه ينال من مروءة الخليفة الأنيق المُترف ويعرض برجولته[٤].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٢٠، ص١٦٠، ودعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٧١.

(٢) القذع: الغمش، وتعبّدك العبيد صيّروك كالعبد.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٢٠، ص١٦٠، ودعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٧١ (الحاشية).
وتُطلق الأُبنة في كلام العرب على معانٍ، أهمها: العيب ووصمة العار والقذف بالسُّوء.

(٤) الشكعة، مصطفى، الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٣٣٣- ٣٣٤.

- المستعين.

أدى مقتل المتوكل على يد غلمانه الأتراك إلى تدهور الخلافة تدهوراً كاملاً، وكان لهذا التدهور السياسي وضعف الخلفاء أثر بالغ الأهمية في اندفاع الشعراء إلى نقد الوضع السياسي والانطلاق من خلال ذلك إلى ذم الخلفاء والطعن فيهم، وبيان ما آلت إليه الخلافة من ضعف وانهيار بعد أن تحكم الأتراك فيمن يتولاها[١]. ووجد الشعراء في خلع الخلفاء الذي شهدته الساحة السياسية منذ منتصف القرن الثالث فرصة سانحة لنقد الخلفاء والحديث عن مظاهر ضعف مؤسسة الخلافة العباسيّة، وقد عبّر أحد الشعراء عن المبلغ الذي وصل إليه الوضع السياسي الصعب آنذاك، فقال بمناسبة خلع الخليفة المستعين سنة ٢٥٢هـ[٢]:

خُلْـــعَ الخليفـــةُ أحمـــدُ بـــن مُحمّـــدٍ ... وسَـــيُقتلُ التَّـــالي لـــه أو يُخْلَـــعُ
ويَـــزولُ مُلْـــكُ بنـــي أبيـــه ولا يُـــرى ... أحـــدٌ تَملّـــكَ فهـــم يُسْـــتَمْتَعُ
إيَّهـــاً بنـــي العبّـــاسِ إنَّ سَـــبيلَكُمْ ... فـــي قَتْـــلِ أعْبُـــدكُمْ طَريـــقٌ مَهْيَـــعُ
رَقَّعـــتمُ دُنيـــاكُمُ فَتَمزَّقَـــتْ ... بكُـــمْ الحَيـــاةُ تَمزُّقـــاً لا يُرْقَـــعُ

تُعبّر هذه الأبيات المجهولة القائل عن حالة الضعف ومقدار التراجع الذي أصاب الخلافة العباسيّة بعد عصرها الذهبي، فقد أصبح خلع الخليفة مشهداً مألوفاً، وأمسى قتل الخليفة بعد خلعه حَدثاً متكرراً، فما يكاد الخليفة يولى حتى يُواجه بالعزل أو الاغتيال، حتى استقرَّ في الأذهان أن تتابع مشهد خلع الخلفاء أو قتلهم هو فاتحة زوال دولة بني العباس برمتها. وبين الشاعر أن توالي حلقات مسلسل الخلع والقتل بحق الخلفاء صيّر المُلك العباسيّ ثوباً بالياً ممزقاً، لا يجدي معه الترقيع؛ لأنه لم يعد صالحاً للبقاء أو الاستمرار.

ومن ذلك قولُ أحد الشُّعراء، من أهل سامراء، وقيل إنّها للبحتري، في المناسبة ذاتها[٣]:

للـــــهِ دَرُّ عصـــــابةٍ تُركيّـــــةٍ ... رَدّوا نَوائـــــبَ دِهْـــــرهم بالسَّـــــيفِ
قَتَلُـــوا الخَليفـــةَ أحمـــدَ بـــن مُحمّـــدٍ ... وكَسَـــوا جَميـــعَ النـــاسِ ثَـــوبَ الخَـــوفِ
وطَغَـــوا فأصـــبحَ مُلْكُنـــا مُنقســـماً ... وإمامنـــا فيـــه شَـــبيهُ الضَّـــيفِ

---

(١) التميمي، قحطان رشيد، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، دار المسيرة، بيروت، د.ت، ص١٥١.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مصدر سابق، ج٩، ص٣٥٠، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج٦، ص١٨٢- ١٨٣.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص١٦٩.

يُصور الشاعر المجهول في هذه المقطوعة وجهاً آخر من حالة الضعف التي مُنيت بها الحياة السياسيّة العباسيّة التي فقدت كُلَّ مقومات القوة والهيبة، بسبب تسلط العناصر التركية المسبتدة، حتى سادت الرهبة في نفوس الرعية، وعمّ الخوف قلوب الناس، وانتشر الجور والظلم، وأصبح بقاء الخليفة في الحكم مرتبطاً برضا الأتراك عنه واتفاقهم على بقائه[١]، بل أصبح الحُكم العباسيّ نهباً للأتراك، يتقاسمونه فيما بينهم بالطريقة التي تروق لهم، كلٌّ يحصل على حصته المقسومة له، وأمّا الخليفة فلم يعد له دوره القيادي، وأصبح منزوع الإرادة، ولعلَّ مما يعمق معاني ضعفه وذلته تشبيه الشاعر له بالضَّيف، وهي صورة فيها من التهكم ما فيها، فالضيف الزائر لا يطيل الإقامة، وسرعان ما يرحل بعد انقضاء ضيافته، وكذلك الخليفة لا يكاد يستقر على عرش الخلافة حتى يغادره بسرعة، مخلوعاً على يد الأتراك.

كذلك، فإن صورة الضيف تفرض شيئاً من الأدب الذي يتحلى به الضيف، حتى يبدو أمامه مضيفه كأنه مأسور، وكذلك كان حال الخليفة فهو كالضيف لا يُحرك ساكناً، ولا يتدخل إلا بالقدر الذي يحفظ له أدبه، وهذا هو حال الخليفة مع الأتراك، فهو لا يعترض على يقدمون به من أعمال، مهما بلغت درجتها من الاستبداد والظلم، ويكتفي بالفرجة من بعيد.

ومن ذلك قول أحد الشُّعراء في الخليفة المُستعين أيضاً، مُصوراً حال الخليفة المسلوب الإرادة، المغلوب على أمره[٢]:

خَليفـــــــةٌ فـــــــي قَفَـــــــصٍ بَـــــــيْنَ وَصـــــــيفٍ وبُغـــــــا
يَقـــــــولُ مَـــــــا قَـــــــالا لَـــــــه كَمـــــــا يَقـــــــولُ البَبغـــــــا

ويبدو واضحاً للقارئ أن الشَّاعر يتّخذ من الخليفة مادةً لسخريته وتهكمه، مُصوراً إياه بطائر الببغا الحبيس في قفصه، الذي ليس له من الحرية إلا بمقدار ما يردد من الكلام الذي لا يفهم هو فحواه، فهو مسلوب مغصوب مغلوب حتى لا يتاح له ما يتاح لغيره من الطيور التي تملأ أقفاصها بالأصوات الجميلة المُغردة. وكذلك، فإن حال الخليفة الذي لا تحيط به القضبان، وإنما قبضة قادة الأتراك، ولا سيّما وصيف وبغا، الذين سيطروا على الخليفة وسلبوه كُلَّ عناصر إدارته، حتى لم يعد له رأي، وأصبحت مقولاته مجرد ترديد لما يمليه عليه أُولئك المُتسلطون.

ويلاحظ الباحث أن الصِّراع الذي نشب داخل البيت العباسيّ حول الخلافة، فتح الطريق أمام الشعراء، فشاركوا فيه بأشعارهم التي اتخذت مسلكين: أحدهما المدح، وثانيهما الهجاء. أما

---

(١) التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص١٥٢.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص١٤٥.

المدح فقد خص به الشعراء الخلفاء الجُدد، وأما الهجاء فقد خصّ به الشعراء الخلفاء المخلوعين، وقد وجدها الشعراء فرصة جيدة لهجاء هؤلاء الخلفاء، رُغم أنهم كانوا يمدحونهم من قبل، وهو تغيّر في مواقف الشعراء قد يُفسّر ضدّ بعضهم، ومن أشهر الأمثلة على ذلك قيام البحتري بمدح المستعين في عددٍ من قصائده، فلما خلعه المعتز واستولى على الخلافة، تحوّل البحتري إلى مدح الخليفة الجديد وهجاء الخليفة المخلوع، يقول في إحدى قصائده[١]:

فَكيـــفَ ادَّعـــى حَـــقَّ الخلافـــةِ غَاصـــبٌ ... حَـــوى دُونـــه إرثَ النَّبـــيِّ أقاربُـــهْ؟!
بَكـــى المِنْبـــرُ الشَّـــرقيُّ إذْ خـــارَ فَوقَـــهُ ... على النَّـــاسِ ثَـــورٌ قد تَـــدَلَّتْ غَباغبُـــهْ[٢]
ثَقِيـــلٌ علـــى جَنْـــبِ الثَّريـــدِ، مُرَاقـــبٌ ... لِشَـــخصِ الخِـــوانِ يَبْتَـــدي فَيُواثبُـــهْ[٣]
إذا مَا احْتَشَى مِـــنْ حَاضـــرِ الـــزَّادِ لـــم يُبَـــلِ ... أضـــاءَ شِـــهابُ المُلْـــكِ أم كَـــلَّ ثاقبُـــهْ[٤]
إذا بَكَـــــرَ الفَـــــرّاشُ يَنْثُـــــو حَدِيثَـــــهُ ... تضـــاءل مُطْريـــه، وأطْنَـــبَ عائبُـــهْ[٥]
تَخَطَّـــى إلـــى الأمْـــرِ الـــذي لَـــيْسَ أهْلَـــهُ ... فَطَـــوراً يُنَازيـــهِ، وطَـــوراً يُشـــاغبُهْ[٦]
فَكيـــفَ رأيـــتَ الحَـــقَّ قَـــرَّ قَـــرارُهُ؟ ... وكيـــف رأيـــتَ الظُّلْـــمَ آلـــت عَواقبُـــهْ
ولـــم يكـــن "المُغْتَـــرُّ بـــاللهِ" إذْ سَـــرَى ... لِيُعْجَـــرَ و"المُعْتَـــزّ بـــاللهِ" طالبُـــهْ
رَمَـــى بالقَضـــيبِ عَنْـــوةً وهـــو صَـــاغِرٌ ... وعُـــرِّيَ مـــن بُـــرْدِ النَّبـــي مَناكبُـــهْ[٧]

يُنكر البحتري على المُستعين ما ادعاه من حقٍّ وراثة الخلافة، بل يرى أنّه اغتصبها من وريثها الشرعي، ويعني الخليفة المعتز، ويدخل من ثم إلى الطعن على المُستعين، مصوراً إياه بالثور الذي يعلو المنبر، وقد علا صراخه وتجعدت مقادم لحيته، وهي صُورة تبعث على السخرية والضحك، ويبين الشاعر بذلك أن المستعين لم يكن أهلاً للمنبر حتى يعلوه ويكون خطيباً لجماعة المسلمين، ولذا، فإن المنبر تألم باكياً لما علاه مَنْ لا يستحق أن يعلوه كالمستعين.

ويتحوّل البحتري في ثلب المستعين إلى تصوير شرهه، ومن دلائل هذا الشره أنّه كان يُثقل معدته بالثريد، وإذا ما جلس على مأدبة طاف ببصره على كلّ ما تضمه أصناف، ثم انقض

---

(١) البحتري، أبو عبادة، الوليد بن عبيد (ت ٢٨٤هـ)، ديوان البحتري، تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ص٢١٥.

(٢) خار: صاح البقر، والغباغب: جمع غبغب، وهو ما تغضّن وانكمش من جلد منبت عثنون البقر.

(٣) الثريد: الفتيت مع المرق، والخوان: مائدة الطعام.

(٤) لم يُبَلِ: لم يُبال، واحتشى: امتلأ.

(٥) الفرّاش: الخادم، وينثو الحديث: يتحدث به ويشيعه.

(٦) يُنازيه: يطمع وينازع إليه.

(٧) القضيب والبرد: عصا الرسول صلى الله عليه وسلم وبردته، كان الخلفاء العباسيون يتوارثونهما.

على الطعام يأكله بشرهٍ زائدٍ ومن غير حساب، فلم يزل يأكل حتى يمتلئ بطنه، وعندها يغيب عقله، ولا يصرف شيئاً من الاهتمام إلى مسؤولياته، بل لا يبالي بما قد يُصيب ملكه كائناً ما كان.

ويتحدّث البحتري عن ولاية المستعين الخلافة على أنه تعدٍ منه على الحقّ، ودِلالة على هذا التعدي أنّه لم يكن ذا مؤهلات كافية تؤهله لتقلد الأمر، ويسوّغ الشاعر بهذا للمعتز بالله قيامه بخلع عمّه المستعين، ناعتاً إياه بالغرور الذي أفضى به إلى التخلي عن منصب الخلافة، إجباراً لا اختياراً. ويشف البيت الأخير عن مشهد خلع المستعين الذي ألزمه خالعوه بترك أهم رموز الخلافة، إذ رمى القضيب – عصا النبي صلى الله عليه وسلم – من يده غصباً، وهو ذليل مُحتقر، وخلعت البردة الشريفة عن كتفيه، وكان تجريده من العصا والبردة رمزاً لخروجه من الخلافة وخلعه منها. ويظهر بوضوح أنَّ الشاعر تلاعب بالألفاظ فجعل الخليفة المخلوع "مغتراً بالله"، وجعل الخليفة الجديد "معتزاً بالله"، وهو تلاعب قلب المعاني، وألبس الخليفة الأول معنى سلبياً، وأعطى الخليفة الجديد معنى إيجابياً.

ويقول البحتري – أيضاً – من قصيدةٍ أُخرى في الحادثةِ نفسها، هاجياً المستعين ومادحاً المعتز[١]:

إذا أحبابُـــــهُ أمْسَـــــوْا عَشِـــــيّا ... أعَـــــدُّوا واسْـــــتَعدُّوا لِلبَـــــوَارِ[٢]

إذا أهْـــــوى لِمرقـــــدِهِ بِلَيْـــــلٍ ... فَيـــا خِـــزْيَ البَـــرَاذَعِ والسَّـــرارِي! [٣]

ويـــا بُـــؤسَ الضَّـــجِيعِ وقـــد تَطَلّـــى ... بِخِلْطَـــيْ جامـــدٍ مَعـــهُ وجَـــارِ[٤]

ومـــا كانـــت ثِيـــابُ المُلْـــكِ تُحْشَـــى ... جَرِيـــرةَ بائـــلٍ فِـــيهنّ خَـــارِ[٥]

فَلَـــوْ أنَّـــا اسْـــتَطعنا لافْتَـــدَيْنا ... تَطُـــوعَ الـــرَّقْمِ منـــه بـــالَبوَارِي[٦]

يُبيـــدُ الـــرَّاحَ فـــي يَـــومِ النَّـــدامى ... ويُفْنـــي الـــزَّادَ فـــي يَـــومِ الخُمـــارِ[٧]

يَعُـــبُّ فَيُنْفِـــدُ الصَّـــهباءَ جِلْـــفٌ ... قَرِيـــبٌ العَهْـــدِ بالـــدِّبْسِ المُـــدَارِ[٨]

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٩٣٦– ٩٣٧.

(٢) البوار: الهلاك.

(٣) البراذع: ما يوضع على ظهر الحمار والبغل كالحلس ونحوه، والسراري: الجواري.

(٤) تَطلّى: تلطخ.

(٥) البائل: الذي يبول، والجريرة: الجناية، والخاري: الذي يُخرج الغائط.

(٦) الرّقم: ضربٌ مُخطط من البرود، والبواري: فارسية، وهي الحُصر المنسوجة من القصب.

(٧) الخُمار: صُداع الخمر وأذاها وبقية السُّكر.

(٨) يعب: يشرب بلا تنفس، والدبس: العنب يُعقد بالنار.

رَدَدْنـــــــــاهُ بِرُمَّتِـــــــــهِ ذَلـــــــــيلاً وقَـــــدْ عَـــــمَّ البَرِيّـــــةَ بالـــــدَّمارِ[١]
وكـــــانَ أضـــــرَّ فِـــــيهم مـــــن "سُـــــهَيْل" إذا أوْبَـــــا، وأشـــــأمُ مِـــــنْ "قُـــــدار"[٢]
تَفَـــانَى النَّـــاسُ حتَّـــى قُلـــتُ: عَـــادُوا إلـــى حَـــرْبِ "البَسُـــوسِ" أو "الفُجَّـــارِ"[٣]
فلـــــــولا اللهُ و"المُعتـــــــزَّ" بِـــــــدْنا كمـــــا بـــــادت "جَـــدِيسٌ" مـــــن "وَبَـــارِ"[٤]

يوجّه البحتري في هذا الجزء من قصيدته انتقاداته السياسيّة والشخصيّة للخليفة المُستعين المخلوع، ويستهلها بالحديث عن إدمانه شرب الخمر، إذ كان رفقاؤه يأخذون في الاستعداد وتجهيز ما يلزم لحفلاتهم الخمرية، وعندها يشرب الخليفة من غير حساب، حتى إنّه ليبيد سائرَ ما أُعد من شراب، ولا يكتفي بالإسراف والإفراط في السُّكر حتى يُسرف في الطعام والأكل، فلا يبقي منه شيئاً بالمثل، وينقد الشاعر عادته السيئة في استهلاك كمية الخمر المُعدّ بالشُّرب المتتابع، إذ كان يعبُّ الكؤوس عَبّاً، ولا يترك مجالاً لِنفسه، وهي صفة تدل على تناهي شرهه وإفراطه.

وفضلاً عن صفاته الشرهة المذمومة شُرباً وأكلاً، ينقد الشاعر إسرافه المقابل في قضاء شهواته الليلية مع النساء، ولا سيّما مع جواريه، إذ كان يفعل في لياليه كل ما يجلب الخزي والعار، ثم ينقلب إلى فراشه متلطخاً بأوساخه من بولٍ وغائطٍ، فيؤذي ضجيعه بروائحه القذرة، ويدنس أثواب المُلك بتلك القاذورات التي كان سببها إدمانه في السُّكر أيضاً بعد قضاء شهواته وملذاته.

ويتحوّل الشاعر إلى نقد سياسة المُستعين، وهي سياسة – كما يصورها البحتري – تقوم على إشاعة الجهل، وتشجيع الفتنة، وجلب الضرر إلى الرعية، ولم تفرز تلك السياسة للرعية سوى الدّمار، ويستدعي للتعبير عن مقدار ذلك الدمار بعض الرموز والحوادث التاريخيّة المنصرمة، فالخليفة مشؤوم، بل هو أشأم من قُدار بن سالف الذي عقر ناقة النبي صالح، فحلّ الدّمار بقومه. والخليفة صاحب ضُرّ، بل هو أضرّ على الناس من نجم سهيل إذا خفت ضياؤه وترك الناس في ظلماء لا يُرى النور فيها. والخليفة صاحب فتنة، حتى تصور الشاعر أن حربا البسوس والفجار قد عادتا من جديد. وإزاء هذه الحالة من الضيق السياسيّ الذي عانى الناس منه، يتدارك الله الرعية بالخليفة الجديد، وهو المعتزّ، وينقذ الرعية من الهلاك الذي كانوا

---

(١) برُمته: بجملته.

(٢) سُهيل: نجم ساطع في السماء، وأوبا: حلّ به الوباء وهو المرض، وقدار: رجل من قوم صالح عليه السّلام عَقَرَ الناقة.

(٣) البسوس والفجار: حربان معروفتان حدثتا في الجاهلية.

(٤) جديس: من قبائل العرب البائدة، ووبار: من منازل قبائل عاد في الجزيرة العربية.

يسيرون نحوه، ولولا ذاك لكان مصيرهم مصير "جَدِيس" التي بادت وأصبحت أحاديثَ ترويها كُتُب التاريخِ.

وقد أثار هجاء البحتري للمُستعين على هذا النحو الذي لا يخلو من إسفافٍ اعتراض بعض النقاد العرب القدامى؛ فقد علق الصُّولي على مستوى هذا الشعر فقال: "وهذه الأبيات من أقبح الهجاء وأضعفه لفظاً وأسمجه معنًى، وهي أيضاً خارجةٌ عن طريق هجاء الخلفاء والملوك المألوفة، وهي بهجاء سِفلة الناسِ ورعاعهم أشبه مع ما جمعت من سخافة اللفظ وهلهلة النسيج والبعد عن الصواب"[١]. ولا شكَّ أنَّ انتقاد الصُّولي يُحالفه الكثير من الصدق والموضوعية والدّقة.

- المعتز.

ويتصدّى الشاعرُ ابن الرُّومي للخليفةِ المعتز الذي ولي الخلافة بعد أن خلع عمه المستعين، ويهجوه هجاء شديداً، ويصفه بالذلة والخسة، ويدعوه إلى التخلي عن المنصب؛ لأنه ليس أهلاً له، فهو رجل ذو آثام وموبقات، لا يرضاه الله خليفة للمُسلمين، ولذا، فإنَّ الناس كرهوا خلافته، فجاشوا ضدّه.

ويركّز الشاعر في هجائه على حادثة مقتل الخليفة المُتوكّل، ويتهم المعتز بالضلوع فيها والتآمر على اغتيال والده، ثم يشمل بنقده المعتز وإخوانه الذين قابلوا إكرام أبيهم لهم بأبشع صُورة تدلُّ على عدم برّهم بأبيهم، إذ كان ولاة سوء وظلم وجَور، يقول من قصيدة له[٢]:

دَعِ الخِلافةَ يا "مُعْتزُّ" من كَثَبٍ ... فَليسَ يَكْسوكَ منها اللهُ ما سَلبا
أترْتجي لُبْسها مِنْ بعدِ خَلْعكها ... هَيهاتَ هَيهاتَ، فات الضَّرعَ ما حَلَبا
تاللهِ، ما كان يرضاكَ المليكُ لها ... قد احتقابك ما أصبحت مُحْتقبا[٣]
حتى أذلّك عنها ثم أبدلها ... كُفؤاً رَضيّاً لذاتِ اللهُ مُنتَجَبا
هذي "خُرسانُ" قد جاشت حَلائبُها ... تُزْجي لنصرِ أخيها عَارِضاً لَجِبا[٤]
....

---

(١) المرزباني أبو عبيد، محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ)، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص٥١٤.

(٢) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٨.

(٣) احتقب الشيء: حمله في حقيبة.

(٤) تزجي: تسوق، والعارض اللجب: أراد الجيش الكثير العدد.

يـــا مَـــنْ جنـــى لأبيـــه القَتْـــلَ ثُـــمَّ غـــدا حَربـــاً لِثـــائرهِ صَـــدَّمتَ مَـــنْ ثَلبـــا[١]
يـــا أوليـــاءَ عُهُـــودِ الشَّـــرِّ هَـــوْنَكُمُ مَـــنْ غالـــبَ اللهَ فـــي سُـــلطانه غُلبـــا
لقـــد جَـــزيتم أبـــاكم حـــين كَـــرّمكُمْ بالعهدِ أسْـــوَأ مـــا يَجْـــزي البنـــون أبـــا

- المعتضد.

ويتابع الشاعر علي بن بسَّام مسيرةَ مَنْ تقدّمه من شعراء الهجاء السِّياسيّ، حتى لم يسلم منه أحدٌ من رجالِ الدولة[٢]، فمما قاله في هجاء الخليفة المعتضد[٣]:

إلـــى كَـــمْ لا نَـــرى مـــا نَرْتجيـــه ولا ننفـــكُّ مـــن أمـــلٍ كَـــذُوبِ
لـــئن سَـــمَّوْكَ "مُعْتضِـــداً"، فـــإنّي أظنّـــك سَـــوفَ تُعْضَـــدُ عَـــنْ قَريـــبِ

يُوجّه الشاعر انتقاده إلى الخليفة الذي طالما أوعد وأخلف، حتى عاش الشاعر وأصحابه في آمالٍ كاذبة زخرفها الخليفة وزينها لهم ثم جاء ما يُكذبها، ولذا، يرى الشاعر أن تلقيب الخليفة بالمعتضد ليس صحيحاً، ويتوقع الشاعر له زوال الملك قريباً.

وهكذا، تبين القارئ أن الشعراء كانوا للخلفاء العباسيين بالمرصاد، فرغم هيبة الخلافة وسلطانها، نفذ الشعراء إلى الخلفاء، فانتقدوا سياستهم وأعمالهم وسلوكياتهم، وكشفوا عن سوء إدارتهم، وعدم قدرتهم على تدبير الشؤون العامة للدولة؛ نظراً لعدم كفايتهم السياسية والإدارية واهتمامهم بشؤونهم الخاصة وتقديمها على مصالح الرعية وقضايا الناس. ويعتقد الباحث أن هذا الهجاء كان مُهماً لتحقيق بعض الإصلاح المنشود، إذ إن النقد يُصحح الأخطاء ويفتح العيون على مواطن الضعف، وهكذا، فإن الشعراء قاموا بدور مُوجِّه في الإصلاح السياسيّ، وكانوا الصوت الإعلاميّ الذي يُعبر عن تيار الأغلبية الصامتة.

* تصوير خراب مؤسسة الخلافة.

يبدو واضحاً من المحور السابق أن الشعراء العباسيين لم يقصروا في التعرض للخلفاء طيلة العهود العباسية المُتلاحقة، فقد هجوا الخلفاء الأقوياء، رُغم ما كان ينتظرهم من وعيد وعذاب، وارتفعت وتيرة هجائهم عندما ضعف الخلفاء وأصبحوا أُلعوبة بيد الأتراك، وقد فتح الوضع الجديد للخلافة الضعيفة الطريق أمام الشعراء لوصف ما آلت إليه أُمور الخلافة العباسيّة

---

(١) ثلب: ذمّ.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، مصدر سابق، ص٢٩٧.

(٣) ابن بسام البغدادي، علي بن محمد بن نصر (كان حياً سنة ٣٠٦هـ)، ديوان ابن بسام، صنعة وتحقيق: د. مزهر السوداني، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٨، والمسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص٢٩٩.

التي فقدت ألقها وقوتها وهيبتها، وهذا ما نراه في طائفة من أشعارهم التي تصور مدى الخراب الكبير الذي أصاب مؤسسة الحكم العباسيّ، من ذلك قول ابن الرُّومي يهجو العباسيين يبين عدم أحقيتهم في الخلافة[١]:

مَلكتم – يا بنـــي العبّـــاسِ – عـــن قَـــدَرٍ بغيـــرِ حَـــقٍّ ولا فَضْـــلٍ علـــى أحـــدِ
تُقـــدَّمونَ أمـــامَ النَّـــاسِ كُلّهـــمُ وأنْـــتم – يـــا بنـــي العبَّـــاسِ – كالنَّقـــدِ[٢]
شَـــبهتكُم إن بغـــى بـــاغٍ لَكُـــم مَـــثَلاً صُـــغرى الأصـــابع تُثْنـــى أوّلَ العـــددِ

ورُغم أن ابن الرُّومي مدح عدداً من الخلفاء العباسيين مُتقرباً إليهم، فإنَّ هذه المقطوعة تعبّر عن موقفه الحقيقي من هؤلاء الخلفاء، إذ يبدو غير مقتنع بخلافتهم منذ قيامها، بل يصرّح في البيت الأوّل أن العباسيين لا حق لهم في تسلّم خلافة المُسلمين، لأنهم ليسوا أصحاب الأفضلية، ومن ثَمّ، فإن انتقال الخلافة إليهم كان قَدَراً من الله ساقه إليهم، لا لأن العباسيين أصحاب حقّ استردوه كما كانوا يشيعون بين الناس.

ويصغر ابن الرومي في البيت الثاني من قَدْر العباسيين ومكانتهم، فيراهم كصغار الماعز التي لا شأن لها يذكر أمام جماعة الماعز، ثم يجعلهم بين أصابع اليد كالأُصبع الصغرى – الخُنصر – التي يطويها العادُ عندما يبدأ العدُ على أصابعه.

ومن ذلك، ما نراه في شعر علي بن بسّام الذي استعرض في إحدى قصائده مظاهرَ فساد الخلافة وتدهور أوضاعها، متحدثاً عن تدخل الجواري في شؤون الحكم، وتقليد الوزراء الفاسدين، واتخاذ الولاة الظالمين، وإسناد الوظائف العامة إلى غير أهلها، واستماع السُّلطة العباسية إلى دواعي الفتنة، وينتهي بعد ذكر هذه المظاهر إلى توصيف الحال التي انتهت لها شؤون الحكم العباسيّ[٣]:

فهـــذي الخلافـــةُ قـــد وَدَّعـــتْ وظلّـــت علـــى عَرْشـــها خاويّـــهْ
فَخَـــلِّ الزَّمـــانَ لأوغـــادِهِ إلـــى لَعنـــةِ اللهِ والهاويـــهْ
فيـــا ربِّ قـــد رَكِـــبَ الأرْذلـــون ورجلـــيَ مِـــنْ رِجْلِهـــم عاليـــهْ
فـــإن كُنـــتَ حاملنـــا مـــثلهم وإلاَّ فأرْحِـــل بنـــي الزَّانيـــهْ

ويصل الباحث في خاتمة هذا الفصل إلى تبين الأسباب الموجبة إلى هجاء الخلفاء ونقد سياستهم وسلوكهم، فقد مهد الخلفاء العباسيون أنفسهم الطريق أمام الشعراء لهجائهم، بما وضعوه في أيديهم من سلاح نافذ للطعن عليهم، فلو كان خلفاء العصر أقوياء أشداء ممسكين بزمام

---

(١) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٨٠٣.

(٢) النَّقد: صغار الماعز.

(٣) ابن بسام، الديوان، مصدر سابق، ص٦٤، والمسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص٢٩٨.

الحكم، غير مصطنعين للأتراك، ولا مستضعفين أمامهم، لما استطاع الشعراء ذمهم[١] ونقدهم سياسياً وإدارياً وشخصياً. كذلك، فإن انصراف الخلفاء تدبير السياسة إلى قضاء الشهوات والملذات جعل الطريق سائغاً أمام الشعراء لهجائهم، كما أن بعدهم عن التقوى والورع وإقامة شعائر الدين كان سبباً آخر في توجيه النقد إليهم.

---

(١) التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص١٥٥.

الفصـــل الثانـــي : هِـــجـــاءُ الـــــوزراء

* **بواعث هجاء الوزراء.**
* **موقف الشعراء من تنصيب الوزراء.**
* **نقد ماضي الوزراء وسيرهم السابقة.**
* **موقف الشعراء من عدم أهلية الوزراء.**
* **تصوير ظلم الوزراء وتعديهم.**
* **موقف الشعراء من ظلم الوزراء وتعديهم.**
* **نقد مثالب الوزراء الأُخرى.**

* بواعث هجاء الوزراء.

تُعدُّ الوزارة واحدةً من التراتيب السياسيّة التي أدخلها العباسيون إلى نظام الحكم مُتأثرين بالرسوم الفارسيّة، وكان الخليفة العباسيّ يتخذ وزيراً له، ويطلق يده في تدبير الشؤون العامة، فهو على ذلك أشبه ما يكون بالسُّلطة التنفيذيّة.

وكانت للوزير سَطوة ومكانة رفيعة في الدّولة، فهو القائم على تسيير أُمور الدّولة والنظر في القضايا العامة، وهو صاحب الأمر والنهي بعد الخليفة. وكثيراً ما كان الوزراء ينعمون بصلاحيات واسعة للنظر في أُمور الدّولة وشؤون الرعية، وكانوا يجمعون من المؤهلات ما يُعزز ثقة الخليفة بهم.

وكثيراً ما وثق الخليفة بوزيره فامتدت وزارته سنواتٍ، ونعم الناسُ بشيءٍ من الاستقرار، وكثيراً ما كان الخليفة يغضب على الوزير فيعزله أو ينكبه ويسجنه، ويستبدل به وزيراً آخر، مما أتاح مجالاً كبيراً للتغيير في الوزراء، وكثيراً ما كانت الوزارة تتوارث من قبل بعض الأُسر، ولا سيّما الفارسيّة، كآل برمك وآل سهل وآل الفرات وآل الجراح وآل خاقان وغيرهم من البيوت.

ومع ضعف هيبة الخلافة، وتعدي الجند على سلطات الخليفة، سقطت هيبة الوزارة، فكان الخليفة يعمد إلى تغيير الوزراء في غضون مُدّة وجيزة، وكانت عادةً ما تسلّم هذا المنصب الخطير مَنْ لا يصلح له، ومَنْ لا تتوافر المؤهلات في شخصه، وأُصيب الوزارة بنكسة عظيمة في عهد الخليفة المقتدر، وكثرت الرشوة، وعم الفساد في الحكم، وانتشر الظلم، وتوالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً، ومنهم مَنْ تولى الوزارة مرتين وثلاثاً، وكُلٌّ وزير يُصادر ثروات الذي قبله، ويعمل كل ما في وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة[١].

وفي ظلِّ ظروف الوزارة غير المستقرة، وما جلبته من كثرة الانقلاب على الوزراء، ونكبتهم ومصادرة أموالهم، وما جلبته هذه الظروف السيئة من انتشار المظالم وانعدام الأمن وانحراف الوزراء عن الاستقامة والصلاح وحُسن السيرة، وشيوع الرشاوى، وسرقة المال العام، وجد الشعراء أنفسهم مدفوعين إلى الوقوف في وجه هؤلاء الوزراء الفاسدين، ونقد سُلُوكهم الإداريّ والسياسيّ والشخصيّ، وفضح سيرهم القائمة على الظلم والجور والمحاباة والرشوة وإهمال شؤون الرعية وعدم القيام بحق المناصب التي تولوها.

---

(١) ضيف، شوقي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، الطبعة الثالثة عشرة، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص٤٣٠.

وكثيراً ما كان الباعث السياسيّ يُحرّك هذا الهجاء الممزوج بالنقد والسخرية، بيد أن عدداً كبيراً من الشعراء صادفوا مواقف ذاتية من الوزراء جعلتهم يتعرّضون لهم بالهجاء المُقذع، بمعنى أن البواعث الشخصيّة كانت مدعاة – في الوقت نفسه – لتحريك هذا الهجاء بصورة أو بأُخرى، وأحياناً كان الباعثان السياسي والشخصي يتعانقان معاً في رسم صورة الوزير السّلبية بكلِّ عيوبها السياسيّة والإداريّة والذاتيّة. وهكذا، يمكن الممايزة بين اتجاهين واضحين في هجاء الوزراء، أحدهما صدر فيه أصحابه عن دوافع سياسية، والآخر صدر فيه أصحابه عن دوافع ذاتية[١].

ومهما يكن، فقد مثّل هجاء الوزراء جانباً عريضاً من جوانب الهجاء السياسيّ في هذا العصر، وقد استطاع الشعراء حقاً أن يسجلوا صحائف أدبيّة مهمة تمثل وجد المعارضة والنقد والتوجيه، وكثيراً ما كانت هذه الأهاجي تعبيراً عن السّخط العام على فئة من الوزراء الذين لم يكونوا أهلاً لتقلّد هذا المنصب السياسيّ الحسّاس. و لذا، فإن أهاجي الشعراء في الوزراء تمثل– بحق – نقداً للسلطة العباسيّة ووزرائها الذين مزقهم الهجاؤون، فقد كان هؤلاء الوزراء ذوو تكبّر وظلم، يتيهون بكرسي الحكم، ولا يعتبرون بغيرهم، وفاتهم أن هذا الكرسي لو دام لمن جلس عليه قبلهم لما وصلوا هم إليه[٢].

* موقف الشعراء من تنصيب الوزراء.

يُلاحظ المتأمل في هذا المحور أن كثيراً من الشعراء بدأوا ينتفضون على الوزراء منذ أن طرق أسماعهم خبر ولايتهم، فبادروا إلى نظم الأشعار، على شكل قصائد ومقطوعات، تُعبّر عن عدم رضاهم بتلك الولاية، وعدم قبولهم بالوزير المُعيّن؛ لعدم أهليته وكفايته وقلّة خبرته وسُوء سيرته. ويُعدُّ هذا اللون من الشعر الهجائي المُبادر إلى رفض الوزير فاتحة لما بعده من التّعمق في معاني هجاء الوزير وتشريحه ونقد كُلِّ تصرفاته ومُخالفاته وهو يتقلّد المنصب الذي تسلّمه بغير وجه حقّ.

وبناءً على عدم كفاية كثير من الوزراء لملء مناصبهم، بسط كثير من الشعراء ألسنتهم في الوزراء الجُدد، وأبدوا استغرابهم من وصول هؤلاء الأشخاص إلى تلك المناصب الرفيعة، ونعوا على الزمان الذي قلب الأحوال رأساً على عقب حتى وصل إلى رُتبة الوزارة من كان

---

(١) عيسى، فوزي سعد، الهجاء في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص١٢٣.

(٢) التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص١٥٦.

مشهوداً له بالخمول أو الفساد أو الفجور، يقول أحد الشعراء في هجاء الوزير أحمد بن عمّار لما قلّده المُعتصم هذا المنصب[١]:

سُـــبحانَ ربـــي الخـــالقِ البـــارئ صُـــرتَ وَزيـــراً يـــا ابـــنَ عمّـــارِ!!
وكُنـــتَ طَحّانـــاً علـــى بَغَلـــةٍ بِغَيـــــــرِ دُكّـــــــانٍ ولا دارِ
كفـــرتَ بالمقـــدارِ إن لـــم تكـــنْ قـــد جُـــزتَ فـــي ذا كُـــلَّ مقـــدارِ

يُظهرُ الشاعر في هذه الأبيات تعجبه الشديد من الحالِ العظيمة التي صار إليها أحمد بن عمّار بعد حاله الخسيسة البائسة التي كان عليها قبل أن تفتح له الدُّنيا ذراعيها، فقد كان يحصل رزقه القليل من العمل بطحنِ الحبوب إلى أن رقي حاله رتبة الوزارة العظيمة، لقد وقف الشاعر مشدوهاً أمام هذا الانقلاب الكبير، وعاين انتقال المهجو من أخسّ المهن إلى أجل المناصب، ورأى أن هذا الانتقال، بل الانقلاب، هو تحطيم للمعايير والموازين، وكفرٌ بكلِّ المكاييل والمقادير، أن يرقى الطحّان صاحب البغلة الذي لا يملك دكاناً في السوق، أو حتى داراً في الحيّ، إلى وزير للدولة يتحكّم في مصائر الناس ورقاب العباد، ويرسم السِّياسة العامة!!.

وإزاء تسلّم مَنْ لا يستحقون رُتبة الوزارة، أظهر بعضُ الشعراء العباسيين استغرابهم واستعجابهم من توسيد الأمر إلى غير أهله، وعدوا ذلك من الكبائر العظيمة، أو علامات قرب الساعة، يقول ابنُ الرومي في الوزير إسماعيل بن بُلبل[٢]:

أنـــتَ الـــوزيرُ الـــذي وِزارتُـــهُ مَعْـــدودةٌ فـــي الكَبـــائرِ الكُبَـــرِ

وأظهر بعضُ الشعراء التَّشاؤم بمقدم الوزير الجديد؛ كون ولايته لن تجلب معها إلا السوء والفساد والضيق على العباد، يقول ابنُ الرومي في هجاء الوزير علي بن عيسى بن الجرّاح[٣]:

أيامكم يـــا بنـــي الجـــرّاحِ قـــد جَرَحَـــت كُـــلَّ القلـــوبِ ففيهـــا مـــنكُمُ ثـــارُ
مـــا مـــنكُم رَجـــلٌ تمّـــت رياســـتُهُ إلا مَشـــومٌ عَظـــيمُ الكِبـــرِ جَبّـــارُ
لا قـــدسَ الله بالإقبـــالِ دَولـــتكُمْ فـــإن إقبـــالكمْ للنَّـــاسِ إدبـــارُ

ينعى الشاعر في هذه الأبيات المُركزة على إحدى الأُسر التي تسلّم أعيانها الوزارة العباسيّة غير مرّة، ويرى أن الأيام التي وزر فيها هؤلاء تركت آثارها السيئة على الخلق،

---

(١) ابن الطقطقا، علي بن محمّد (ت٧٠٩هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدُّول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٣٣.

(٢) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١١٢٧.

وكأنما قد أدمت قلوبهم، فصار لهذه القلوب ثأر عند آل الجرّاح الذين يُشير اسمهم – كما يرى الشاعر– إلى تلك الجراح التي مست قلوب الناس فأدمتها. ولا يخفي الشاعر مشاعره السيئة تجاه وزراء هذه الأُسرة الذين شهروا في الناس بكبرهم وغلظ قلوبهم وشؤم دولتهم، ويختم الشاعر أبياته بالدُّعاء على هذه الدّولة الجديدة التي تولاها آل الجراح، لأنَّ هذا الإقبال مُؤذنٌ بنهاية النَّاس وفساد حياتهم.

ولجأ بعضُ الشُّعراء إلى رسم صُورة ساخرة تدعو إلى الاستغراق في الضحك للوزير الجديد؛ ليؤكد عدم كفايته للمنصب الذي تولاه، من ذلك قول دعبل الخزاعي لما ولي أحمد بن أبي خالد الوزارةَ أيام المأمون[١]:

كـــــأنَّ أبـــــا خالـــــدٍ مَـــــرْأةٌ إذا بـــــاتَ مُتَّخمـــــاً قَاعِـــــداً[٢]
يَضـــــيقُ بـــــأولادِهِ بَطْنُـــــهُ ..... واحـــــداً واحـــــداً
فقـــد مـــلأ الأرضَ مِـــنْ ..... خَنـــافسَ لا تُشْـــبِهُ الوالِـــدا[٣]

يُصوّر الشاعر في هذه الأبيات مدى شراهة الوزير الجديد وفرطه في الأكل، إذ كان يحشو بطنه بالطعام، فيصاب بالتخمة التي لا تمكنه من القيام، فيظل عندها مستسلماً إلى القعود، حتى إنه لا يقوى على الوصول إلى مكان الخلاء ليخرج ما في بطنه من فضلات!! وعندها لا يكون أمامه سوى إفساد المجلس من حوله بما يُخرجه من غائطٍ كأنما هو خنافس كريهة اللون والرائحة.

لقد أشبع الشاعر أحمد بن أبي خالد سخرية، ووقف منه على مفارقات جسميّة جسّمها في صُوره تجسيماً يُشعر بدقة الملاحظة، وفسّرها على وجه غريب خرج به عن حدود ما نعرف من صفات الأجسام في الرجال، فخلق ذلك علاقات إنسانية غريبة لا نعرفها بين الناس، كما يقول عبد الكريم الأشتر[٤].

وحاول بعضُ الشعراء أن يكشف اللثام عن الأسباب الحقيقيّة التي أوصلت بعض الوزراء إلى هذه المرتبة الرفيعة، كقول البحتريّ يهجو وزيراً تقدّم ووصل إلى منصبه عن طريق امرأة[٥]:

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٧٣.

(٢) مُتخماً: متضايقاً من شدّة الشبع.

(٣) سلحه: بوله.

(٤) الأشتر، عبد الكريم، دعبل بن علي الخزاعي، شاعر آل البيت، مصدر سابق، ص٩٧.

(٥) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٤٢.

نلـــتَ مـــا نِلـــتَ يـــا بَغـــيضُ بـــأُمٍّ هـــــي أعطتْـــــكَ رُتبـــــةَ الـــــوزراءِ
فـــــإذا عُـــــدِّدَتْ صَـــــنائعُ قَـــــومٍ كنـــــتَ فيهـــــا صَـــــنيعةَ البظـــــرَاءِ

وهو يشير هنا إلى دور النِّساء السّلبي في إيصال بعضِ الوزراء إلى هذا المنصب الخطير، ولكن هذه الإشارة تلبس ثوب الهجاء القاسي كما يبدو من البيت الثاني الذي يُصنّف هذا الوزير بأنّه صنيعة أحد أعضاء المرأة، وهي صُورة مُخجلة جدّاً.

* نقد ماضي الوزراء وسيرهم السابقة.

ركّز الشعراء في هجاء الوزراء على أحوالهم وسلوكهم وأعمالهم ووظائفهم ومهنهم أو مهن آبائهم، قبل أن يلوا منصب الوزارة، ومثّل هذا المنحى جانباً مُهماً في محور هجاء الوزراء، ولعل أوضح الأمثلة على هذا المنحى ما قاله الشعراء في هجاء الوزير محمد بن عبد الملك الزيَّات الذي كان وأبوه يتجران بالزيت قبل أن يلي هو الوزارة للخليفة المعتصم، ومن بعده للواثق، فقد شارك عدد من الشعراء في هجاء هذا الوزير وتعييره ببيع الزيت، يقول الشاعر علي بن جَبلة العَكوّك في هجائه[١]:

يـــا بـــائعَ الزَّيـــتِ عَـــرِّج غَيْـــرَ مَرمُـــوقِ
لِتُشْـــــغَلَنَّ عـــــن الأرطـــــالِ والسُّـــــوقِ
مَـــنْ رامَ شـــتمكَ لـــم يَنْـــزِعْ إلـــى كـــذبٍ
فـــــي مُنْتمـــــاكَ وابْـــــدأه بتَحْقِيـــــقِ[٢]
أبُـــوك عَبْـــدٌ ولـــلأُمِ التـــي فَلَقَـــتْ
عَـــنْ أُمِّ رأســـك هَـــنٌ غيـــر مَخْلُـــوقِ
إنْ أنـــتَ عَـــدَدْتَ أصْـــلاً لا تُســـبُّ بـــه
يومـــاً فأمُّـــكَ منـــي ذات تَطْليـــقِ
ولـــن تُطيـــقَ بِحَـــولِ أن تُزيـــلَ شـــجاً
أثْبتـــه مِنْـــكَ فـــي مُسْـــتَنْزَلِ الرِّيـــقِ[٣]

اللهُ أنشـــأك مِـــنْ نَـــوكٍ ومِـــنْ كَـــذبٍ

---

(١) العكوك، علي بن جبلة (ت ٢١٣هـ)، شعر علي بن جبلة، جمع وتحقيق: حسين عطوان، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٨٨.

(٢) منتماك: أصلك.

(٣) الشجا: الغُصّة، والحول: القوة.

لا تَعطفـــــنَّ إلـــــى لَـــــوْمٍ لمخلُـــــوق[١]

مَـــــاذا يَقُـــــولُ امـــــرؤ غَشَّـــــاك مِدْحَتَـــــهُ

إلا ابنُ .....

يبدأ العكوك أبياته بردّ الوزير إلى أصله المهني، إذ كان تاجراً في السوق، لا معرفة له برسوم الوزارة وتقاليدها وتدبيرها، ويتخذ الشاعر هذه المثلبة – من وجهة نظره – مدخلاً للطعن على أصل الوزير، فهو خامل النسب، بل هو من أبناء العبيد غير الأحرار. وأمّا أُمه، فيرسم الشاعر صُورة مُخجلة جدّاً بعض أعضائها التي طال الشعر فوقها، ولم يحظَ بالإزالة، كما تفعل النساء عادةً. وينتهي الشاعر إلى إنكار أن يكون لابن الزيات نسب يُعتد به، وإن هو أثبت نسباً لنفسه، فهو نسب وضيعٌ، وهذا النسب كالغُصّة التي تعترض في حلق الوزير، فتنسبب له ضيقاً وألماً.

ويتهم الشاعرُ الوزير في أخلاقه، ونسبه، أما أخلاقه فمبعث العيب فيها حُمق الوزير وكذبه وقساوة قلبه، فهو لا يعرفُ الرحمة، ولا يتسرب العطف على العباد إلى قلبه، وهذه الخصال القبيحة مدعاة إلى ذمّه وهجائه وذكره بكلِّ قبيح، إذ باينت أخلاقه ما يجب أن يكون عليه الوزراء من سعة الفهم والدارية والصدق والرحمة بالرعية. ويختم الشاعر أبياته بالطعن مرّة أُخرى في نسب الوزير، وينسبه إلى الزّنا والسّفاح والحرام، ويتهمه في دينه، فهو سليل زندقة وكُفر وإلحاد. ويؤكد الشاعر أنَّ معاني المديح الصافية ليست موجودة في شخص هذا الوزير الجبّار، وإن هجاءه له يقوم مقام مدحه، وفي هذا المعنى من التحقير ما فيه.

ويشير إبراهيم بن المهدي إلى وضاعة صنعة الوزير الزّيات، مُؤكداً أن عمله بتجارة الزيت وعصره لا يُؤهلانه لرتبة الوزارة، فهو لا يحمل إلا النفاق والكذب، وآية ذلك أنّه يُظهر النصيحة ويُخفي الغش في داخله، ويدعو الشاعر إلى إقصاء هذا الوزير وتغييره بسرعة؛ لأنه لا يصلح لما يليه من شؤون إداريّة وسياسيّة خطيرة، ولأنه بقاءه شؤوم وبؤس وعار على الأُمة كلّها، يقول[٢]:

يـــــا بُـــــؤسَ يَـــــومٍ كاســـــفٍ إن لـــــم تُغَيَّـــــرْ فـــــي غَـــــدِهْ

لأُمَّـــــــــةٍ وَزيرُهـــــــــا عَاصِـــــــرُ زَيـــــــتٍ بِيـــــــدهْ

يُظهـــــــرُ نُصـــــــحاً وَجْهُـــــــهُ وغِشُّـــــــة فـــــــي كَبـــــــدهْ

---

(١) النوك: الحُمق.

(٢) إبراهيم بن المهدي، الديوان، مصدر سابق، ص٤٠ – ٤١.

ويكثف الشاعر علي بن الجهم في بيتين له مثلبة تولي تاجر الزيت للوزارة، مؤكداً أن لا حاجة إلى الإطالة في وصف هذه المثلبة وتفصيل سلبياتها في قصائد طويلة من غير طائل، فالمعنى في نظر الشاعر يُمكن جمعه في بيت واحد لا غير، يقول[١]:

أحسنُ من تسعين بيتاً سُدًى ... جَمعُك مَعْنا هُنَّ في بَيْتِ
ما أحوجَ المَلْكَ إلى مَطْرَةٍ ... تَغْسِلُ عَنْهُ وَضَرَ الزَّيتِ[٢]

يُمكن للباحث أن يطلق على البيت الثاني مسمّى البيت المركزي الجامع؛ لأن الشاعر حمّله كل المعاني السلبيّة التي أراد لصقها بالمهجو، حتى إن هذا البيت في معناه ومبناه يغني – عند الشاعر– عن تسعين بيتاً لا فائدةَ منها. ويدلُّ الشاعر في بيته المركزي على ما نال مُلك العباسيين من قذارة ووسخ ودُهن جلبه الوزير الزيات الذي ظن الوزارةَ تجارة زيت، ويؤكد الشاعر أن ما نال الخلافة من وزارة الزيت التي جلبها الوزير لا تزول إلا بالمطر القوي الدافق الذي يغسل أوساخ الزيت المستعصية، وهو يشير بهذا إلى ضرورة خلع الوزير واستبداله بغيره.

ويرصد الشاعر ابن الرُّومي صُورتين مُتناقضين للوزير أبي الصقر إسماعيل بن بلبل، الصورة الأُولى وتظهر أحواله قبل أن يلي الوزارة، والصورة الثانية تُظهر حالات التبدل والتغيّر التي أصابته بعد أن تسلّم الوزارة، يقول[٣]:

أإسماعيلُ مِنْ رَجُلٍ ... تَعَرَّبَ بَعْدما شاخا
فأصْبحَ مِنْ بني شَيْبا ... نَ ضَخْمَ الشأنِ بذَّاخا
وصارَ أبوه "بِسْطاماً"، ... وكان أبوه "قَيْبَاخا"
وصَارَ يَقُولُ: قُمْ عنا، ... وكان يقولُ: قُوهَاجَا[٤]
وشُيّدتُ القُصُور لَهُ، ... وكانت قَبْلُ أكْواخا
وصَارَ أخسَّ مَنْ معَهُ ... لَهُ عُشرونَ طبّاخا
وكانت أُمُّهُ كَمّا ... خَةً وأبوه كَمّاخا[٥]

---

(١) علي بن الجهم (ت ٢٤٩هـ)، ديوان علي بن الجهم، تحقيق: خليل مردم بك، منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١٢٠.

(٢) مطرة: شتوة، والضر: الوسخ.

(٣) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٥٨٠ – ٥٨١.

(٤) قُوهاجا: عبارة فارسية معناها: ابتعد أيها الجبان.

(٥) الكماخ: الذي يصنع الكامخ، وهو لون من الأدام.

يُعمق الشاعر في هذه الأبيات الفوارق بين إسماعيل بن بلبل قبل أن يلي الوزارة وبعد أن وليها، فقد كان يتمسك بأُصوله الفارسيّة، وكان لسانه فارسياً خالصاً، وكان خاملاً ساقطاً، لا حول له ولا قوّة، يعيش عيشة بسيطة في أكواخ قذرة، ويُنفق عليه أبوان بسيطان يكدان في توفير لقمة العيش من عمل بعض أصناف الأدام الذي يأكله الناس. ولكن هذه الصُّورة سرعان ما أصابها الانقلاب العظيم بعد أن ولي إسماعيل بن بلبل مقاليد الوزارة، فقد حوّل نسبه إلى قبيلة شيبان العربيّة، وغيّر اسم والده الفارسي، وغلب اللسان العربي على كلامه، وتحوّل من عيشةِ الأكواخ إلى سكنِ القصور الفارهات، وصار له خدم وحشم، ووصل إلى درجة عالية من الترف، حتى نال هذا الترف أخسّ أصحابه وأتباعه.

وإزاء هذا الانقلاب العظيم، يصرخ الشاعر بأعلى صوته، من غير جدوى، ويُظهر عجبه الشديد ممن رأى هذا الانقلاب الكبير كيف لا يتأثر له، ويصل بعد استغرابه واستعجابه إلى نعي الخلافة التي فقدت ألقها وخفتت أضواؤها، وحلّت بها الأوضار والأوساخ، منذ أن تحكّم بها الوزراء غير الأكفاء كإسماعيل بن بُلبل وأشباهه.

ولجأ بعض الشُّعراء في الحديث عن ماضي الوزراء إلى الفحش والإقذاع ورمي المهجو بالفواحش والموبقات والأفعال المُخزية، ورسموا صُورة معيبة لحال الوزير قبل أن يلي الوزارة، من ذلك شعر ابن الرُّومي في هجاء الوزير أبي الصقر إسماعيل بلبل، فقد صوّر ما كان يُفعل به من صنيع قوم لوط، بأُسلوب ملئ بالسخرية والتهكم، يقول[١]:

سُـــبحانَ مَـــنْ خوّلـــهُ نِعْمـــةً ... أنســـته جَهـــدَ البـــؤسِ والضِّـــيق
إذ تَعـــبّ ..... فـــي مَتنـــهِ ... مـــا بـــينَ .....
بكُـــلِّ جُـــردانٍ لـــه فِيشـــةٌ ... كأنهـــا قَرعـــةُ إنبيـــق[٢]
كـــم مـــن حُـــروبٍ قـــد أناخـــت لـــه ... بـــلا عَجـــاجٍ وبـــلا ضِـــيق[٣]
....
يـــا لـــك فـــي الهيجـــاء مـــن فـــارسٍ ... مُشـــتهرٍ بالصَّـــبرِ بطريـــق
يظـــلُّ مَرْكُوبـــاً بهـــا رَاكِبـــاً ... مَـــذاكي الجُـــردِ المعـــاتيق[٤]
....

---

[١] ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص١٧٠٣ – ١٧٠٤.

[٢] إنبيق: كلمة فارسية تدل على آنية يستعملها عُلماء الكيمياء.

[٣] العَجاج: غبار المعركة.

[٤] المذاكي: الخيل السّريعة، والجرد: الخيل القصيرة الشّعر، والمعاتيق: الخيل الأصائل.

مُطاعنـــــاً والطَّعـــــن مِـــــنْ قِرنـــــهِ ولـــــيسَ فيـــــه غيـــــرُ تَـــــدْريق[١]

إنَّ المعركة التي يتحدّث عنها الشاعر، وما يتخللها من طعان ليست معركة حقيقية – كما يبدو– لأول وهلة، وإنما هي تصوير ساخر لفعلة اللواط التي كان أبو الصقر ضحيتها، ويبدو التهكم واضحاً حين يتحدّث الشاعر عن اشتهار هذا الوزير بالصّبر والتحمّل وهو يتلقى الطعنات من الآخرين، مصوراً إياه بفارس الهيجاء، ولكنه فارس مركوب!!

* موقف الشعراء من عدم أهلية الوزراء.

تحدّث الشعراء طويلاً عن عدم قدرة الوزراء وكفايتهم التي جرّت إلى سوء إدارة الدّولة وشيوع الظلم والطغيان، وتسليم الأمر إلى غير أهله، يقول الشاعر علي بن الجهم ناعياً على الوزير محمد بن عبد الملك الزيَّات الذي حكم بالجور والظلم، وأساء تدبير شُؤون الدّولة وجعلها عُرضةً للهلاك والشّتات، يقول[٢]:

لعـــــــــائنُ الله مُتابَعَـــــــــاتِ مُصَـــــــــبحاتٍ ومُهَجِّـــــــــرات[٣]
علـــى "ابـــنِ عبـــد الملـــكِ الزيَّـــاتِ" عـــرّض شَـــمَلَ المُلْـــك للشَّـــتاتِ
وأنفـــــذَ الأحكـــــامَ جـــــائراتِ علـــــى كتـــــاب اللهِ زاريـــــاتِ[٤]
ومـــــن عُقُـــــولِ النَّـــــاسِ خارجـــــاتِ يرمـــــي الـــــدّواوين بتوقيعـــــاتِ
مُعقـــــدّاتٍ كَرُقـــــي الحيـــــاتِ سُـــبحانَ مـــن جَـــلّ عـــن الصِّـــفاتِ
بعـــد رُكـــوبِ الطَّـــوْفِ فـــي "الفُـــرات" وبعـــد بيـــعِ الزَّيـــتِ بالحَبَّـــاتِ[٥]
صُـــرتَ وزيـــراً شـــامخَ الثَّبـــاتِ "هـــارونُ" يـــا ابـــنَ ســـيدِ السَّـــاداتِ
أمـــا تـــرى الأُمـــورَ مُهْمَـــلاتِ تَشْـــكُو إليـــكَ عَـــدمَ الكُفـــاةِ
فَعاجِـــلِ العِلْـــجَ بمُرهفـــاتِ مـــن بَعـــدِ ألـــفٍ صُـــخّب الأحْـــداتِ[٦]
بِمُثْمِـــراتٍ غيـــرِ مُورقـــاتِ تُـــرى بِمَتْنَيـــه مُرَصِّـــفاتِ

يَصبُّ الشاعر في هذه الأبيات لعناته المترادفة على الوزير الزيات الذي أساء التدبير والسّياسة، وترك شؤون الخلافة، وعرّض المُلك العباسيّ للدمار، وحكم بين الرعية بالجور

---

(١) القِرن: الخيل الأصائل.

(٢) ابن الجهم، الديوان، مصدر سابق، ص١١٩– ١٢٠.

(٣) مهجرات: منسوبة لوقت الهجير، وهو اشتداد الحر.

(٤) زاريات: عائبات.

(٥) الطوف: قِرب تُنفخ ويركب عليها فوق الماء.

(٦) أي بعد أن تضربه ألف سوط.

والظلم، وخالف كتابَ الله وأحكام الشرع والمنطق الصّحيح، وغالباً ما كانت أحكامه الجائرة تخرج إلى الدواوين في صُورة توقيعاتٍ مُقتضبة مُعقدة لا يفهم الناس مُؤداها.

ويعود الشاعر ليتحدث عن عهد الزيات قبل أن يلي الوزارة، حين كان يركب نهر الفُرات ويبيع الزَّيت حبةً حبةً، ويشير إلى انقلاب حاله بعد تسلّم الوزارة، ويتوجه الشاعر في آخر أبياته إلى الخليفة الواثق بالله داعياً إياه إلى الاهتمام بشؤونِ الدولةِ التي باتت مُهملة، بسببِ فساد الوزير وسوء اختياره للعُمال والولاة، ونراه يحرّض الخليفة على عزل هذا الوزير الظالم الجائر المهمل الجبار بعد أن يجلده ألف سوط عقوبة تعديه وجوره وتضييعه وتفريطه بشؤون الحكم. ويتأمل الشاعر أن يرى آثار السّوط وقد تركت علاماتها في ظهر الوزير الظالم.

وكثيراً ما نعى الشعراء على الخلفاء الذين قلّدوا أشخاصاً غير أكفاء رُتبة الوزارة ودفعوا إليهم شؤون الرعية رُغم عدم أهليتهم وكفايتهم، يقول ابن الرومي مُخاطباً الوزير أبا الصقر إسماعيل بن بلبل[١]:

ففي ..... أُمِّ الذي استرعـــاكَ خَيْلاً وإن تَقـــــلُّ أن تَرْعـــــى عَنانـــــا
وخوّلـــك الصَّـــهيلَ وكـــان منـــه كثيـــــراً أن يُسْـــــمعكَ النّهاقـــــا

ويلعن الشاعر علي بن بسّام مَنْ ولّى الوزيرَ العبّاس بن الحسن شؤون الوزارة، مشيراً إلى ماضي هذا الوزير الأسود قبل أن تُسند إليه الأُمور المهمة، يقول[٢]:

لعـــــنَ اللهُ الـــــذي قَلّـــــد عَبّـــــاسَ الـــــوزارةْ
والـــــذي ولّـــــى ابـــــنَ عَمـــــرو يـــــهِ ببغـــــدَاد الإمـــــارةْ
فَـــــوزيرٌ شـــــنج الوجـــــه بطـــــيمٌ كـــــالغرارةْ[٣]
وقفـــــا فيـــــه ســـــناما نِ ورأسٌ كالخيـــــارةْ
لـــــم يـــــزل يُعـــــرفُ بـــــالزُّ رِ قَـــــديماً والعَيـــــارة[٤]

يركز الشاعر في هجائه على معنى فساد الوزير وعدم أهليته لتسلّم هذا المنصب، ويوجه لعناته إلى مَنْ أمر بتسلّم الوزير هذا المنصب الخطير، ثم يرسم له صورة ساخرة قوامها قبح وجهه، وعظم ردفيه اللذين يشبهان سنام الجمل، ورأسه الذي يشبه الخيارة، وهي صورة غير متجانسة، تدلّ على شناعة خلقة الوزير التي تتلاءم مع شناعة أخلاقه.

---

(١) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص١٦٣٧.

(٢) ابن بسام، الديوان، مصدر سابق، ص٤٣، والمسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص٢٩٩.

(٣) شنج الوجه: مقبوضه.

(٤) العيارة: الفساد.

* تصوير ظلم الوزراء وتعديهم.

أطال شعراء الهجاء في هذه المُدّة وقوفهم عند معنى ظلم الوزراء وتعديهم على الرعية وسرقة أموال العامة وأملاك الدولة، بغير وجه حقٍّ، يقول الشاعر أبو العيناء البصري مخاطباً الخليفة في وزيره أحمد بن الخصيب الذي عُرف ببغيه وتعديه على الرعية، حتى إنّه ركل مُتظلماً إليه برجله وهو في الركاب في صدره فقتله، فقال أبو العيناء في هذه الحادثة[١]:

قُـــل للخليفـــةِ يـــا ابـــنَ عَـــمِّ محمّـــدٍ ... أَشْـــكِلْ وزيَـــركَ إنَّـــه ركَّـــالُ[٢]
قَـــدْ أحْجَـــمَ المُتظلِّمـــونَ مَخافـــةً ... منـــه، وقـــالوا: مـــا نـــرومُ مُحـــالُ
مـــا دام مُطلقـــةً علينـــا رِجْلُـــهُ، ... أو دام للنَّـــزِقِ الجَهـــولِ مَقـــالُ
قَـــدْ نَـــالَ مَـــنْ أعْراضـــنا بلســـانهِ ... ولِرجلِـــهِ بـــين الصُّـــدورِ مَجـــالُ
امنعْـــهُ مِـــنْ رَكْـــلِ الرِّجـــالِ وإن تُـــرِدْ ... مـــالاً فعنـــدَ وَزيـــرِكَ الأمـــوالُ

تشير هذه الأبيات إلى مدى الضرر الذي لحق بالرعية من جراء أفعال الوزير الخائن الذي لم يسلم الجميع منه، فمن سلم من ظلمه، لم يسلم من لسانه، ومن سلم من لسانه، لم يسلم من ركله، وهو – فوق ذلك – موصوف بصفات سيئة لا تناسب حال الوزير، فهو نزق طائش جهول، وهو لا يسمع شكوى الرعية، بل يجيبهم بالركل والضرب فكأنه الدابة التي تركل مَنْ يمرُّ بها[٣]، وهذا ما جعل الناس يخافونه ويهابونه، حتى مَنْ كانت له مظلمة خاف أن يطالب بها؛ لعلمه أن الوزير الظالم لا يُحقق العدل بين أفراد الرعية. وينتهي الشاعر إلى دعوة الخليفة إلى ربط هذا الوزير الركال وتقييده، حتى لا يمارس الركل برجله فيقتل مزيداً من الخلق.

ومضى الشعراء وهم يتحدّثون عن هذا المعنى يركزون على خيانة الوزير للأمانة التي قلّده الخليفة إياها وفحشه وتعديه على الرعية وسرقة الأموال وجمعها لنفسه، يقول مروان بن أبي حفصة في هجاء الوزير يعقوب بن دواد، وزير المهدي[٤]:

---

(١) ياقوت، أبو عبد الله، ياقوت، عبد الله (ت٦٢٦هـ)، معجم الأُدباء، دار الفكر، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج١٨، ص٣٠٣- ٣٠٤، وأبو سويلم، أنور، أبو العيناء: محمد بن القاسم بن خلاد (ت ٢٨٢هـ)، دراسة وتوثيق في حياته ونثره وشعره ونوادره وأخباره ومروياته، دار عمّار، الطبعة الأُولى، عمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص١١٤- ١١٥.

(٢) اشكل: اربط، وركال: كثير الركل أي الضرب بالرجل.

(٣) الصفّار، ابتسام مرهون، أبو العيناء الأديب البصري الظريف، منشورات جامعة بغداد، بغداد، د.ت، ص٩٠.

(٤) ابن أبي حفصة، مروان بن سليمان بن أبي حفصة (ت ١٨٢هـ)، ديوان مروان بن أبي حفصة، شرحه: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ص٥٦- ٥٧.

سَيُحْشَـــرُ يعقـــوبُ بـــنُ دوادَ خائبـــاً ... يَلـــوحُ كِتـــابٌ بَـــيْنَ عَينيـــهِ كـــافرُ
خِيانتُـــــهُ المَهـــــديَّ أوْدت بِـــــذِكرهِ ... فأمْسَـــى كَمَـــنْ قـــد غَيبَّتـــه المقـــابرُ[١]
بـــدا منـــك للمهـــديِّ كالصُّـــبحِ سَـــاطِعاً ... مـــن الغِشِّ ما كانـــت تُجـــنُّ الضَمائرُ[٢]
وهَـــلْ لِبيـــاضِ الصُّـــبحِ إن لاح ضَـــوؤُهُ ... فجابَ الـــدُّجى مـــن ظُلمـــةِ اللَّيـــلِ ســـاترُ
أمنزلـــةٌ فَـــوقَ التـــي كُنـــت نِلْتهـــا ... تعاطَيْـــتَ لا أفلحـــتَ ممـــا تُحـــاذرُ

ويشير البحتري إلى المعنى نفسه هاجياً الوزير أحمد بن الخصيب الذي بغى وطغى، وتكبّر وتجبّر، وخان الأمانة التي قُلدها، وأظهر الغش والخيانة، حتى انكشف سوء عمله، وأوبق نفسه بما أظهر من فساد الطوية والتعدي والظلم والعسف، يقول متوعداً الوزير كاشفاً اللثام عن سوء أفعاله[٣]:

لابـــن الخَصـــيبِ الويـــلُ! كيـــفَ انْبـــرى ... بإفكِـــــهِ المُـــــردي وإبطالِـــــهِ[٤]
كـــــادَ أمـــــينَ اللهِ فـــــي نَفْسِـــــهِ ... وفـــــي مَوَاليـــــهِ، وفـــــي مالِـــــهِ[٥]
وَرامَ فـــــي المُلْـــــكِ الـــــذي رامَـــــهُ ... بغِشِّـــــــهِ فيـــــــهِ وإدغالِـــــــهِ[٦]
فـــــــأنزل اللهُ بـــــــه نِقْمـــــــةً ... غيّـــــرت النِّعمـــــةُ مـــــن حالِـــــهِ
وَســـــاقَهُ البغـــــيُّ إلـــــى صَـــــرْعةٍ ... للحَـــينِ لـــم تَخْطـــر علـــى بالِـــهِ[٧]
دِيـــنَ بمـــا دَانَ، وعَـــادتْ لـــه ... فـــي نفســـه أســـواءُ أعمالِـــهِ[٨]
وأمَّـــلَ المكـــروهَ فـــي غَيـــرِهِ ... فنالَـــــهُ مكـــــروهُ آمالِـــــهِ
قَـــدْ أسْـــخطَ اللهَ بـــإعزازه الـــ ... ـــدُّنيـــا، وأرضـــاها بإذلالِـــهِ

وواضح أن الشاعر يكشف اللثام عن كُلِّ المخالفات التي أوجبت مُعاقبة الوزير، إذ كان مُخادعاً للخليفة ومُواليه، مُتعدياً على أمواله، يسعى لهدم سلطان الخليفة، مُتبعاً الغشّ والفساد والخيانة، ولكن بغيه وطغيانه أهلكاه وكشفا للخليفة غشه وتماديه وخيانته وظلمه، فنال ما يستحق من العقاب الأليم.

---

(١) أودت: أدت به إلى الهلاك.
(٢) تجن: تخفي.
(٣) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٣٣.
(٤) الإفك: الكذب، والمردي: المُهلك.
(٥) كاد: خدع.
(٦) الإدغال: إدخال ما يخالف الشيء ويفسده.
(٧) الحين: الهلاك.
(٨) دين: حُكم عليه.

ويقترب ابنُ المعتز من هذا المعنى وهو يهجو الوزير إسماعيل بن بُلبل الذي أظهر الفساد والخيانة، وتعدى على أموال الدولة يكنزها لنفسه من غير رقيب أو حسيب، ثم طوعت له نفسه التمادي في الظلم والغي والطغيان، حتى بات يُحدث نفسه بالانتفاض والثورة على الخليفة نفسه، فكان هذا الفعل منه مُؤذن بكفران النعمة، وتجاوز كُلّ الحدود، يقول[١]:

أينَ الأمانُ من العواقبِ والـ ... جَوْلان في الطُّغيانِ والبَذخِ
أينَ الجوائزُ غَيْرُ جائزةٍ ... والجَهلُ بالإمضاء والفَسْخِ[٢]
وصحائفٍ عند الإله خَلَتْ ... ممّا اقترفتَ مُلِينَ بالنَّسخِ
أنزلتَ قِدْراً غَيْرَ مُنْضجةٍ ... فَطبختَ منها أيما طَبْخِ
وأخذتَ مالَ الله تَكْنِزُهُ ... في الأرضِ كَنْزَ العَظمِ للمُخِّ
وأردتَ تَنْقضُ دَولةً رَسخت ... عِشرينَ حولاً أيما رَسْخِ
فَكَفرتَ مَنْ أوْلاكَ نِعْمتَهُ ... فَسُلِخْتُ منها أيَّما سَلْخِ

يُشير الشاعرُ في هذه الأبيات إلى جُملة من المخالفات التي فعلها الوزير بسبب ظلمه وغلوه وجهله وتكبره وسوء إدارته، إذ كان سيء التصرف في الأموال العامة التي جُعل أميناً عليها، فكان ينفق الأموال إنفاقاً يدل على الترف والبذخ، وكان يمنح الهبات الجزيلة لكثيرٍ ممن لا يستحقونها بغير وجه حقّ، وكان يضع إمضاءه جاهلاً بما يُكلّف هذا الإمضاء من نفقات مالية كبيرة على بيت المال، ووصل الأمر به إلى حدّ الاعتداء على أموال الدَّولة بالسلب والنهب والسرقة، وجعل ما نهبه مدفوناً تحت الأرض في أماكن منيعة لا يصل إليها أحدٌ غيره. وتجاوزت أفعاله القبيحة ذلك حتى بات يُفكر في الانقلاب على الخليفة، وتغيير نظام الحُكم.

وكما تحدّث الشعراء عن خيانة الوزراء لخلفائهم، أشار بعضهم بالمثل عن غلبة كثير من هؤلاء الوزراء على إرادة الخليفة وعقله، حتى بات كثير من الخلفاء أُلعوبة بيد الوزراء الظلمة الذين استعدوا على بعض من الخلفاء بعد أن ضمنوا إطلاق أيديهم في تدبير الشؤون العامة، يقول بشار بن برد في هجاء يعقوب بن دواد، وزير المهدي[٣]:

يا أيُّها النَّاسُ قد ضاعت خِلافتكُم ... إنَّ الخليفةَ يَعقُوبُ بنَ دوادِ

---

(١) ابن المعتز، أبو العباس، عبد الله بن المعتز العباسيّ (ت ٢٩٦هـ)، ديوان ابن المعتز، شرحه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ج٢، ص٤٣٩.

(٢) الجوائز غير جائزة: أراد إعطاء الهبات لغير مُستحقيها.

(٣) بشار بن برد، الديوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٨.

* موقف الشعراء من ظلم الوزراء وتعديهم.

كان ظلم الوزراء وطغيانهم على الرعية سبيلاً إلى تحريك قرائح الشعراء الذين وقفوا مواقفَ متباينة إزاء هذا الوضع السلبي القائم، فقد نهض بعض الشعراء يُهاجمهم ويكشف مساوئهم ويحرض عليهم، ويدعو الخليفة إلى عزلهم وعقابهم، يقول أبو نواس مخاطباً الخليفة هارون الرشيد في شأن الوزير جعفر بن يحيى البرمكي[١]:

ألا قُـــــلّ لأمـــــينِ اللّـــــــــــ ـــــــهِ وابـــــن القـــــادةِ السّاســـــةْ
إذا مـــــــا ناكـــــــث ســـــــرّ ك أن تُفقـــــــــــدَهُ راســـــــــــهْ
فـــــــلا تَقْتلـــــــهُ بالسَّـــــــيفِ وزَوجّـــــــــــه بعبّاســـــــــــهْ

يشيرُ أبو نواس في أبياته إلى حادثة زواج الوزير جعفر البرمكي سرّاً بالعبّاسة، أُخت الرشيد، وما كان من افتضاح هذا السّر، وغضب الخليفة على وزيره، وفي ظلّ هذه الحادثة أخذ أبو نواس يُؤلّب الخليفة على الإيقاع بالوزير الناكث الذي استغل علاقته المتينة بالخليفة وعدا على محارمه دون علمه.

وفي قُبالة التحريض الصريح، دعا بعض الشعراء إلى التَّصبّر والتحمّل حتى تأتي الدائرة عليهم كما أتت على الوزراء الظلمة الذي كانوا قبلهم، يقول أبو نواس في هجاء أُسرة البرامكة، أصحاب الوزارة في زمن الخليفة الرشيد[٢]:

هـــــذا زمـــــانُ القُـــــرودِ فاخْضَـــــعْ وكُـــــنْ لَهـــــمْ سَـــــامعاً مُطيعـــــاً
كـــــأنَّهم قـــــد أتـــــى علـــــيهمْ مـــــا غـــــالَ يعقـــــوب والرَّبيعـــــا[٣]

يبدو أبو نواس في هذه البيتين شديد الضيق بزمانه الذي تولى فيه البرامكة الذين ظلموا الرعية ولم يُحسنوا التدبير، ويصف زمان دولتهم بأنه "زمن القرود"، وهو وصف يحمل في طياته كثيراً من المعاني السّلبية. ويتحوّل أبو نواس داعياً إلى الصّبر والاستسلام والتحمّل، متأملاً أن يحلّ بالبرامكة من المصائب والنكبات ما حلّ بمن سبقهم من وزراء الدولة العباسيّة، ويضرب مثالين بارزين على ذلك أحدهما ما أصاب الربيع بن يونس وزير المنصور، وما لحق يعقوب بن دواد وزير المهدي، إذ أدى طغيانهما وتعديهما إلى مصير سيءٍ نالهما.

---

(١) أبو نواس، الديوان، مصدر سابق، ص٥٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٥١٩.

(٣) يعقوب: يعقوب بن دواد وزير المهدي، والربيع: الربيع بن يونس وزير المنصور.

ويلاحظ الباحث أن الشُّعراء واجهوا الوزراء بالأهاجي القوية والمقذعة والساخرة، وهم في مناصبهم، وأثبتوا جرأة عالية وشجاعةً في القول، ولكنهم زادوا من حدّة أهاجيهم بعد عزل الوزراء ونكبتهم وقتلهم، وعبروا عما تكنه الرعية من الكُره والبغضاء والعداوة لهؤلاء الوزراء الظلمة الذين اقتصّ الله منهم؛ بسبب سوء أعمالهم، وتجرأهم على الشرع، وظلم الرعية، وأكل حقوقهم، والتعدي على حرمات الله، يقول مروان بن أبي الجنوب بمناسبة تعذيب الوزير محمد بن عبد الملك الزَّيَّات وحرقه في التَّنور الذي كان يُعذب الناس فيه قبل ذلك(١):

وقيـــلَ لـــي: الزَّيَّـــاتُ لاقـــى حِمامَـــهُ فقلـــتُ: أتـــاني اللهُ بـــالفتحِ والنَّصـــرِ
لقـــد حَفَـــرَ الزَّيَّـــاتُ بالغَـــدرِ حُفْـــرةً فألقـــاه فيـــه مـــا نَـــواهُ مِـــنَ الغَـــدْرِ

تختلط في هذين البيتين مشاعر الشماتة والفرح، فالشاعر يبدو شامتاً بالوزير والمصير المفجع الذي انتهى إليه، ولكنه يبدو فرحاً مسروراً تغمره السعادة بهذا الخبر على مأساويته، بل يعد الشاعر هذا الخبر فتحاً ونصراً من الله ساقه إلى الشاعر ليفرح قلبه بنهاية الوزير الظالم الجبار، ويُظهر الشاعر في البيت الثاني شيئاً من التعقل بعدما أظهر الشماتة، فيرى أنَّ المصير الذي انتهى إليه الوزير الظالم كان قد رسمه بيده، فقد عُذّب بالتنور الذي كان يُعذب الخلق فيه، وبالطريقة نفسها، فكان جزاؤه من جنس عمله، كما يُقال.

وبمناسبة نكبة الوزير الفضل بن مروان على يدِ الخليفة المعتصم، نظم بعضُ الشعراء مقطوعات يُظهرون فيها التشفي بما حلّ بالوزير الظالم، يقول أحدُ الشعراء وقد كتب هذه الأبيات على حائط دار الفضل(٢):

تَفرّعنـــتَ يا "فَضْـــلَ بـــنَ مَـــروانَ" فاعْتبـــر فمثْلُكَ كان "الفضلُ" و"الفضـــلُ" و"الفضـــلُ"(٣)
ثلاثـــةُ أمْـــلاكٍ مَضَـــوا لِسَـــبيلهم أبـــادهم التَّنكيـــلُ والحَـــبسُ والقتـــلُ
وإنّـــك قـــد أصْـــبحتَ فـــي النَّـــاسِ لَعنـــةً سَـــتُودي كمـــا أوْدى الثلاثـــةُ مِـــنْ قبـــلُ

يُضيف الشاعرُ الوزيرَ الفضلَ بن مروان إلى ثلاثة وزراء عباسيين كابدوا النكبة؛ بسبب ظلمهم وعلوهم وتجبرهم، ولعلّ لفظ "تفرعنت" الذي استهل به الشاعر يدل على مدى طغيان الفضل بن مروان حتى كأنما هو يقوم بأعمال فرعون الذي هو رمز الغلو والطُّغيان والكفر، ويتوقع الشاعر – بناءً على ذلك – أن يكون مصير الفضل بن مروان كمصير الثلاثة الوزراء الذين شابهوه في الاسم والرُّتبة والفعل والنهاية، وهو الهلاك المُحتم.

---

(١) الخطيب، البغدادي، تاريخ بغداد، مصدر سابق، ج١٣، ص١٥٣.

(٢) البيهقي، المحاسن والمساوئ، مصدر سابق، ص٥٩٢.

(٣) أراد ثلاثة وزراء عباسيين هم: الفضل بن الربيع، والفضل بن يحيى، والفضل بن سهل.

ويتحدّث شاعر آخر عن جانب من آثار الفضل بن مروان السيئة، فمن ذلك تعمده إذلال كُرماء الناس ومُعاملتهم بالإهانة والتَّحقير، وردّهم خائبين، ومن ذلك اتهامه شرفاء الناس زوراً وكذباً وبُهتاناً من غير وجلّ، ومن ذلك إظهاره الخيانة للخليفة والرعية وتعديه بالظلم والجور، يقول[1]:

يـــا فَضْـــلُ لا تجـــزَعنْ ممّـــا ابتُليـــتَ بـــه
مَـــنْ خاصـــمَ الـــدَّهرَ أجثـــاهُ علـــى الرُّكـــبِ
كَـــمْ مِـــنْ كَـــريمٍ نَشـــأ فـــي بيـــتِ مَكْرُمـــةٍ
أتـــــاكَ مُخْتَنقـــــاً بـــــالهمِّ والكُـــــرَبِ
أوْلَيتـــــهُ مِنْـــــك إذْلالاً ومَنْقَصَـــــةً
فَخـــاب مِنْـــك، ومِـــنْ ذِي العَـــرشِ لـــم يَخـــبِ
وكَـــمْ وَثَبـــتَ علـــى قَـــومٍ ذَوي شَـــرفٍ،
فمـــا تَلَعثمـــتَ عَـــنْ زُورٍ وعَـــنْ كَـــذبِ
خُنـــتَ الإمـــامَ وهـــذا الخَلْـــقَ قاطبـــةً،
وجُـــرْتَ حتـــى أتـــى المَقـــدورُ فـــي الكُتُـــبِ
جَمعـــتَ شَـــتَى وقـــد أدّيْتهـــا جُمَـــلاً،
لأنـــتَ أخســـرُ مـــن حَمّالـــةِ الحَطَـــبِ

لقد أظهر الفضلُ بن مروان من سُوء الفعال ولؤم الطباع وفساد الأخلاق ما أوجب تعجيل العقوبة له في الدُّنيا، وكان ذلك قَدراً مُقدّراً في علمِ الله وقضائه، ويُلاحظ أنّ الشاعر كان يتوجّه بالخطابِ المباشر للوزير المهجو الذي لقي مغبة أعماله السيئة، وصار إلى المذلة والخسران. ويستدعي الشاعر في بيته الأخير صورة امرأة أبي لهب التي كانت تؤذي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلقيت من الخسران في الدنيا، والخزي والعذاب يوم القيامة، ويجعل الشاعر الوزير الظالم الطاغوت أشدّ خسارة من أُم لهب حمالة الحطب.

ويعبر شاعر آخر عن أقصى درجات الشماتة بالوزير المقتول الذي غادر الدنيا غير مأسوف على فراقه، حتى إنّه لم يجد مَنْ يبكي عليه ويندبه؛ لكراهية الناس الشديدة له وتمنيهم وفاته، فقد مَنَعَ خير الدُّنيا عنهم، وفارقها ظالماً جبّاراً، ويدعو الشاعر – أخيراً – عليه بالويل والثُّبور والمصير إلى الجحيم؛ جزاءَ ظُلمه وجَوره وتَعديه.

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٩٢.

وبمُناسبة عزلِ الوزير أبي الصقر إسماعيل بن بلبل، قال الشاعر أحمد بن أبي فنن مُتشفياً[١]:

قِفْ يا أبا الصَّقرِ فكمْ طائرٍ ... خَرَّ صَريعاً بَعْدَ تَحْليقِ
زُوْجتَ نُعمى لم تَكُنْ كُفأها ... قَضَى لها اللهُ بِتَطليقِ
وكُلُّ نُعمى غيرِ مَشْكورةٍ ... رَهْنُ زوالٍ بعد تَمحيقِ
لا قُدِّستْ نُعمى تَسَرّبلتَها ... كَمْ حُجّةٍ فيها لِزنديقِ

يتحدّث الشاعرُ في هذه الأبيات عن النعمة التي أُعطيها الوزير أبي الصقر، ويُشبه ذلك بزواجِ غير الكفء، وهو زواج محكوم عليه بالنهاية الفاشلة، أيّ الطلاق، وكذلك كانت وزارة أبي الصقر التي انتهت بالعزل، وهو طلاقٌ من الوزارة، ويرى الشاعر أن النهاية التي وصل إليها الوزير المعزول كانت مُتوقعة؛ لأنّ المبدأ العام أن النعم تدوم وتثمر بالشكر، وإذا قوبلت النعمة بغير الشكر كان مصيرها أن تُمحق وتزول، وكذلك كانت وزارة أبي الصقر التي لم يشكر أبو الصقر فضلها، فسلبها الله منه.

وفي البيت الأخير، ينقد الشاعر وزارة أبي الصقر التي علا فيها شأن الزنادقة وأعداء الإسلام، وعوداً إلى البيت الأول، يرى القارئ كيف يشمت الشاعر بالوزير المعزول، مصوراً إياه بالطائر الذي طار وحلق وارتفع، ثم اختل في طيرانه فخَّر ساقطاً على الأرض، وهذا حال أبي الصقر الذي خرّ صريعاً بعد تحليقه عالياً.

وفي المناسبة نفسها، يقول ابن الرُّومي مُتشفياً بغضب الخليفة على الوزير أبي الصقر وعزله عن الوزارة ونكبته[٢]:

غَضِبتْ لي السَّماءُ والأرضُ والنَّا ... سُ على ابنِ اللَّبُّونِ إسماعيلِ
ولمَّا أسْخَطَ السَّماءَ مع الأر ... ضِ مع النَّاسِ غيرُ سُخطِ الجليلِ
أنكرَ اللهُ أن يُرى مثلُ مَدحي ... في أبي الفَقْرِ وهو غيرُ مُنيلِ
فَرماه بِكَوكبٍ هَاشِميٍّ ... كان أدْهى له من السِّجِّيلِ[٣]
ولقد كان ما استطاع ولكن ... جُعل الكيدُ منهُ في تَضْليلِ

---

(١) السامرائي، يونس أحمد، شعراء عباسيون: محمد بن وهيب الحميري وأحمد بن أبي فنن ويزيد المهلبي وإبراهيم بن المُدبّر، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٦٥- ١٦٦، وتُنسب لابن الرومي، انظر: ديوانه، مصدر سابق، ج٤، ص١٦٣٤- ١٦٣٥، ١٧٠٤.

(٢) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٥، ص١٩١٨.

(٣) السِّجيل: الطين المتحجر الصلب كالحجارة.

سَـــالَ ذاك النَّجيـــعُ مـــن ذلـــك العـــــ ـــــبدِ ودمـــعُ الباكيـــه كُـــلَّ مَســـيلِ[١]
وليُطِـــلْ مُعْـــولٌ عليـــه عَـــويلاً إنّـــه فـــي لَظًـــى طَويـــلِ العَويـــلِ[٢]
لا ســـقى اللهُ جِسْـــمَهُ مِـــنَ حَيـــا المُـــز نِ، ولا رُوحَـــهُ مـــن السَّلســـبيلِ[٣]

يُظهر ابن الرومي في أبياته مدى تشفيه بنكبة الوزير ومقتله على يد الخليفة المعتضد، وذلك سنة ٢٧٨هـ[٤]، مُشيراً إلى ما لقي الشاعر من ظُلم هذا الوزير، مُصوراً أنَّ السماء والأرض والخلق كلهم غضبوا على الوزير الظالم الذي أسخط الله بظلمه وجَوره، واقتصّ للشاعر الذي ساق مدحه إلى الوزير البخيل (أبي الفقر)، فقابل ذلك بالحرمان من العطاء الذي كان الشاعر يرنو إليه.

وإزاء ظُلم الوزير وتعديه وعدم معرفة أقدار أهل الأدب، رماه الله بالمصيبة العظيمة التي رُمي بها كما رُمي أصحاب الفيل البغاة بالسّجيل، وكان مصيرهم الهلاك والبوار، وفي هذا المقطع يبدو الشاعر مُتأثراً بالقرآن الكريم تأثراً واضحاً، فهو يستقي من ظلال سورة "الفيل"؛ ليصور المصير الذي انتهى إليه الوزير بسبب ظلمه.

ويشير الشاعر في البيت السادس إلى مقتل الوزير، وما تبع ذلك من سيلان دمائه، واصفاً إياه بالعبد. ويختم أبياته بالتشفي الشديد، قائلاً ليبكِ على أبي الصقر مَنْ يبكي، وليصرخ عليه من يرغب بالصُّراخ، فهو فيها يتقلب في حرّ جهنم. ويقفل الشاعر بالدعاء عليه ألا يسقي الله جسمه من ماء السماء، ولا روحه من سلسبيل الجنة ومائها العذب الزُّلال. ويبدو واضحاً أن الشاعر يتلاعب بالألفاظ، فهو يكني الوزير "بأبي الفقر"، مُحوراً في كنيته الأصلية "أبي الصقر".

ولم يقف حدّ التشفي عند نكبة الوزراء بعزلهم من مناصبهم، وإنما تجاوزه في بعض الأحيان إلى التشفي بما ينزل بهم من مصائب وحوادث أُخرى، غير العزل، كفقد الأبناء و الآباء، ومُصادرة الأموال، وسرقة الثروات، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الرومي يهجو الوزير أبا القاسم المُرجَّى[٥]:

قُـــلْ لأبـــي القاســـم المُرَجَّـــى: قَابلـــكَ الـــدَّهرُ بالعَجائـــبْ

---

(١) النجيع: دمّ الجوف.

(٢) العويل: البكاء على الميت، واللظى: حرّ النار.

(٣) الحيا: ماء المطر، والمزن: السُّحب المحملة بالمطر.

(٤) انظر: الذهبي، شمس الدِّين، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج١٣، ص٢٠٠.

(٥) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ص٣٥١- ٣٥٢.

مَـــاتَ لـــك ابـــنٌ، وكـــان زَيْنـــاً وعـــاشَ ذُو الـــنَّقص والمَثالـــبْ[١]
حَيـــاةُ هـــذا كمـــوتِ هـــذا فَلســـتَ تَخلُـــو مـــن المصـــائبْ

يُخاطب الشاعر الوزير أبا القاسم بصورةٍ مُباشرة، مُتحدثاً عما لقيه هذا الوزير من مصائب ونوازل لم تخلُ من العبرة والعجب، ومن ذلك ما حكمه القضاء النافذ على هذا الوزير بموت ابنٍ صالحٍ له، وبقاء ابنٍ طالحٍ له، فرحل الزينُ وبقي الشَّينُ، وكلتا الحالتين مصيبة عظيمة في نظر الشاعر، فوفاة ابنه مصيبة وبقاء ابنه الآخر مصيبة أُخرى، وعلى ذلك، فإن المصائبَ ستظل مُستمرةً على الوزير.

* نقد مثالب الوزراء الأُخرى.

يختم الباحث هذا الفصل من هجاء الوزراء بالحديث عن طائفة من المثالب التي أخذها الشعراء على هذه الفئة من رجال الدولة، فقد هاجموهم بمثالب كثيرة كان الهدفان السياسيّ والذاتي واضحين فيها، فقد عابوا عليهم بخلهم وتقتيرهم وعدم توسيعهم على طالبي العطاء من أهل الأدب، ولما كان الوزراء هم المسؤولين عن أموال الدّولة، المتحكمين في نفقاتها العامة والخاصة، فقد أمّل الشعراء المتكسبون فيهم كثيراً، وعلقوا الآمال على العطاء الذي كان متوقعاً أن يُنعم به الوزراء على فئة المتأدبين الذين يقدمون مدائحهم وينتظرون المكافأة الجزيلة.

والحق أن عدداً كبيراً من الوزراء العباسيين خيبوا آمالَ الشعراء فيهم، فلم يبذلوا لهم من العطايا والمنح والمكافآت، وكثيراً ما كان الوزراء يأمرون حُجابهم بمنع الشعراء من الدخول عليهم؛ لعلمهم بطلباتهم المالية مُسبقاً، وقد أوجد هذا السلوك ردّة فعل عنيفة من بعض الشعراء، فقاموا يطعنون على الوزراء، ويرمونهم بالبخل وقبض اليد وعدم رعاية حقوق أهل الأدب وإتباع داء المماطلة والتسويف الكاذب.

لقد مرّ العديد من الشعراء العباسيين بهذه التجربة الخائبة، ورُدّوا دون أن ينالهم شيء من الرفد والعطاء المتوقعين، فمن ذلك ما وجده الشاعر أبو نواس من بُخل الوزير جعفر بن يحيى البرمكي وشدّة منعه، يقول في هجائه[٢]:

وأعظـــمُ زَهْـــواً من ذُبـــابٍ علـــى ..... وأبْخـــلُ من كَلْـــبٍ عَقُـــورٍ على عَـــرقِ[٣]
أرى جَعْفـــراً يَـــزْداد بُخـــلاً ودِقّـــةً إذا زادهُ الـــرحمنُ فـــي سَـــعةِ الـــرِّزقِ
ولو جـــاء غيـــرُ البُخـــلِ من عنـــد جَعْفـــرٍ لمـــا حَسِـــبته النَّـــاسُ إلا مـــن الحُمـــقِ

---

(١) المثالب: العيوب.

(٢) أبو نواس، الديوان، مصدر سابق، ص٥١٩.

(٣) العقور: الكلب الذي يعض صاحب ويغدر به، والعرق: العظم نُزع عنه اللحم.

يرسم الشاعر في هذه الأبيات صُورة منفرة لبخل الوزير الذي منع الشاعر من العطاء، فهو يُصوره بالذباب الساقط على الفضلات القذرة التي يُخرجها الإنسان، كما يصوره بالكلب العقور الذي ظفر بعظمة نُزع اللحم عنها، فهو بخيل بها لا يسمح لغيره من الكلاب مشاركته فيها.

والملاحظ أنَّ الصورة الأُولى ليس فيها ما يدعو إلى العجب والفخر، ومع ذلك، فإن الذباب يشعر بنشوةٍ عارمة، رُغم أن الصورة في مجملها كريهة، ومنفرة، ونفس الشيء يقال عن الصورة الأُخرى، فليس في العظمة التي نالها الكلب ما يُوجب الحرصَ عليها والتباخل بها.

وبعد هذا التصوير المُنفر للوزير البخيل، يظهر الشاعر في البيت الثاني الحقيقة القاسية التي اكتشفها في الوزير، وهي حقيقة تناقض ما يجب أن يكون عليه المنطق السليم، فالوزير يزداد بخله ازدياداً طردياً مع ازدياد النعم والأرزاق عليه، وهذا خلاف المتوقع، إذ كان المتوقع أن يُقابل الوزير ما وسعه الله عليه من الأرزاق بالكرم والجود والإنفاق، ويصل الشاعر – أخيراً – إلى تأكيد أن بخل الوزير نابع من لؤمه، لا من حُمقه.

ومن شعرهم في هجاء الوزراء بالبخل، ما قاله ابنُ الرُّومي في هجاء الوزير أبي الصقر إسماعيل بن بلبل الذي وعد الشاعر ومطله، ثم لم يعطه شيئاً، يقول[١]:

يَـــا عَجبـــاً لَـــيْسَ لأنْ ردّنـــي ... مِـــنْ بَعْـــدِ إيمـــاضٍ وتَبْريـــق
ولا لأن أخلفنـــي وَعْـــدَهُ ... لكـــن لإيمـــاني وتَصْـــديقي
أعجـــبْ بمثلـــي سَـــائلاً مِثلَـــهُ ... مهـــرَ اســـته ذاتِ الأفـــاويق
بحقّـــه المســـكين لـــم يُعطنـــي ... غيـــرَ الهَـــواهِي والمَخـــارِيق[٢]

يُظهر الشاعر في هذه الأبيات عُجبه من الوزير الذي وعد الشاعر ثم أخلف وعده، مبيناً أن هذا الوزير لم يبرّ بوعده، ولم يقدّم للشاعر سوى المواعيد الكاذبة، فكأنه البرق الخُلّب الذي لم يجلب المطر معه.

ويمضي الشاعر بعد هذا المقطع في تسفيه الوزير والإشارة إلى ماضيه المخزي الذي يحول بينه وبين اكتساب المحامد ببذل المال لمن يمدحه من الشعراء، مبيناً أنَّ لؤم هذا الوزير مانع له من الإغداق على الشعراء الذين أكرموه بالمديح، فقابل ذلك بالمنع وعدم العطاء[٣]:

مـــا كـــان مَـــنْ كـــان يَبيـــعُ ..... مِـــنْ ..... بالـــدَّوانيق[١]

---

(١) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص١٧٠٢.

(٢) المخاريق: الأكاذيب والترهات.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٧٠٢.

مُشْـــــترياً حَمْـــــداً بمـــــا جَمّعـــــتْ كَفّـــــاهُ مِـــــنْ تلـــــك التَّفـــــاريق
لَـــمْ يَجمـــع المـــالَ ببـــذلٍ ..... مِـــنْ فِـــرقٍ شَـــتّى، وتَفْريـــق
اللهُ صَـــــديقي فـــــي ذَمّـــــهِ بـــــل لُؤمُـــــهُ المشـــــهورُ صَـــــديقي

ويلوم الشاعر بعد ذلك نفسه حين عقد آماله على الوزير، وتوجّه إليه بطلب العطاء، مبيناً أنَّ الغرور والجهل والحماقة ساقته إلى الوزير الذي لا يرعى حقاً، ولا يعرف حُرمةً لأحد، ولذا باء طلب الشاعر بالفشل، ولم يبل الوزير البخيل ريقَهُ، يقول[٢]:

مـــا كُنـــتُ أهْـــلاً حِـــينَ أمّلتُـــه إلا لتجهيـــــــــلٍ وتَحْميـــــــــق
بـــأيِّ حَـــقٍّ لـــي أو حُرْمـــةٍ أملـــــتُ أن يُبْلعنـــــيَ رِيْقـــــي

وفي مقطوعةٍ أُخرى، يكشف ابنُ الرومي عن حقيقة التناقض في سلوك الوزير أبي الصقر الوغد، فهو جواد بخيل في آن معاً، فهو يجود بعرضه ويتيح للناس قذفه ورميه بالشنيعة والعار، وهذا دليل على سوء عِرقه وأصله، وهو في المقابل بخيل بماله، بل إنه يبخل بأقل القليل، ويتوصل الشاعر إلى الحقيقة الناصعة لهذا التناقض وهي أن وضاعة أصل المهجو ورداءة آبائه جرّته إلى صون ماله وبذل عرضه، يقول[٣]:

يَجُـــودُ بِعرضـــهِ للشـــتم عَفْـــواً ويَبْخَـــلُ بالقُلامَـــةِ والخُلالَـــهْ[٤]
وللأوغـــادِ أمْـــوالٌ تَراهـــا مَصُـــوناتٍ بـــأعراضٍ مُذالـــهْ[٥]
ولـــم يَـــكُ مَـــنْ نَمـــاهُ أبٌ كَـــريمٌ ليبـــذُلَ عِرضَـــهُ ويَصُـــونُ مالـــهْ

وشدّد الشاعر عليّ بن بسّام على صفة البخل التي اشتهر بها عددٌ من الوزراء العباسيين المُعاصرين له، من ذلك قوله في الوزير صاعد بن مخلد[٦]:

سَـــجدنا للقُـــرودِ رَجـــاءَ دُنيـــا حَوَتهـــا دُوننـــا أيـــدي القُـــرودِ
فَمـــا نالـــت أناملُنـــا بشـــيءٍ عملنـــا ســـوى ذُلِّ السُّـــجودِ

---

(١) الدوانيق: أسداس الدّراهم.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٧٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٠٣٩.

(٤) القلامة: ما قُطع به بقية الظفر، والخُلالة: ما يبقى من أُصول سعف النخيل من التمر.

(٥) مذالة: مُباحة غير مصونة.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص٣٠١.

لقد تقرّب الشاعر من الوزراء المُشبهين بالقرود أملاً في المال الذي بين أيديهم، وصوّر هذا التقرب منهم بالسُّجود لهم؛ لشدّة الخضوع والتذلل لهم في سبيل تحصيل عطائهم، بيد أن هذا التذلل لم يفد، ولم ينل الشاعر سوى أن تعلم ذُلّ السُّجود، وفاته تحصيل العطاء الذي كان مأمولاً.

وفضلاً عن البخل، أخذ الشعراء على الوزراء بطرهم وغرورهم وشعورهم بالفرح والزهو المفضي إلى كُفران النَّعمة، يقول ابنُ الرومي في هجاء الوزير أبي الصقر إسماعيل بن بلبل[١]:

وأنـــتَ أيضـــاً بطـــرتَ إذ وردت ... عَليـــكَ دُنيـــا وشَـــيكةَ الصَّـــدَرِ
فاصبر ستُجزى بمـــا بطـــرتَ مـــن السْـــ ... ـــــوءِ كمـــا جُزيـــتُ بـــالخَورِ

يُشير الشاعر في هذين البيتين إلى تمادي الوزير أبي الصقر وغروره وتعاليه، فقد انفتحت له أبواب الدُّنيا، وأقبل عليها مُغتراً بشهواتها وملذاتها، ونسي بسبب غروره أنَّ الدنيا لا تبقى، وأنّ بهجتها سرعان ما تنقضي وتزول. ويدعو الشاعر الوزير إلى التَّصبر قليلاً حتى ينال جزاء بطره وغروره، وهو جزاء السُّوء بلا شكّ، فكما جُزي الشاعر بالخيبة والفشل، سيجزي الوزير ببطره وغروره.

وإضافة إلى التعالي والغرور، أخذ الشعراء على بعض الوزراء تظاهرهم بالعلم والمعرفة الكاذبين، كما في وصف الشاعر ابن الرومي الوزير أبا الصقر بالحكيم والفيلسوف على سبيل السخرية والتهكم، قاصداً إلى المعنى المناقض، يقول[٢]:

واســـــوأتا للحكـــــيمِ هِمتُـــــهُ ... إشـــباعُهُ بنتَـــه مـــن الكَمَـــرِ
....
يـــا أيّهـــا الفيلســـوف ذا الحكـــمِ الـــ ... ـــــجمّةِ ممـــا روى ذُوو الفِكَـــرِ
هـــل حكمـــةٌ أن قفـــلَ كفّـــكَ لا ... يُفْـــتحُ لا بمِفَـــتْحِ العُـــذَرِ؟!

ويمضي ابن الرومي إلى رمي الوزير بالجهل والحماقة والنوك، ويبدو هذا المعنى متلائماً مع المعنى السابق، يقول[٣]:

يُتعـــب جُلاسَـــهُ ويُنصـــبهم ... نَوْكـــاً فيـــودِي بكُـــلِّ مُصـــطبرِ[٤]

---

(١) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٥٨.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٠٦٠.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٠٦٢.
(٤) النوك: الحمق، ويُودي: يهلك.

وهكذا، يبدو واضحاً أن جهل الوزير يُؤذي أصحابه ومَنْ يكون معه في مجلسه، حتى يشعروا بالتعب والإعياء من تمادي الوزير بجهله وحُمقه، فيفقد الصابرون صبرهم، ولا يبق عندهم ما يدعو إلى تحمل رقاعة الوزير الأحمق.

ونلاحظ أخيراً أن الشعراء العباسيين تسللوا في أهاجيهم إلى أسماء الوزراء وكناهم واتخاذهم وسيلة إلى هجائهم على سبيل السُّخرية، وقد برع ابن الرومي المشهور بأهاجيه، في إتباع هذه الطريقة التهكمية، فقد عبث طويلاً باسم الوزير أبي الصقر إسماعيل بن بلبل وكنيته، وأبدى استغرابه من الجمع بين اسم "بلبل"، وهو طائر صغير ضعيف رشيق حسن الصوت، وكُنية "أبي الصَّقر"، وهو طائر كاسر من الجوارح، يقول[١]:

أبـــوه "بلبـــلٌ" ضـــاوٍ ويُكنـــى "أبـــا صَـــقْرٍ" فَكُنْيتُـــهُ مُحالـــهْ

ويقولُ في مقطوعة أُخرى[٢]:

أنـــى يكـــونُ "أبـــا الصَّقـــ ـــرِ" مـــن أبـــوه "بلبـــلُ"؟
نَســـبٌ يُنـــاقضُ كُنيـــةً مـــا مثـــل ذا بـــك يَجْمُـــلُ

ولجأ ابنُ الرومي في بعض قصائده إلى استبدال كُنية الوزير أبي الصقر بما يتلائم مع بخله، فجعله "أبا الفقر"، يقول[٣]:

أنكـــرُ اللهُ أن يُـــرى مثـــلُ مـــدحي فـــي أبـــي الفقـــرِ وهـــو غيـــرُ مُنيـــلِ

ومن شعرِ ابن الرومي في هذا الاتجاه، قوله يهجو الوزير ابن الفرات[٤]:

هَبْـــكَ الفُـــراتَ الـــذي بـــالرُّومِ مَطْلَعُـــهُ ألـــيسَ والدِّجلـــة العَـــوراءُ تَقْطعـــةُ؟
مَنْ أنـــتَ يـــا مَـــنْ أبـــوه نِصْـــفَ ســـاقيةٍ مـــن يـــا شِـــكوتي وكيـــفَ الأرضُ تُرضـــعهُ؟
أمـــا رَضِـــيتَ بـــأن تَحْظـــى بِبَيْـــدرةٍ مـــن كُـــوخٍ مصـــلحةٍ بـــالفَلْس تَدرعـــهُ
حتَّـــى وليـــتَ رِقـــابَ النَّـــاسِ كُلِّهُـــم مَـــنْ شِـــئتَ تَخْفضـــهُ مـــنهم وتَرفعـــهُ

واضح للعيان أن الشاعر لم يجد في اسم الفرات – في حدّ ذاته – ما يعيبه، فلجأ إلى الحديث عن المقابل لهذا الاسم، وهو نهر الفرات، فهو على عظمته ونبعه من بلاد الروم، أيّ تركيا، واختراقه بلاد الشام والعراق، فإن هيبته تتضاءل أمام نهر دجلة الذي يقف في طريقه ويقطع تدفقه وجريانه.

---

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٠٣٩.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٠٣٩.
(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص١٩١٨.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٥٤٩.

ولذا، فإن الشاعر يرى أن الوزير حمل اسماً أكبر منه، وهو ابن الفرات، رُغم أنّ والده لم يكن ساقية حتى يكون نهراً عظيماً كالفرات، وقد جرّ هذا الاسم الكبير صاحبه إلى توسيع نظرته، فلم يعد قانعاً بالقليل حتى نال الكثير، فصار وزيراً مُتحكماً في رقاب الخلق، يرفع هذا ويضع هذا، ويعطي هذا، ويمنع ذاك.

ويصل الباحث في خاتمة هذا الفصل إلى تأكيد أهمية ما قاله الشعراء العباسيون في هجاء وزرائهم، رُغم ما يظهر في شعرهم من مُبالغة وفحش وإسفاف وتزيّد، فهذا الشعر يُعبّر عن درجة السُّخط العام الذي ساد الأوساط الاجتماعية من تصرفات الوزراء وسلوكاتهم وظلمهم وتعديهم وسوء طباعهم وعدم كفايتهم السياسية والإدارية لتسلّم هذا المنصب القيادي المُهم في الدولة، صحيح أنَّ العوامل الشخصية تدخلت في هذا الهجاء، ولكن هذا التدخل كان محكوماً بفساد الوزراء أنفسهم الذين نال الشعراء منهم الشيء الكثير، فكان طبيعياً أن يمتزج الشعر الذي قيل في هجاء هذا الطائفة بالمحركات الذاتية للشعراء أنفسهم.

الفصـــل الثالث : هِجـاءُ الـــولاةِ والقـــــادة

* **بواعث هجاء الولاة والقادة.**
* **موقف الشعراء من تنصيب الولاة والقادة.**
* **معانـي هجاء الولاة والقادة.**
* **موقف الشُّعراء من نكبات الولاة والقادة.**

* بواعث هجاء الولاة والقادة.

شكل الولاة والقادة العباسيون طبقة مهمة من طبقات رجال الحكم والإدارة في الدَّولة العباسيّة، فقد اتخذت الدولة ولاة كثيرين كانوا يديرون شؤون ولايات الدَّولة الكثيرة، وكان الوالي ينوب عن الخليفة أو الوزير في تسير المهام الموكولة إليه، وكان هؤلاء الولاة على تماسٍ بالرَّعية، ولا سيّما في الولايات البعيدة التي يصعب على أهلها الوصول إلى بلاطات الخلفاء أو الوزراء الذين كانوا يقيمون في بغداد أو سامراء، مما جعل الناس يقصدون قصور هؤلاء الولاة في ولاياتهم، أملاً في حلّ قضاياهم أو سماع شكاياتهم أو إجابة طلباتهم.

كان الشعراء العباسيون الذين يعيشون في ولايات الدّولة على علاقة بهؤلاء الولاة والقادة، فقد توجّه الشعراء إلى هؤلاء بمدائحهم، وأثنوا على كريم سجاياهم وحُسن سياستهم، ونالوا مكافآت مجزية بسبب ذلك، بيد أن العديد من الشعراء وقفوا من الولاة والقادة موقفاً مغايراً، فقد راح هؤلاء الشعراء ينقدون ولاة السوء، ويرسمون صُورة سلبية لما أظهروه من الظلم والخيانة وإخلاف الوعد والجهل، ونقدوا سيرهم السابقة، وعارضوا وصول الولاة غير الأكفاء إلى هذه المناصب المهمة، وناشدوا الخليفة أن يعزل كُلَّ من لم تثبت كفايتهم لتسلّم منصب الولاية، وهكذا، كان الباعث السياسيّ يحرك الشعراء لانتقاد الولاة الذين لم يكونوا أهلاً للإدارة.

ولم يرق لكثير من الشعراء السلوكات السلبية التي بدرت من الولاة والقادة، فبسطوا ألسنتهم في هجائهم، فقد كان الشعراء يعقدون آمالاً عريضة على كرم الولاة والقادة وعطائهم، فقد حدث أن خصَّ الشعراء الكثير من الولاة والقادة بالمدائح، ولكن المدائح لم تُحقق للشعراء ما كان مأمولاً من العطاء الفياض، بل إن بعض الولاة والقادة أهملوا هذه المدائح وتجاهلوا أصحابها، مما دفع هؤلاء إلى مقابلة هذا التنكر بالهجاء، يقول دعبل الخزاعي هاجياً أبا نصير بن حُميد الطوسي[١]:

أبـــا نُصـــيرٍ تَحلْحَـــلْ عـــن مجالسِـــنِا ... فـــإنَّ فِيـــكَ لِمـــنْ جَـــاراكَ مُنْتَقَصـــا
أنتَ الحمـــارُ حَرونـــاً إن رَفقـــتَ بـــه ... وإن قَصـــدتَ إلـــى مَعْروفِـــه قَمصَـــا
إنـــيّ هَزرتُـــكَ لا آلـــوك مُجْتهـــداً ... ول كُنتَ ســـيفاً ولكنـــي هَـــزرتُ عَصـــا

يبدو الشاعر في هذه المقطوعة آسفاً على ما بذل من مدائح في القائد الطوسيّ؛ كون هذه المدائح باءت بالفشل، ولم تُثمر، ويُشبّه الشاعر بالحمار الذي ينحرف عن مساره، إذ رفع الشاعر من شأنه، وأعلى قدره حين كان يحسبه سيفاً صقيلاً، ولكنه اكتشف بعد فشل المدحة أن ممدوحه لم يكن أكثر من عصًى لا جدوى منها.

---

[١] دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢١٥- ٢١٦.

وكثيراً ما أبدى الشعراء ضيقهم من سلوك الاحتجاب الذي أظهره بعض الولاة والقادة، إذ تركوا الشعراء بالباب وتركوهم يُريقون ماء الوجه، ولم يأذنوا له بالدخول، وهذا ما جرى مع دعبل الخزاعي الذي قصد باب مالك بن طوق، فحجب، فقال الشاعر متوعداً مالكاً بالهجاء والذمّ[١]:

لَعمـــــرِي لـــــئن حَجَبتنـــــي العَبيـــــدُ ... لمـــــا حَجَبـــــتْ دُونـــــك القافيـــــةْ
سَـــــأرمي بهـــــا مِـــــنْ وراءِ الحجـــــابِ ... شَـــــنعاءَ تأتيـــــكَ بالدَّاهيـــــةْ
تُصِـــــمُّ السَّـــــميعَ، وتُعمـــــي البصـــــيرَ ... ويُســـــال مِـــــنْ مِثْلِهـــــا العافيـــــةْ

ونظر بعضُ الشعراء إلى بعض مناصب الولايات نظرة سلبيّة؛ نظراً لطبيعة المنصب وما يمكن أن يُسبب من ضرر للرعية، فقد عاب كشاجم الرملي ولاية البريد، ورأى أنَّها ولاية سوء، ليس لواليها همّ سوى السعاية والوشاية والكذب، فهي ولاية لا تحمل سوى الشرّ، يقول هاجياً صاحب البريد ومهامه[٢]:

لا حَبّـــــذا البريـــــدُ مِـــــنْ وِلايـــــةْ ... لَيســـــتْ لمـــــن يَعْلَمُـــــهُ رِعايـــــةْ
هِمّتُـــــهُ الإغـــــراءُ والسِّـــــعاية ... وكَـــــذِبٌ جـــــاوز فيـــــه الغايـــــةْ
وَحظُـــــــهُ ولَفْظُـــــــهُ سِـــــــعايةْ

وفي بعض الأحيان كان الطموح السياسيّ يحرك موقف الشعراء من الولاة والقادة مدحاً أو ذماً، فقد استطاع المتنبي أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة في فنّ المدح لدى الخلفاء والأمراء والولاة، واستطاع أن يمثل موقفاً مشابهاً في فنِّ الهجاء، حين تحوّل موقفه من بعض ممدوحيه، فكانت مدائحه بمثابة دعاية سياسيّة ترفع شأن هؤلاء الممدوحين، وعلى النقيض منها كانت تلك القصائد الهجائية التي سيطر عليها فيها رغبته في الانتقام لنفسه، ولتكن أسوأ دعاية سياسيّة بعد أن عرض مثالب من كانوا محلاً لصنعه وهجومه[٣].

وفي هذه السبيل، كثرت أهاجي المتنبي في الولاة، ولا سيما في كافور الإخشيدي، والي مصر، الذي وعد الشاعر بولاية ثم أخلف وعده، مما جعل الشاعر يصبُّ جام غضبه على هذا

---

(١) المصدر نفسه، ص٣١٣.

(٢) كشاجم، الديوان، مصدر سابق، ص٤١٦.

(٣) التطاوي، عبد الله، القصيدة العباسيّة: قضايا واتجاهات، مكتبة غريب، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٥٧.

الوالي الذي خيب آمال الشاعر وطموحاته السياسيّة، ولعل قصيدته الدالية التي قالها بمناسبة عزمه على مغادرة مصر قبيل العيد، وفيها يقول موجهاً ذمّه إلى كافور[١]:

عِيدٌ بأيةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ ... بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ؟
....
إنِّي نزلتُ بكذّابين ضَيْفُهُمُ ... عن القِرى وعن التِّرحال مَحْدودُ[٢]
جُودُ الرِّجال من الأيدي وجُودُهُمْ ... مِنَ اللِّسانِ فلا كانوا ولا الجودُ
ما يَقْبضُ الموتُ نَفْساً مِنْ نفوسِهمُ ... إلا وفي يدهِ مِنْ نَتْنِها عُودُ
من كُلِّ رِخْوٍ وكاءِ البطنِ مُنفتقٍ ... لا في الرِّجال ولا النِّسوان مَعْدودُ[٣]
أكُلَّما اغتالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ ... أو خانَهُ فَلَه في "مِصْر" تَمهيدُ
صَارَ الخَصِيُّ إمامَ الآبقينَ بِها ... فالحُرُّ مُسْتعبدٌ والعَبْدُ مَعْبودُ
نامت نواطيرُ "مِصْرٍ" عن ثَعالبها ... فقد بِشِمْنَ وما تفنى العناقِيدُ[٤]
العبدُ ليس لِحُرٍّ صالحٍ بأخٍ ... لو أنه في ثياب الحُرِّ مولودُ
لا تشترِ العبدَ إلا والعصا مَعَهُ ... إنّ العبيدَ لأنجاسٌ مَناكِيدُ

لقد أدرك المتنبي طبيعة الخديعة منذ حلّ بقومٍ، على حدّ تصويرهِ ديدنهم الخداع والكذب، فهم لا يجددون بشيءٍ لضيفهم إلا القول فحسب، ولذا راح يدعو عليهم بالفناء ويتمنى لجودهم المزعوم ألا يصير له ذكر بعد هذا... ثم ينكر الشاعر على كافور أن ينال الملك من سيده بعد تدبير قتله، كما يستنكر من أهل مصر صمتهم وسكوتهم على جرائم هذا العبد، فمن غير الطبيعي أن يترك السادة عبيدهم يعبثون بأموال الناس وأُمور حياتهم وآمالهم[٥].

ويرتفع نغم الهجاء ويتحول إلى صخب يحمل الكراهية لكافور حين يتحدث المتنبي عن العبيد، فيحقر شأنهم، ويبين موقفهم في الدّرك الأسفل بعيداً عن مستوى الأحرار في درجاتهم العُليا، وهو يرفض أن تصبح المساواة في المولد مبرراً للمساواة في الحياة، ذلك أن العبد والسيد، وإن تساويا في المولد، فإن طبيعة كل منهما تنتهي إلى الاختلاف الجوهري عن الآخر،

---

(١) المعري، أبو الحسن، (ت٤٩٩هـ)، معجز أحمد: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق: د. عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٤، ص١٦٨، ١٧١– ١٧٣.

(٢) القِرى: طعام الضيف.

(٣) رخو وكاء البطن مُنتفق: أي راقه رخو الشّرج.

(٤) النواطير: حرّاس الزروع.

(٥) التطاوي، عبد الله، القصيدة العباسية، مصدر سابق، ص١٦٢.

ذلك أن العبد لا تسيره إلا بالعصا؛ نظراً لما اعتاده من عيش محكوم بالذل والعبودية والعنف، بينما الحُرّ تكفيه الإشارة، وهنا يظهر الفارق جلياً بين النمطين[١].

وهكذا، يظهر بوضوح أن البواعث السياسية والشخصية اختلطت في تحريك ألسنة الشعراء لهجاء الولاة والقادة العباسيين.

* موقف الشُّعراء من تنصيب الولاة والقادة.

وقف الشعراء العباسيون موقفاً ناقداً من تنصيب بعض الولاة والقادة الضعفاء غير القادرين أو المؤهلين لتولي مناصب الدَّولة، فراحوا يسخرون من تقلبات الزَّمان التي رفعت هؤلاء إلى مناصب ليس لديهم من الكفاية والخبرة لتوليهم، وألبسوا أشعارهم ثوباً من الاستهجان تارةً، ومن الإنكار تارةً، ومن السخرية تارةً، ووجهوا سهام النقد إلى الدَّولة التي قلّدت غير الأكفاء، مما أدى إلى اضطراب الأُمور وضياع الحقوق وانقلاب الحقائق، ودعوا أولياء الأمر إلى ضرورة التدخل لتصويب الأُمور وإسقاط ولاية مَنْ لا يستحق من رجال الدولة، واختيار الأكفاء القادرين على النهوض بتبعات المنصب ونشر العدل بين أفراد الرّعية.

وقد بدت مواقف الشعراء المناهضة لتعيين الولاة غير الأكفاء قويةً، واشتدّت قوتها وتصاعدت وتيرتها مع استمرار مسلسل تعيين الولاة وعزلهم الذي استمر طيلة هذا العصر، وقد أثبت بعض الشعراء شجاعتهم في مواجهة الولاة والقادة الجُدد الذين لم يكونوا يستحقون المناصب التي تقلدوها، يقول الأسود بن عُمارة النوفليّ هاجياً محمد بن عبد الله بن كثير حين ولي المدينة المُنورة[٢]:

نَقمنـــاكَ شُـــرطياً، فأصْـــبحتَ قاضـــياً ... وصُـــرتَ أميـــراً، أبشـــري "قَحْطـــانُ"[٣]

أرَى نَـــــزَواتٍ بَيْـــــنهنَّ تَفـــــاوتٌ ... وللـــــدَّهرِ أحْـــــداثٌ وذا حَـــــدَثانُ[٤]

يُبدي الشاعر هنا موقفاً مضاداً لتعيين ابن كثير والياً على المدينة المنوّرة، والسبب في ذلك أن أهل المدينة جربوا هذا الوالي من قبل، حين تولى شرطة المدينة، ثم تولى قضاءها، فأظهر سوء السيرة وقبح المعاملة، مما جعل الناس ينقمون عليه، ولذا فهم – كما يعبر الشاعر –

---

(١) المصدر نفسه، ص١٦٢.

(٢) وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ)، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج١، ص٢٢٧– ٢٢٨.

(٣) ذكر قحطان؛ لأن كثير بن الصلت كان حليفاً لقريش، وهو من كندة.

(٤) نزوات: شرور وتحركات، وحدثان: نوائب الدّهر.

غير راضين عن ولايته، بل إن الشَّاعر يعدُّ هذه الولاية كارثة على أهل المدينة ومصيبة جرّها الدَّهرُ عليهم.

ويُعدُّ أبو نواس تعيين سليمان بن أبي سهل والياً على الزّاب علامةً من علامات القيامة، ويصوّر مجيء الوالي الجديد بظهور الدَّجَّال، ومن المعروف أن ظهوره يكون في آخر الزمان عندما تفسد الخليقة وتكثر الفتن ويعم الفساد، وكأنما أراد أبو نواس أن يصور مدى الفساد الذي جرّه تعيين ابن أبي سهل والياً على الزاب، إذ لم يكن هذا الرجل أهلا لشيءٍ، فضلاً من أن يصبح والياً يأمر وينهي، ويحيط به الحُجّاب والحراس والشرطة، ويكتب بين يديه الكُتّاب، يقول أبو نواس هاجياً الوالي الجديد[١]:

سِـــيرُوا إلـــى أبْعَـــدِ مُنْتَـــابِ ... قَـــدْ ظَهَـــرَ الـــدَّجَّالُ "بـــالزَّابِ"[٢]
هـــذا "ابـــن نَيْبَخـــتٍ" لـــه إمـــرةٌ ... صَـــاحِبُ كُتّـــابٍ وحُجّـــابِ

إنّ وصف الوالي الجديد "بالدَّجال" يحمل في طياته الكثير من المعاني السَّلبية، ففيه دلالة على معنى الكذب والتمويه والشرّ والفساد والفتنة، و لعل الشاعر أراد أن يجمع هذه الصفات السلبيّة كلّها، فاختار لها وصف "الدّجال"، وهو اختيار مُوفق ينم عن موقف الشاعر المضاد لتعيين هذا الوالي الذي جلب تعيينه الشَّرَّ والسُّوء لولايته وأهلها.

ويوجّه دعبل الخزاعي رسالة ناقدة إلى خليفة المسلمين تحمل في طياتها الفحش والإقذاع، بسبب ما قام به هذا الخليفة من اختيار الحسن بن وهب والياً على البريد، رُغم أن هذا المنصب يعد من أخطر مناصب الدّولة؛ كونه يصون أسرار الخلافة ويحمل أخبارها، يقول دعبل[٣]:

مَـــنْ مُبلـــغٌ عَنَّـــي إمـــامَ الهُـــدى ... قافِيـــــةً للعـــــرضِ هَتّاكَـــــهْ؟
هَـــذا جَنـــاحُ المُسْـــلمين الـــذي ... قـــد قَصَّـــهُ تَوْلِيـــةُ الحَاكـــهْ[٤]
أضْـــحتَ بِغـــالُ البُـــردِ مَنْظومـــةً ... إلـــى "ابـــنِ وهـــبٍ" تَحمـــلُ .....! [٥]

---

(١) أبو نواس، الديوان، مصدر سابق، ص٥١٨.

(٢) منتاب: مكان، والزاب: منطقة قرب الموصل في العراق.

(٣) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٥٠، والثعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد (ت٤٢٩هـ)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٠هـ/ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٦٨.

(٤) جناح المسلمين: يُقال للبريد جناح المسلمين؛ لأن الأخبار تتطاير به، انظر: الثعالبي، ثمار القلوب، ص١٦٨.

(٥) البُرد: جمع بريد.

يُعرّضُ الشاعر في هذه الأبيات بالحسن بن وهب، ويشير إلى مهنته الحقيقة، وهي الحياكة، كما يشير إلى ماضيه الملئ بالخزي والعار، ويرى أن جناح المسلمين قد قُصّ حين تولى رئاسة البريد حائك ذو ماضٍ أسود.

وعندما ولي ابن أبي قُماش بعضَ أعمال البريد، هجاه البحتري هجاءً شديداً، ساخراً من هذا الوالي الذي جمع الغفلة والجهالة والغباوة، وغابت عنه أخبار داره وأهل بيته، ومع ذلك فقد ولته الدولة أعمال البريد التي يلزم أن يكون متوليها حازماً يقظاً عارفاً بدقائق الأخبار، لا يخفى عليه من شؤون البلاد والعباد[١]:

أرَى أخْبـــارَ بَيتـــكَ عَنْـــكَ تُطْـــوى فكيـــف وَلِيـــتَ أخْبـــارَ البريـــدِ؟!

وفي مقطوعة أُخرى له، يهجو البحتري ابن أبي قُماش حين أسندت إليه الدولة بعض الولايات، ويعد هذه الولاية أمارةً على هوان الزمان وسوء حاله ومُعاكسته ما يجب أن يكون؛ لأنها ولاية تقلّدها رجل لا يجمع شيئاً من مؤهلاتها اللازمة، فهو رجل موصوف بالجبن واللؤم والفسق، فضلاً عن مظهره القبيح، ومخبره السيء، وآرائه الساقطة[٢]:

ضَـــعَةٌ لِلزَّمـــانِ عِنْـــدي وعَكْـــسُ إذ تَـــولّى "بُزُرْجَسَـــابُور" جِـــبْسُ[٣]
شَخْصُـــهُ المُـــزْدَرَى، ومَخْبَـــرُهُ المشـــ ـــنوءِ قُبْحـــاً، ورأيُـــهُ المُســـتخسُّ[٤]

ويقف البحتري في قصيدة أُخرى له موقفاً مشابهاً من والي بريد ديار مُضر الذي كان في الأصل حجّاماً، يتعاطى مهنة حلاقة الشعر، ولم يكن مؤهلاً لتقلّد هذا المنصب الخطير، ونظراً لأنّه لم يكن أهلاً لهذا المنصب، فقد كان ينتظر قرار عزله في أي وقت ممكن، ولذا حفظ عدة الحجامة وأدوات الحلاقة من مشارط ومقصات وكؤوسٍ وأمواسٍ ومناديل، وحفظها في سَفَط؛ حتى يتمكن من الرجوع إلى أصل مهنته إذا ما طُرد من ولاية البريد التي تقلدها بغير وجه حقٍّ، يقول البحتريّ[٥]:

الآنَ أيْقنـــــتُ أنَّ الـــــرِّزقَ أقْســـــامُ لمـــا تَقلّـــدَ أمـــرَ البُـــردِ حَجّـــامُ[٦]

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٥٢١، وانظر: التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص١٨٤.

(٢) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص١١٦٤.

(٣) جبس: جبان ولئيم وفاسق وثقيل الروح، وبزرجسابور: من مناطق بغداد.

(٤) المشنوء: المُبغَّض.

(٥) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص٢١٣٥.

(٦) البُرد: جمع بريد.

صانَ القَــواريرَ خَــوفَ العَــزلِ فــي سَــفَطٍ فيــه مَشَــارِطُ لا تُحْصــى وأجْــلامُ[١]

ومن العجيب أن هذا الحجّام الذي تولى شُؤون البريد كان يحن دوماً إلى مهنته القديمة، إذ كان يدعو في بعض الأحيان غلاماً له، اسمه سوسن، إلى إحضار أدوات الحلاقة المحفوظة في السّفط؛ فيجعل يقلبها أمام الناس في مجلسه، ويتفقد المقصات والأمواس والمناديل، وتراه حينذاك مُسفر الوجه، طلق اللسان، يُجادل ويُحاجج، وأمّا إذا طُويت هذه الأدوات عنه، وأخذوها من بين يديه، فيسود وجهه ويتغير لونه، وتعلوه غبرة كأنه فحام قد تلطخ وجهه بآثار الفحم السوداء، يقول البحتري[٢]:

حتَّــى إذا خَــفَّ بالجُلّــاسِ مَجْلِسُــهُ ودارَ فيــه لَهُــمْ نَقــضٌ وإبــرامُ
نــادى "بَسْوسَــنَ": أن هــاتِ الأداة فمــا قَلَبتهــا لاتِّصــالِ الشُّــغلِ مُــذْ عــامُ[٣]
فَجــاءهُ بِتَقــاريضَ ومَرْهَفــةٍ من المواسِي لهــا فــي الحَلْــقِ إحكــامُ[٤]
مَصُــونةٍ فــي مَناديــلٍ مُطَيّــرةٍ قَــدْ زَانهــا حُسْــنُ تَطْريــزٍ وأعْــلامُ[٥]
فِعنــدَ ذلــك تُلْفيــهِ أخــا جَــدلٍ جَــمٍّ يَطــوفُ عليهــا الكــأسُ والجــامُ[٦]
ويَكْلَــفُ الوَجْــهُ منــه حِــينَ يَفْقِــدُها كأنَّــه لاربِــدادِ الوجــهِ فَحّــامُ[٧]

ويختم البحتري قصيدته الناقدة السّاخرة بجعل ولاية هذا الرجل مُصيبة منيت بها بلاد الشام، ولو أن الأرض أُتيح لها أن تبكي وتذرف دموعها، لبادرت أرض الشام إلى البكاءِ وإساله العبرات؛ حزناً على النائبة التي حلّت بها.

ويعبر الشاعر ابن الرومي عن موقفٍ مشابهٍ، فهو يبدو غير مستشبر بخير يأتي به والي بغداد الجديد سليمان بن عبد الله بن طاهر؛ لأن هذا الرجل – كما يصوره الشاعر – فاسد مُفسد، فاتك فاجر، منافق جبان، ظلوم غشوم، طاعٍ متكبر، لا يرحم ضعيفاً، ولا يرعى ذمة

---

(١) القوارير: كؤوس تُستعمل في الحجامة، والسّفط: وعاء كالصندوق الصغير، والأجلام: آلات يُقص بها.
(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٢١٣٥– ٢١٣٦.
(٣) سوسن: غلام المهجو.
(٤) تقاريض: كالمقاريض، والحلق: إزالة الشعر.
(٥) مُطيرة: مشقوقة، وزانها: زيّنها.
(٦) جم: وافر كبير، والجام: إناء كالكأس.
(٧) يكلّف: يتغير.

للرعية، يتظاهر بالشجاعة وهو ضعيف خائب، قد جرّبته الرعية حين كان والياً على طبرستان، فأفسد وأساء السيرة وترك البلاد ضائعة تعاني مما سبّب له إلى يوم القيامة، يقول[١]:

سُـــــليمانُ مَفَســـــدةُ المملكَـــــةْ ... فأهلكـــــــــه اللهُ واسْـــــــــتدْركَهْ
رعـــى "طبرســـتانَ" رعـــى المُضـــــ ... ـــــعِ، وهـــي إلـــى الحَشْـــرِ مُسْـــتهلكَهْ
ومـــا كـــان بَـــرّاً علـــى ضَـــعْفِهِ ... ولا فـــاجراً قبـــل، مـــا أفتكَـــهْ
هـــو الأســـدُ الـــوَردُ فـــي قَصْـــرِهِ ... ولكنّـــــه ثَعلـــــبُ المعركَـــــةْ
وأحســـبُ "فِرْعـــونَ" فـــي كُفْـــرِهِ ... و"هامـــانَ" مـــا سَـــلَكا مَسْـــلكَهْ

ويتحول الشاعر إلى مقطع آخر من قصيدته ليتحدث عن انتقال هذا الوالي الفاسد إلى بغداد، مبيناً أن هذا الرجل جاء إلى مدينة السلام، فظنها عروساً تُزف إليه، ففعل فيها الأفاعيل، وخوّف أهلها وروّعهم، وصوّر الشاعر هذا الخوف بالزلزال الرهيب الذي حرّك أركانها، ثم شجّع بعض الرّعاع على البطش بالرَّعية وإظهار أخلاق الصَّعلكة السّيئة، فكانت تدابيره على قصر مدته منذرة بخراب المدينة ولحاقها بما حلّ بطبرستان، لولا تدخل إدارة الله بلطفها، يقول ابن الرومي[٢]:

تَوَقّـــــع "لبغـــــدادَ" إذ سَاسَـــــها ... زِفافـــاً، فَقَـــد أصـــبحَتْ مُمْلكَـــهْ
سَـــــــيَتْبُعها "طَبَرســـــــتانها" ... تَصـــبَّر لـــذاكَ فَمـــا أوشـــكَهْ!
أتاهـــــا فَزلّـــــزلَ أرْكانَهـــــا ... وأشـــلى "ابـــنَ أوسٍ" علـــى الصَّـــعلكَه[٣]
وقَـــدْ كَـــادَ يَهـــوى بهـــا عَرْشُـــها، ... ولكـــن تَبـــاركَ مَـــنْ أمســـكَهْ

* معاني هجاء الولاة والقادة.

تعددت معاني شعر هجاء الولاة والقادة في هذا العصر، فقد كانت القصيدة أو المقطوعة تشتمل على عدد من المعاني السلبيّة التي سجلّها الشعراء، وأحياناً كان بعض الشعراء يركز مقطوعته في معنى واحد فقط، ومهما يكن، فإن تعدد هذه المعاني يدل على وفرة الشعر الذي قيل في هجاء الولاة والقادة وتعبيره عن جوانب عديدة.

---

(١) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٥، ص١٨٢١.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص١٨٢١– ١٨٢٢.
(٣) أشلى: دعا وحث.

- سوء معاملة الرَّعية.

لقيت الرعيةُ في هذا العصر من قسوة مُعاملة الولاة والقادة وسوء تصرفاتهم مما أثار ألسنة الشُّعراء، فنظموا القصائد والمقطوعات الهجائية التي تتحدث عن التجارب المؤلمة التي مرّت بها الرعية وأفرادها مع هذه الطائفة من رجال الدَّولة، ممن أساؤا إلى الناس بقسوتهم وسوء إدارتهم. وكثيراً ما اختلط الهجاء في مثل هذه الحالة بالشكوى، كما في القصيدة التي نظمها أبو العتاهية للسيدة زبيدة، زوج هارون الرشيد، تشكو للمأمون ما لقيت من هوان على يد قائده طاهر بن الحسين الخزاعي، إبّان الحرب الأهلية بين ابنها الأمين وأخيه المأمون، وفي هذه القصيدة الحزينة تمتزج معاني الشكوى بالهجاء، يقول الشاعر على لسان زبيدة[١]:

أتـــى طَـــاهرٌ، لا طَهّـــرَ اللهُ طَـــاهِراً ... فمـــا طَـــاهرٌ، فـــي فِعْلِـــهِ، بِمُطَهَّـــرِ
فـــأبْرزَني مَكْشُـــوفةَ الوجـــهِ حاسِـــراً ... وأنْهـــبَ أمْـــوالي وخَـــرَّبَ أدْوري
يَعِـــزُّ علـــى هَـــارونَ مـــا قَـــدْ لَقيتُـــهُ ... وما مَـــرَّ لي من نَاقِـــصِ الخُلـــقِ أعْـــورِ

تُركّز هذه الأبيات على إظهار التصرفات القبيحة التي اتخذها طاهر بن الحسين ضدّ السيدة زبيدة، والدة الأمين، إذ اعتدى على حرمتها، وأخرجها أمام الناس مكشوفة الوجه حاسرة الرأس، معتدياً على حشمة نقابها وحجابها، ولم يكتفِ بإهانة أُم الخليفة حتى تعدى على أموالها فانتهبها وسرقها، ثم أتبع هذه الفعلة النكراء بأن عاث تخريباً وتهديماً في منازلها، مما يعني أنّ اعتداءاته تعدّت كشف الحريم إلى الاعتداء على مُمتلكاتهن. وتنتهي الأبيات المنظومة على لسان زبيدة إلى إجمال ما تعرضت له من مهانة وهوان على يد القائد طاهر بن الحسين، مؤكدةً للخليفة المأمون أن الأذى الذي نالها لا يرتضيه والده الرشيد لو كان حياً، بل يَعِزَّ على الرشيد أن ينال أُمّ ولده ما لقيت على يد طاهر بن الحسين ذي الخَلق الناقص، في إشارةٍ إلى أنّه كان لا يرى إلاَّ بعين واحدة.

ويعرض الشَّاعر محمد بن حازم الباهليّ لتجربته الشخصيّة المريرة التي لقيها من عامل الخراج في مدينة تُسْتُر[٢] الذي ضيّق على الرَّعيّة وغَلّظ عليه وأرغمهم على أداء الأموال، يقول[٣]:

---

(١) أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم (ت ٢١١هـ)، ديوان أبي العتاهية، دار صادر، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٢٦، والأمين والمأمون، الديوان، مصدر سابق، ص٥٨.

(٢) تُسْتَر: مدينة بالأحواز جنوب غربي إيران.

(٣) الباهلي، محمد بن حازم (ت نحو ٢١٨هـ)، ديوان محمد حازم الباهلي، صنعة: شاكر العاشور، تموز للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، دمشق، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٤٩- ٥٠.

زَرَعْنـــا، فَلمّـــا سَـــلَّمَ اللهُ زَرْعَنـــا وأوْقـــى عليـــه مِنَّجَـــلٌ بِحَصـــادِ[١]
بُلينـــا بِكُـــوفيٍّ حَلِيـــفِ مَجاعَـــةٍ أضـــرَّ علينـــا مِـــنْ دَبـــا وجَـــرادِ[٢]
أتـــى مُســـتعدّاً مـــا يُكـــذَّبُ دُونَـــهُ وكَـــبَحَّ بإرغـــامٍ لـــه، وبِعـــادِ[٣]
فَطَـــوراً بإلحـــاحٍ علَـــيَّ وَغِلْظَـــةٍ وطَـــوراً بِخَـــبْطٍ دائـــمٍ، وفَسَـــادِ[٤]

يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى حال أهل تَسْتُر قبل أن يفد عليه والي الخراج، إذ قاموا بزراعة أراضيهم على أحسن وجّه ممكن، ومَنَّ الله عليهم بإتمامِ زروعهم حتى استوت على سوقها وحان موسم حصادها، ولكن النَّعمة لم تتم عليهم، إذ في هذه الأثناء جاء والي الخراج الكوفيّ ليضيق عليهم بعد أن وسعتهم رحمة الله. ويعدُّ الشاعر مجيء هذا الوالي بليةً ومُصيبةً ساقها القدر إليهم، إذ كان أضرَّ على زروعهم من الجراد الجرّار الذي يأكل الأخضر واليابس، كأنما هو آتٍ من مجاعة شديدة، ولذا عرّض أصحاب هذه الزروع للذل والإهانة، وأساء معاملتهم، وألزمهم أداء الخراج مُستعملاً وسائل غليظة، تبدأ بالإلحاح والتشديد على دفع الخراج، وتتدرج إلى استعمال الغلظة والقسوة، وصولاً إلى استعمال وسائل الضرب والتأديب، وكُلّها وسائل تدل على قسوته وجوره وسوء معاملته للرعية، وهو ما أوجب على الشاعر هجاءه وفضحّ صحيفته للناس.

ويسوق دعبل الخزاعي في معرض هجائه المطلب بن عبد الله الخزاعي، والي مصر، صُورة من سُوء سياسة هذا الوالي، إذ اتبّع سياسة قوامها إهانة أشراف الناس وتقديم الأراذل عليهم، وهي سياسة كادت تؤدي إلى اختلال التركيبة الاجتماعيّة، إذ علا صوت الوضعاء وتوارى صوت الصلحاء، بيد أن سياسته باءت بالفشل، فلم يشرف الأراذل، ولم يُصب الأشراف بالضرر، ولم ينل المطلب الخزاعي سوى الخزي والعار، في مصر والعراق، يقول الشاعر[٥]:

وَضـــعتَ رِجَـــالاً فمـــا ضَـــرَّهُمْ وشَـــرّفتَ قَومـــاً فلـــم يَنبلُـــوا
فـــأيُّهمُ الـــزَّينُ وَســـطَ المـــلا "عَطيّـــةٌ"؟ أم "صـــالحُ" الأحـــولُ؟
أم "الباذجـــانيُّ"؟ أم "عَـــامِرٌ"؟ أمـــينُ الحَمـــامِ التـــي تُزجَـــلُ
تعلـــقُ "مِصْـــرُ" بـــك المُخزيـــاتُ وتَبْصقُ في وَجْهـــكَ "الموصـــلُ"[٦]

---

(١) المنجل: أداة من حديد مُسننة تُستعمل لحصاد الزَّرع.

(٢) الدّبا: الجراد الصغير قبل أن يطير.

(٣) لجّ: تمادى، والإرغام: الإذلال والإهانة.

(٤) الخبط: الضّرب.

(٥) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٥٤.

(٦) سدوم: قرية قوم لوط عليه السلام التي عاقبها الله؛ لفعلهم المُنكرات.

ويستعرض البحتري في إحدى مقطوعاته تجربةً له مريرة مع ناظر الخراج بحلب، إذ كان هذا الناظر الظالم يُلزم الشاعر أداء خراج ضيعة له لم يكن له عائد منها، إذ كان الشاعر يمنح هذه الضيعة لبعض الناس البسطاء، فيقومون على خدمتها ويأخذون قبالة ذلك غلالها، ممّا يعني أن "الضيعة" لم تكن تُشكّل مورداً للشاعر حتى يلزم بدفع خراجها، يقول هاجياً النَّاظر[١]:

أعْجِبْ لِظُلْمِ زَمانِنا المُتواترِ ... ولأوَّلٍ مِمّا يُريكَ وآخرِ!!
تَاللهِ أُوخَذُ بالخراجِ وَضيْعَتي ... لَحمٌ يُطَرَّحُ في مَخالبِ طائرِ
ويُغلُّها قَومٌ وأُعْطي خَرْجها! ... حُكْمٌ – لَعمرِكَ – غيرُ عدلٍ ظاهر
صَلّ الإلهُ على "سَدُومَ" فلم يكنْ ... في جَنْبِ قِصَّتِنا "سَدُومُ" بجائرِ
أبْلِغْ "أبا العبّاسِ" حَيْثُ أحَلَّ من ... "حَلَبٍ" مَكانَ الغَيثِ فينا الماطِرِ:
أتَجورُ عن نَظَرٍ لنا مِنْ بَعْدِ ما ... سُمِّيتَ مِنْ نَظَرٍ لنا بالنَّاظرِ
ومَنَعْتني الإنصافَ مِنكَ، ولم تَكُن ... تَأباهُ في بَرٍّ ولا في فَاجرِ؟!

تُعبّر هذه المقطوعة عن مدى الظلم والعسف والإجحاف الذي فعله ناظر الخراج في مدينة حلب، إذ ضيق على الشاعر، وجار عليه في الحُكْم، ملزماً إياه بدفع ضرائب على أرضه التي لا يأتيه منها مردود، سوى أن قوماً يزرعونها ويجنون ثمارها من غير أن ينال الشاعر شيئاً منها. وهنا، يظهر الشاعر استنكاره لما يقوم به الناظر الجائر من أخذ جباية على أرض لا ينال صاحبها شيءٌ من محصولها، ويعد الشاعر هذا الإجراء مجانباً للعدل الذي يجدر بالناظر أن يقيمه في النّاس.

إن هذه التجربة القاسية التي تعرض لها الشاعر، جعلته يترحم على قرية سدوم وأهلها الظالمين من قوم لوط؛ لأنَّ فعائل هؤلاء لم تصل جوراً وظلماً إلى ما وصلت إليه فعائل الناظر الحلبي الجائر الذي ألزم الشاعر أداء ما لا يلزمه من الضرائب والأموال. وينتهي الشاعر في آخر مقطوعته إلى توجيه رسالة إلى هذا الناظر الذي أساء المعاملة بجوره وظلمه، وأن مقتضى تسميته بالناظر يعني أن ينظر في قضايا الناس بالعدل والإنصاف، لا بالجور والظلم.

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٩٤٥.

- الخيانة.

أظهر بعضُ الولاة والقادة العباسيين من مظاهر الخيانة والغدر ونقض العهود ما أثار قرائح الشعراء، وأخذوا يُعبّرون في أهاجيهم عن هذا المعنى، ويُواجهون هؤلاء الخونة بالذمّ والقدح والتجريح، جزاءَ ما ارتكبوه من أعمالٍ فاحشة تتناقض مع أمانة المناصب التي سوّلت لهم أنفسهم خيانتها بصورةٍ بشعةٍ. وقد اتخذت الخيانة في هذا العصر صوراً عديدةً، لعلَّ أبرزها: الخيانة العامة، وذلك بالانقلاب على سياسة الدولة، ومعاداة الخليفة، ومناصرة أعدائه، ومحاربة الإسلام، إضافة إلى خيانة أموال الدّولة والاستيلاء على شيءٍ من الموارد التي جُعلوا مسؤولين عنها وأُمناء عليها. وقد عَبّر الشعراء عن هاتين الصُّورتين من الخيانة، وجاءت قصائدهم ومقطوعاتهم لتحمل في طياتها وجهة نظرهم التي تتلائم – في الغالب – مع وجهة النَّظر العامة إلى هذا الموضوع.

ومن أمثلة الشعر الذي يُعبّر عن الصُّورة الأُولى من الخيانة ما قاله أبو دلامة الأسدي في هجاء أبي مُسلم الخراساني عندما تغيّر على الخليفة فأمر به فقُتل، يقول الشاعر[١]:

أبـــا مُجـــرمٍ مـــا غَيَّـــرَ اللهُ نِعْمَـــةٍ ... عَلـــى عَبْـــدِهِ حتّـــى يُغَيِّرهـــا العَبْـــدُ
أبـــا مُجـــرمٍ خَـــوَّفْتَنِي القَتْـــلَ فـــانْتَحى ... عَلَيـــكَ بما خَوّفْتَنِـــي الأســـــدُ الوَرْدُ
أفـــي دَولـــةِ المَهْـــديِّ حَاولـــتْ غَـــدْرةً ... ألا إنَّ أهْـــلَ الغَـــدْرِ آبـــاؤُكَ الكُـــردُ

فأبو مسلم الخراساني – كما يُصوره أبو دلامة – رجل مُجرم، بدّل نعمة الله، فسلب الله منه أثواب النعمة، وحاول أن يستعدي على الخلق بالقتل والإهلاك فأهلكه الله عزَّ وجلَّ، وسلّط عليه من ينتقم للضعفاء، ويبين الشاعر في آخر أبياته أن ما بدر من خيانة أبي مُسلم وغدره بالخليفة يبدو أمراً مُستغرباً، ولكن وجه الغرابة قد يزول إذا ما عُلم أنّ هذا الخُلقَ توارثه أبو مُسلم عن آبائه وأجداده غير العرب، إذ هُم قوم قد تأصلّت فيهم الأخلاق الرديئة، وفي مقدمتها خُلق الغدر والخيانة.

ومن ذلك ما قاله الخليفة الأمين يهجو القائد طاهر بن الحسين الخزاعيّ ويتهمه بنكثه العهود والمواثيق، يقول[٢]:

زَعَـــــمَ العَبْـــــدُ طـــــاهِرُ ... أنَّنـــــي اليـــــومَ غَـــــادِرُ
كَـــــذَبَ العَبْـــــدُ وهـــــو عَـــــنْ ... سُـــــبُلِ الرُّشـــــدِ جـــــائِرُ

---

(١) أبو دلامة، الديوان، مصدر سابق، ص٥١– ٥٢، وتنسب لبشار بن برد، انظر: ديوانه، مصدر سابق، ج٤، ص٤٣.

(٢) الأمين والمأمون، ديوان الأمين والمأمون، مصدر سابق، ص٢٣.

نَقَـــــضَ العَهْـــــدَ والـــــذي ... يَـــــنْقضُ العَهْـــــدَ كـــــافِرُ
مُظْهِـــــرٌ سُـــــوءَ فِعْلِـــــهِ ... مُلَعَّـــــنٌ لا يُسَـــــايَرُ
وعَليـــــه تـــــدُورُ بالـــــ ... ـــــبَغْيِ مِنْـــــهُ الـــــدَّوائِرُ

يحاول الخليفة الأمين الذي دخل في خلافات عميقة مع أخيه المأمون أن يدفع عن نفسه تهمة الخيانة التي وجهها إليه طاهر بن الحسين، أكبر قادة المأمون، فهو يبدأ واصفاً طاهراً "بالعبد"، وهو وصف يشتمل على معاني التحقير والاستهزاء والاستهانة، ثم يردُّ هذه التهمة الشَّنيعة إلى طاهر نفسه، ويصفه بالكذب والجور، وخيانة العهود ونقض المواثيق، وينسبه إلى الكفر، ويصبّ عليه اللعنات، مشيراً في آخر الأبيات إلى أن طاهر بن الحسين قد بغى وطغى وتجاوز كُلّ الحدود، وأنّ الدوائر ستدور عليه، وأنه سيلقى جزاء عمله ذلك.

ومن نماذج الخيانة العامّة ما أظهره القائدان العسكريان في زمن المعتصم، وهما المازيار بن قار، والأفشين، إذ أظهرا من الخيانة والغدر ونقض المواثيق ما أوجب إلقاء القبض عليهما وقتلهما، يقول محمد بن عبد الملك الزيّات في خيانة الأول[١]:

و"المازيـــــارُ" قَـــــدْ تَقَلَّـــــدَ غَـــــدْرةً ... قَطعَـــــتْ نِيـــــاطَ فُـــــؤادِهِ ووتينَـــــهُ[٢]
مِنْ بعـــدِ ما جَعَـــلَ الشَّـــواهـــقَ عِصْمَـــةً ... وصَياصـــــياً بِضَـــــلالِهِ يُغْرِينَـــــهُ[٣]
ظَنَّـــــاً بـــــأنَّ الغَـــــدْرَ يمنـــــعُ أهْلَـــــهُ ... كَـــــذِباً فكَـــــذَّبت الحُتـــــوفُ ظُنونَـــــهُ
غافَصْـــــتَهُ للنَّكـــــثِ يَمنـــــعُ أهْلَـــــهُ ... لِيُذِلَّـــــهُ ربِّـــــي بـــــه ويُهينَـــــهُ[٤]
وشَـــــحَنْتَ بالأُســـــدِ الخَـــــوادرِ بالقَنـــــا ... والمُرْهَفـــــاتِ شِـــــعابَهُ ورُعونَـــــهُ[٥]
أنِسَـــتْ جِيـــادُكَ صَـــعبَ مَرقـــى حِصْـــنِهِ ... وجِبالَهـــــا فَرْقَيْنهـــــا ورقينَـــــهُ

يصورُ الشاعر في هذا المقطع من قصيدته ما قام به المازيار من إظهار الغدر والخيانة، وتمنع في حصون منيعة وراء أسوار عاليات، واغترّ بنفسه وقوته، وظن أن الغدر يحميه، ولكن الخليفة وجّه إليه جيوشاً جرّارةً مشحونة بالسلاح والأبطال، فما زالوا حتى أوقعوا بالمازيار حيث حُمّل مكبلاً بالسلاسل إلى الخليفة، فأمر بقتله جزاء خيانته.

---

(١) الجبوري، يحيى، محمد بن عبد الملك الزيّات، مصدر سابق، ص٢٨٠.

(٢) نياط القلب: عرق غليظ عُلّق به القلب إلى الرئّتين، والوتين: عِرق القلب.

(٣) الشواهق: الأسوار العالية، والصياصي: الحصون.

(٤) غافصته: أخذته على حين غرّة.

(٥) الخوادر: الأُسود في عرصاتها، والقنا: الرماح، والمرهفات: السيوف، والرعون: جمع رعن وهو أنف يتقدّم الجبل.

ويشير الزيات في القصيدة نفسها إلى خيانة الأفشين الذي كان يُراسل المازيار ويكاتبه، وأقرّ بالكفر عُندما حُوكم، فأمر الخليفة بإلحاقه بالمازيار، يقول[١]:

مِــنْ بَعْــدِ ما بالكُفْــرِ بَكَّــتَ "خَيْذراً" وأبــانَ يُوضِــحُ مُفْصِحــاً مكنونَــهُ[٢]
وجمعــتَ كُــلَّ مُعــدَّلٍ وسَــألتَهُ نصّــاً ليوضــحَ كُفْــرِهِ ويُبينَــهُ[٣]
فــأقرَّ بــالكُفَّرِ المُبــينِ ولــم تُــردْ إلاَّ الإلــهَ ولــم تُــرد تَهْجِينَــهُ

كما نقلت بعض قصائد أبي تمام صورة خيانة الأفشين الذي طغى وبغى وتجبر وخان النعمة وكفرها، يقول[٤]:

يــا رُبَّ فِتنــةٍ أُمَّــه قَــدْ بزّهــا جَبّارهــا فــي طَاعــةِ الجبّــارِ
جالــت "بخيــذر" جولــةُ المقــدارِ فأهلــه الطُّغيــان دار بــوارِ[٥]
كَــمْ نِعْمــةٍ للهِ كانــت عِنْــدهُ فكأنَّهــا فــي غُربــةٍ وإســارِ
كُسَــيتْ ســبائبَ لُؤمــةٍ فَتضــاءلت كتضــاؤلِ الحسنــاءِ في الأطمــارِ[٦]
صــادى أميــرَ المُــؤمنينَ بِزَبْــرجٍ في طيّــه حُمَــة الشُّجاع الضّاري[٧]
مكــراً بنــى رُكنيــه، إلاَّ أنّــه وطّــدَ الأســاسَ على شفيــر هــارٍ[٨]
قــد خــصَّ أهــلَ النِّفــاقِ عِصــابة وهُــم أشــدّ أذى مــن الكُفَّــارِ
ما كان لولا فُحــشُ غــدرةِ "خَيــذر" ليكــون فــي الإسْــلامِ عَــامَ فُجــارِ

فالأفشين – كما يُصوره أبو تمام – رجل طاغٍ مُتجبّر، أوقد نار فتنة طائشة، استطاع الخليفة الجبار أن يتغلب عليها ويقضي على باعثيها، إذ دارت الدائرة على هذا القائد المُتمرد الذي أحله طغيانه دار الفناء، بعد أن كفر بنعم الله ودفعه لؤمه ومكره إلى نقض ما كان بينه وبين المُعتصم من عهد[٩]. وقد كادت الفتنة التي أشعلها الأفشين بسبب غدره وخيانته يتعاظم

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٨١.

(٢) خيذر: اسم الأفشين الذي اتهم بالكفر والزندقة.

(٣) المُعدّل: العدول، وهم من تولى مساءلة الأفشين عند محاكمته.

(٤) أبو تمام، الديوان، ص

(٥) بوار: هلاك.

(٦) سبائب: القطع المستطيلة، والأطمار: الملابس.

(٧) الزبرج: الغيم الملون لا ماء فيه، والشجاع: الأفعى.

(٨) شفير هارٍ: حرف منحدر متساقط.

(٩) التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص١٨٢.

خطرها وتكون حرب فجارٍ في الإسلام، وهو يربط هنا بين فتنة الأفشين وحرب الفُجّار التي كانت في "الجاهلية"؛ ليبين فداحة أفعال الخيانة وكفر النعمة التي قام بها هذا القائد الخائن.

وانتقالاً إلى الصُّورة الأُخرى من الخيانة القائمة على الاعتداء على أموال الدولة بالسرقة والنهب والسّلب، يجد الباحث عدداً من المقطوعات الهجائية التي عبّر فيها الشعراء عن هذا المعنى من معاني الهجاء السياسيّ، إذ راح هؤلاء الشعراء يعيبون على بعض الولاة والقادة ما ظهر من خيانتهم وسوء أمانتهم على الأموال التي وضعوا لحمايتها وصونها وتثميرها، فاعتدوا عليها، وكأنها أصبحت حقاً لهم، يقول حماد عجرد في هجاء غيلان بن المعذل، جدّ الشاعر عبد الصمد بن المعذل، الذي استُعمل ولياً على خراج البصرة، فظهرت منه خيانة، فعزله والي البصرة وألزمه أداء ما خانه، يقول حماد[١]:

ظَهَرَ الأميرُ عليكَ يا "غَيلانُ" إذ خُنتَهُ إنَّ الأميرَ مُعانُ
أمعَ الدَّمامة قد جَمعتَ خِيانةً قَبُحَ الدّميمُ الفاجرُ الخوّانُ

يُكاشف الشاعر والي الخراج مكاشفة صريحة، فهو يتهمه بخيانة الأموال التي جعل أميناً عليها، مبيناً أن هذه الخيانة ظهرت للأمير، واستطاع أن يكتشف أمرها، رُغم أن الخائن كان يتعمد إخفاءها. إنَّ الخيانة من المؤتمن أمر قبيح جدّاً، فكيف إذا كان الخائن أيضاً فاجراً، قد جمع فوق ذلك قبح الصُّورة ودمامة الهيئة، فعند ذلك تزداد الصُّورة قُبحاً، وهذا ما قرّره الشاعر بالنسبة لغيلان، إذ جمع خيانةً وفجوراً ودمامةً، فجاء مذموماً في خَلْقه وخُلُقه.

وفضلاً عن نموذج غيلان المتهم بخيانة الأموال، يُقدّم الشاعر محمد بن حازم الباهلي نموذج القائد محمد بن حُميد الذي أوفدته الدولةُ لجباية أموال وحرب قوم من الخوارج، فما كان منه إلا أن ترك الحرب وجمع الأموال وهرب بها، يقول الباهلي في هجائه[٢]:

تَشبّهَ بالأسدِ الثَّعلبُ فَغادَرَهُ مُعْنَقاً يُجْنَبُ[٣]
وحاول ما ليسَ في طَبْعِهِ فأسْلَمهُ النَّابُ والمَخْلَبُ
فلم تُغنِ منهُ أباطيلُهُ وَحاصَ، فَأحْرزهُ المهربُ[٤]
وكان مَضيّاً على غدرِهِ فَعُيِّبَ، والغادرُ الأخيبُ

---

(١) يارد، نازك سابا، حماد عجرد: شاعر عباسي: جمع ودراسة وتحقيق، دار الفكر العربي، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٦١.

(٢) الباهلي، الديوان، مصدر سابق، ص٣١- ٣٢.

(٣) المُعنق: الذي في عُنقه قلادة.

(٤) حاص: عدل وحاد.

أيـــا ابـــنَ حُميـــدٍ، كفـــرت النَّعيـــ ـــمَ جَهْـــلاً، ووَسْوســـكَ المَـــذهبُ[١]
ومَنتّـــك نَفْســـك مـــا لا يكـــونُ وبعـــضُ المُنـــى خُلَّـــبٌ يَكْـــذِبُ[٢]
ومَـــا زِلـــتَ تَسْـــعرُ علـــى مُـــنّعِمٍ ببغـــيٍّ، وتُنهـــي فـــلا تُعْتِـــبُ
فأصْـــبحتَ بـــالبغي مُسْـــتَبدِلاً رَشَـــاداً، وقـــد فـــاتَ مُسْـــتَعْتَبُ

تعرض هذه الأبيات صُورة الجبن والخيانة التي بدرت من القائد ابن حميد، إذ كان يتظاهر بالبطولة والشجاعة، ولكن سرعان ما انكشف هذا الكذب، إذ حاد عن ملاقاة العدو، وولى هارباً، بعدما أظهر من الغدر والخيانة وكفران النعمة ما أدى إلى خيبته وخروجه على الطاعة والرشاد، فظلم نفسه وظن أن الاماني الكاذبة قد تكون له عوضاً عما كان يعيش فيه من نعمة وأمن وسعة.

وأمّا النموذج الثالث الذي اختار الباحث الإشارة إليه فهو نموذج القائد والوالي عليّ بن يحيى الأرمنيّ الذي كان يتولى الصِّلات في ذلك العهد، فقد تعرّض البحتري لهذا الوالي بالهجاء، ورسم له صُورة إنسان مات قلبه، ومات جوده، ومات فضله، فهو في عِداد الموتى، وإن كان يعيش بين الأحياء، وتكتمل هذه الصورة في إطارها حين يُصوره الشاعر بالثور السمين الذي ينتظر سكين الجزار، ليلقى حتفه. وفي آخر المقطوعة، يوجّه إليه الشاعر تهمة السرقة والخيانة والجبن، إذ كان هذا الوالي – وهو من أُصولٍ نصرانية – يعدو على أنصبة المسلمين المجاهدين من الغنائم والأسلاب، فيأخذ لنفسه منها، رُغم أنّه لا نصيب له فيها، كونه لم يشهد القتال ولم يكن مع أهل الإسلام في حرب أهل الشرّك، يقول البحتري[٣]:

وأكثـــرتُ غِشْـــيانَ المقـــابرِ زائـــراً"
علـــيَّ بـــن يحيـــى" جـــارَ أهـــلِ المقـــابرِ
فـــإلا يكُـــنْ مَيْـــتَ الحُشاشـــةِ فـــي الـــذي
يُـــرى، فهـــو مَيْـــتُ الجُـــودِ، مَيْـــتُ المـــآثرِ
ولا فَضْـــلَ عنـــد "الأرمنـــيِّ" يَعـــدُّهُ
ســـوى أنّـــه ثَـــورٌ سَـــمينٌ لجـــازرِ
سَـــرقتَ ســـهامَ المُســـلمين ولـــم تكـــن
لَهـــم يَـــومَ زَحْـــفِ المُشـــركينِ بِحاضـــرِ

---

(١) المذهب: أراد الشيطان.

(٢) الخُلّب: البرق الكاذب لا ماء فيه.

(٣) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٨٩٦.

- إخلاف الوعد.

أمّل الشعراء العباسيون كثيراً في تحقق حاجاتهم ومطالبهم على أيدي الولاة والقادة، إذ كان هؤلاء يتصرفون بجزء كبير من واردات الدّولة وأموالها، وكان متوقعاً أن ينال الشعراء من هذه الأموال ما يبل عطشهم، ويدفع عنهم غوائل الفقر، بيد أن كثيراً من الولاة والقادة خيبوا آمال الشعراء وقابلوهم بإخلاف الوعد، وما يشتمل عليه هذا المعنى من الكذب والمطل والتسويف وإماتة الحقوق وإفشال الحاجات، مما ولّد – بالفعل – ردّة فعلٍ عنيفة لدى الشعراء الذي جابهوا هؤلاء الولاة والقادة المخلفين للوعود بالأهاجي التي تفضح سُلوكهم، وتكشف عن رداءة أخلاقهم السياسيّة والشخصيّة وسوء المعاملة التي تلقاها الرعية منهم.

لقد مرّ بعض الشعراء في هذا العصر بتجارب مؤلمة مع الولاة والقادة الذين وعدوهم ومنّوهم ثم قابلوا ذلك بالتنكر لهم، فمن ذلك أن والياً هاشمياً كان يتولى أعمالاً للمعتصم في بلاد الشام استدعى دعبلاً الخزاعي، ووعده بالكرامة والحفاوة والنوال، فقصده الشاعر متأملاً، فلم يتحقق حُسن الظن فيه، بل جفاه، ولم يُحسن وفادته، فقال دعبل يهجوه[١]:

دَلَّيتنـــي بِغُـــرورِ وَعْـــدِكَ فـــي ... مُـــتَلاطِمٍ مِـــنْ حَومـــةِ الغَـــرقِ[٢]
حتّـــى إذا شَـــمِتَ العـــدوُّ وقـــد ... شُـــهِرَ انتقاصُـــكَ شُـــهرَةَ البَلَـــقِ[٣]
أنشـــأت تَحْلِـــفُ أنَّ وُدَّكَ لـــي ... صـــافٍ وحَبْلُـــك غَيْـــرُ مُنْحـــذِقِ[٤]
وحَسِـــبتَني فَقْعـــاً بِقَرْقَـــرَةٍ ... فَـــوطئتَني وَطْئـــاً عَلَـــى حَنَـــقِ[٥]
ونَصَـــبتني عَلَمـــاً علـــى غَـــرَضٍ ... تَرْمينـــيَ الأعْـــداءُ بالحِـــدَقِ[٦]
وظننـــتَ أرضَ اللهِ ضَـــيِّقَةً ... عَنْـــي، وأرضُ الله لـــم تَضِـــقِ
مِـــنْ غَيـــرِ مـــا جُـــرمٍ ســـوى ثِقـــةٍ ... مِنِّـــي بِوَعْـــدِكَ، حـــين قُلْـــتَ: ثِـــقِ
ومـــودّةٍ تَحْنُـــو عَليـــكَ بهـــا ... نَفْســـي، بـــلا مَـــنٍّ ولا مَلَـــقِ[٧]

يستعرض دعبل في هذه الدورة من قصيدته بداية تجربته الفاشلة مع الوالي الهاشمي، وقد بدأ هذه التجربة بمبادرة من هذا الوالي الذي غرّر بالشاعر وغرّقه في بحرٍ متلاطمٍ من الآمال،

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٤١– ٢٤٣.

(٢) دلّى: أوقع بغرور، والمتلاطم: البحر الزَّخّار.

(٣) البَلَق: السواد والبياض من الألوان، وهو أميزها.

(٤) مُنحذق: مُنقطع.

(٥) الفقع: الكمأة البيضاء الرخوة تكون في الأرض، والقرقرة: الأرض المطمئنة، وحنق: غضب وشدّه غيظ.

(٦) علماً: إشارة، وغرض: هدف، والحدق: الأنظار.

(٧) المن: اتباع المعروف بالأذى، والملق: الكذب.

مما دفع الشاعر إلى الرحيل بنفسه عساه يظفر ببعض الوعود التي كانت تنتظره، بيد أنَّ الشاعر سرعان ما انكشفت أمام عينيه حقيقة الأكاذيب المزخرفة التي وعِدَ بها، إذ شعر بالمهانة والانتقاص، حتى عرف الخلق ذلك، فشمتت به أعداؤه أي شماتة، ورمقوه بأعينهم احتقاراً وتشفياً مما لقى من هوان، ولقي من الأذى النفسيّ شيئاً عظيماً، ليس لشيء إلا لأنه وثق بهذه الوعود التي أطلقها الوالي وذهبت أدراج الرّياح.

لقد غرق الشاعر في خضم الآمال الكاذبة والأماني المعسولة، ولم يُفق من غرقه إلا بعد أن تعرض لصدمة كبيرة، إذ لقي من الهوان وألوان العذابات على يد الوالي الهاشمي الذي وعده، رُغم أنه لم يقترف جرماً حتى يُعاقب عليه بهذا الشكل المهين. إنَّ ثقة الشاعر بالوالي لم تكن في محلّها، إذ سرعان ما تبيّن له الكذب وإخلاف الوعد، وأظهر الوالي من سوء المعاملة ما جعل الشاعر يرحل عنه مُنطلقاً في أرض الله الواسعة.

ويتابع الشاعر في الدورة الثانية من القصيدة نفسها هجاءه للوالي الذي أخلف وعوده، موجهاً اللوم الشديد إلى نفسه التي أمّلت في غير محل التأميل، ولكن الشاعر يستعيد في هذه الدورة توازنه مؤكداً لهذا الوالي، رغم ما لقي على يديه، أنّه عارف بالحياة وطرقها ومسالكها، وأن إغلاق طريق واحد منها لا يقف في وجه مسيرته، يقول[١]:

وَقَــفَ الإخــاءُ علــى شَــفَا جُــرفٍ ... هَــارٍ، فَبِعْــهُ بَيْعــةَ الخَلَــقِ[٢]
فَمتــى ســألتُكَ حاجــةً أبــداً ... فاشــدُدْ بهــا قُفْــلاً علــى غَلَــقِ
وأعــدَّ لــي غُــلاً وجَامِعــةً ... فــاجمع يــديَّ بهــا إلــى عُنقــي[٣]
ثُــمَّ ارمِ لــي فــي قَعْــرِ مُظلمــةٍ ... إن عــدتُ بعــدَ اليــومِ فــي الحُمــقِ[٤]
أعفِيــكَ ممّــا لا تُحــبُّ، ومــا ... سُــدّتْ علــيَّ مَــذاهبُ الأُفُــقِ
مَــا أطْــولَ الــدُّنيا وأعْرَضَــها ... وأدَّلنــي بِمَســالكِ الطُّــرقِ

يبدو أن الشاعر أخذ درساً قاسياً من هذه التجربة، ولذا رأى بتوجّه سؤاله إلى مهجوه بالكلام، داعياً إياه إلى اتخاذ أقصى ألوان العقوبة إن عاد إلى سؤاله وطلب حاجة منه، أن يقيده بالسلاسل في يديه ثم يجمعها إلى عُنقه، حتى لا يقوى على الحراك والهرب، ثم يسوقه إلى شفا بئر عميقة ويرميه فيها، حتى يموت على هذه الصُّورة المؤلمة؛ لأن الموت مهما كانت صُوره

---

(١) دعيل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٤٣.

(٢) شفا جرف هار: حرف مُنحدر متساقط، والخلق: البالي والقديم من الثياب.

(٣) الغُل: القيد، والجامعة: حديدة تجمع الأغلال إلى بعضها.

(٤) المظلمة: أراد بئراً عميقة لا ضوء يصل إلى قعرها.

هو أخف على نفس الشاعر من أن يطلب الرفد من والٍ كاذب مُخلف للوعد يتعمد إهانة السائل ومُلاقاته بما يجرح مشاعره وأحاسيسه.

وفي مقطوعة هجائية أخرى له، يُعبّر دعبل عن مدى العقبات والمصاعب التي يلقاها صاحب الحاجة قبل أن تُقضى حاجته من قبل والي خراسان غسان بن عبّاد الذي اتخذ المطل والتسويف عادة ثابتة له في قضاء حاجات السائلين، بل إن الشاعر ليجعل المصاعب الفادحة ووقوع المعجزات والخوارق أرجى إلى التحقق من قضاء هذه الحاجات، وهو تصوير يدلّ على أن الوالي المذكور كان مخلافاً للمواعيد، وكان إذا ما بدر منه وعد ظلّ يؤجل ويسوف ويؤخر حتى تُنسى الحاجة ويملّ صاحبها ولا يعود إلى الإلحاح في المطالبة، يقول الشاعر[١]:

لَنقـــلُ الرِّمـــال، وقَطْـــعُ الجهـــالِ وشُـــربِ البِحـــارِ التـــي تَصْـــطخبْ[٢]
وكَشْـــفُ الغطـــاءِ عـــن الجـــنِّ، أو صُـــعودُ السَّـــماء لمـــن يَرتغـــبْ
وإحْصـــاءُ لُـــؤْمِ "سـعيد" لنـــا أو الثُّكـــلُ فـــي ولَـــدٍ مُنتجَـــبْ[٣]
أخـــفُّ عَلـــى المـــرءِ مِـــنْ حاجـــةٍ يُكلِّـــفُ "غُسّـــانها" مُرْتَقِـــبْ

ويهجو البحتري الهيثم بن عبد الله بن المُعمَّر، والي الموصل، متهماً إياه بالمماطلة والمواعدة والإرجاء والتسويف، فرغم أن طالب النوال جاء ليحظى بما يبل ريقه، لكنه يُقابل بالمطل الشديد والتسويف الكاذب حتى يُضطر إلى الإنفاق من جيبه، بدلاً من أن يرجع وقد امتلأت هذه الجيب، فهو لا يكسب جراءَ مطالبته بالنوال، بل تناله بعض الخسارة المادية، يقول[٤]:

أمْ تَـــرى المطـــلَ مُبقيـــاَ لـــي فَضْـــلاً مِـــنْ نَـــوالٍ أنفقـــتُ مِنْـــهُ عَليـــهِ!!

ويُقابل الشاعر البحتري هذه التَّساؤل بفيض من التعجب لحالِ الوالي العباسي بن عمرو الغنوي – والي بلاد فارس – الذي أمات الحقوق وينّس أصحابها بطول المطل والتسويف، ويبين الشَّاعر أن وعودَ هذا الوالي لم تكن إلا تسويفاً زائفاً، وأن الآمال الكاذبة هي التي غررت بالشاعر وجعلته ينتظر النوال غير المأمول، يقول[٥]:

لَعَمـــرُكَ مـــا العَجَـــبُ العاجـــبُ سـوى غَنـــويٍّ لـــه حاجـــبُ!

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٢١– ١٢٢.

(٢) تصطخب: تتلاطم أمواجها.

(٣) مُنتجب: أي نجيب، وهو الذي يفضلُ أبناء جنسه ويعلو عليهم نباهةً.

(٤) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص٢٤٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٠.

ومَـــــوتِ الحُقـــــوقِ فـــــلا يـــــائسٌ يـــــردُّ غُلامـــــي، ولا رَاغـــــبُ
ولـــــولا "ابـــــن عَمْـــــروٍ" وتَسْـــــويفُهُ لمّـــــا غَرّنـــــي الأمـــــلُ الكـــــاذبُ!

وأمّا المتنبي، فقد جمع في شخص كافور الإخشيدي، والي مصر، كُلّ المخازي والمثالب، كالكذب وإخلاف الوعد والغدر والخِسة وسقوط الهمّة والجبن، حتى إذا لقيته لم يدرِ أهو إنسان، أم هو المخازي مجموعةً، يقول[١]:

أمَيْنَـــاً وإخْلافـــاً وغَـــدْراً وخِسّـــةً وجُبْنـــاً، أشخصـــاً لُحْـــتَ لـــي أمْ مَخازيـــا؟![٢]

وراح المتنبي في عدد من أهاجيه التي قالها في كافور يرسم صُورة لما جُبل عليه من إخلاف الوعد، ردّاً تأصل هذا الطبع فيه إلى عبوديته التي فُطمَ عليها، فالعبد – على ما يرى الشاعر– لا يتجاوز همه إلى فعل المكارم، و لذا فإنه لا يُنجز وعداً، فإذا وعد وعداً لم ينجزه، وإذا صار إلى يوم آخر نسى وعده بالأمس، وعلى ذلك، فإنَّ المتنبي يعبر عن يأسه من تحقق الوعد على يد كل عبدٍ أسود كافور بيع في أسواق النخاسة، يقول[٣]:

مَـــا مَـــنْ يـــرى أنَّـــك فـــي وَعْـــدِهِ كَمَـــنْ يَـــرى أنـــك فـــي حَبْســـهِ
العبـــــدُ لا تَفْضُـــــلُ أخلاقُـــــهُ عـــــن فَرْجـــــهِ المُـــــتنِ أو ضِرســـــهِ
لا يُنجـــزُ الميعـــادِ فـــي يَومِـــهِ ولا يعـــي مـــا قـــالَ فـــي أمســـهِ
فـــلا تُـــرّج الخيـــرَ عنـــد امـــرىءٍ مـــرّت يـــدُ النَّخـــاسِ فـــي رأســـهِ

---

(١) المعري، معجز أحمد، ج٤، ص٣٢.
(٢) المين: الكذب، والإخلاف: أي إخلاف الوعد.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٨٨– ٨٩.

- الاحتجاب.

لم يرق للشعراء في هذا العصر ما اتخذه الولاة والقادة من حُجّاب غلاظ كانوا يقفون على الأبواب، ليمنعوا أصحاب الحقوق والشكايات والحاجات من الدخول ومقابلة الولاة والقادة وعرض ما في نفوسهم وما جاءوا من أجله صحيح أن الحجابة أصبحت في هذا العصر مهنة إدارية مهمة لتنظيم أعمال الولاة وغيرهم من رجال الدولة، لكن الحجاب قاموا بدورٍ سلبي للغاية في ردّ كثيرٍ من الناسِ، بل أساؤوا المعاملة[١]، مما دفع الشعراء إلى هجاء هؤلاء الحُجّاب وتمزيقهم، كما لقي الولاة والقادة أنفسهم دوراً كافياً من الهجاء بسبب اتخاذهم هذه التدابير التي حالت بينهم وبين الرَّعية.

ولعله لا يخفي أن كثيراً من مسؤولي الدولة ورجالات الحكم العباسيّ كانوا لا يعبأون بما يجري خلف أبوابهم في الخارج، مُتخذين الشرطة والحُجّاب والحُرّاس الذين يحولون دون وصول الناس إليهم، مما دفع الشعراء في المُقابل إلى التركيز على معنى الاحتجاب في قصيدة الهجاء.

ويبين الشاعر محمود الورّاق في إحدى مقطوعاته أسباب احتجاب الولاة من وجهة نظره، فيقول[٢]:

إذا اعْتصمَ الوالي بإغْلاقِ بابهِ ... وردَّ ذَوي الحاجاتِ دُونَ حِجابهِ

ظَننتُ به إحدى ثلاثٍ ورُبمّا ... نَزَعتُ بظنٍّ واقعٍ بصوابهِ

فَقلتُ: به مَسٌّ من العِيِّ ظاهِرٌ، ... ففي إذنِهِ للنَّاسِ إظهارُ ما بهِ[٣]

فإن لم يكن عيّ اللِّسانِ فَغالبٌ ... من البُخلِ يَحْمي مالَهُ عن طِلابهِ

فإن لم يكن هذا ولا ذا فَرِيبةٌ ... يُصِرُّ عليها عندَ إغلاقِ بابهِ

وواضح أن الشاعر يُرشح ثلاثة أسباب تدعو الولاة إلى إغلاق أبوابهم في وجهة الرعية، فالأول أن يكون الوالي فاسد اللسان غير فصيح، فيغلق بابه لئلا يكتشف الناس فراغ نفسه من البيان العذب، والأول أن يكون الوالي بخيلاً، فيغلق بابه لئلا يجود فينقص ماله، والثاني أن يكون

---

(١) انظر: التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث، مصدر سابق، ص١٧٧.

(٢) الورّاق، الديوان، مصدر سابق، ص٦٧- ٦٨، والجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، رسائل الجاحظ، شرحها وقدم له: عبد الأمير مهنا، دار الحداثة، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٢، ص٢٣.

(٣) العِي: ضد الفصاحة واللسن.

الوالي غير سوي الأخلاق، عنده من الريبة ما عنده، فيغلق بابه لئلا يكتشف الناس رداءة سلوكه.

ويعيب الشاعر أبو عُيينة المهلبي هذا الإجراء الإداري الذي منع الأشراف من الدخول على ولاة الأمر، ويذم الدولة التي تعمل به، يقول[١]:

بُلغـــةٌ تَعجُـــبُ الفتـــى عـــن دَنـــاءةٍ وعِقـــابٌ يخـــافُ أو لا يخـــافُ[٢]
هُـــو خَيـــرٌ مـــن الرُّكـــوبِ إلـــى بـــا بِ حِجـــابٍ عُنوانُـــهُ الانصـــرافُ
يـــئسَ للدَّولـــةِ التـــي تُرفـــع السِّفـــ ـــلةُ فيهـــا وتَسْـــقطُ الأشـــرافُ

ينظر الشاعر المهلبي في هذه المقطوعة إلى نظام الحجابة نظرةً سلبية، مبيناً أن هذا النظام أساء إلى صورة الدولة العباسيّة، فأذلت الناس، وجعلتهم يُريقون ماء الوجه عند أبواب ولاة الأمر، ثم ينصرفون بالخيبة والفشل، ويرى أن هذا النظام رفع الأوباش والسِّفلة والأوغاد إلى منزلة عالية، فصاروا هم مَنْ يدخل ويخرج، وأما الأشراف فقد سقطت مكانتهم، ولم يعد له طريق إلى ولاة الأمر؛ لأنّ هؤلاء احتجبوا عنهم.

لقد كان للشعراء موقف واضح من احتجاب الولاة والقادة عن الناس، وقد ظهر هذا الموقف بوضوح في قصائد الهجاء ومقطوعاته، إذ عابوا احتجاب الولاة والقادة، وانتقدوا تشدّدهم في اتخاذ سلسلة من الحُجاب، بحيث لا يمكن لذوي الحاجات الوصول إلى الوالي، وقد صوّر دعبل الخزاعي كثافة الحجابة التي اتخذها الوالي غسّان بن عبّاد، فقال[٣]:

لَـــــهُ حاجِـــــبٌ دُونـــــهُ حاجِـــــبٌ وحاجـــــبُ حاجبـــــهِ مُحتجـــــبْ!!

ومن الشواهد على ما قاله الشعراء في هجاء الولاة المُحتجين ما قاله البحتري يهجو الوالي الهثيم بن عبد الله بن المُعمر والي الموصل[٤]:

مـــا لنـــا مـــن "أبـــي العُمَّـــر" إلاَّ بُعْـــدُهُ عـــن عُيونِنـــا واحْتجابُـــهْ
وأذمُّ الفِتْيـــانِ مَـــنْ بـــات يُلْقَـــى دُوننـــا سِـــترُهُ، ويُغْلَـــقُ بابُـــهْ
فَسَـــلُوهُ عـــن مـــادحٍ جَلَـــبَ العَلْـــ ـــيا إليـــه بأســـرها: مـــا ثوابُـــهْ؟

---

(١) الحاجظ، رسائل الجاحظ، مصدر سابق، ج٢، ص٥٠.

(٢) الدناءة: الخساسة.

(٣) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٢٢.

(٤) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٢٧٣.

يشير البحتري في هذه الأبيات إلى تشدد الوالي في اتخاذ الحُجّاب حتى انعزل عن الناس انعزالاً كاملاً، وأصبحوا لا يرونه ولا يُسمح لهم بمقابلته، وهذا السلوك من الوالي هو ما جعل الشاعر يذمه، ويهجوه؛ لأن الوالي مطلوب منه ألا يحبس نفسه وراء الأبواب عن رعيةٍ تنتظره لقضاء حاجاتهم وسماع شكاياتهم. ويدل الشاعر في آخر أبياته على السبب الرئيس وراء احتجاب هذا الوالي، فهو لبخله وشحه لا يفتح أبوابه للسائلين، ومنهم الشعراء المادحون، ولو أن شاعراً أجزل له في المدح وحقق له المجد والعليا والرفعة بين الناس، لما كافأه هذا الوالي؛ لشدّه بخله وشُحه.

لقد عانى البحتري من احتجاب هذا الوالي الموصلي، وكابد في الوصول إليه، ولازم الأبواب مدة طويلةً، بيد أنه لم يلق سوى سوء معاملة الحُجّاب الذين بدا العبوس والتجهم على وجوههم، ودلالة على ذلك، فإن الواحد منهم لا يُظهر لمن هم بالباب من أصحاب الحاجات سوى تقطيب الحاجبين، وهذا السلوك الجافي، إنما فعله الحُجّاب بتشجيع من الوالي الذي يقبع خلف الأبواب[١]:

أتـــرى "هثيمـــاً" يُطيـــقُ تَرَضِّـــيَ حاجـــبٍ جـــامعٍ لنـــا حَاجِبيـــهْ؟!

وإزاء ما لقيه الشعراء من جفاء وغلظة وذل ومهانة وهم يقفون محجوبين خلف الأبواب، أعلن كثير منهم انصرافهم عن الذل والمهانة وطول الانتظار؛ لأن نفوسهم لا تُطيق المهانة والذل، وراحوا وهم يعلنون موقفهم هذا يقدحون في الولاة الذين اتخذوا الحجّاب وأحاطوا أنفسهم بهالات فارغة، مستكثرين من الحجّاب، رُغم أن مناصب بعضهم لا تتطلب هذا الاستكثار، يقول الجاحظ أنشدني أبو منسى المكفوف[٢]:

لـــن تَرانـــي لَـــكَ العيـــونُ ببـــابِ لـــيسَ مِثْلـــي يُطيـــقُ ذُلّ الحِجـــابِ
يـــا أميـــراً علـــى جَريـــبٍ مـــن الأر ضِ لـــه تِسْـــعةٌ مـــن الحُجّـــاب[٣]
قاعـــداً فـــي الخـــربِ تُحْجَـــبُ عنّـــا مـــا سَـــمعنا إمـــارةً فـــي خـــرابِ

لقد أصبح اتخاذ الولاة عدداً من الحجاب يحيطون به ويمنعون الناس من الدخول عليه مظهراً زائفاً من مظاهر الأُبهة السُّلطانية، إذ كان بعض الولاة يتقلدون ولايات صغيرة وأعمالاً بسيطة لا تستدعي هذه المبالغة الفارغة.

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص٢٤٤٠.

(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، مصدر سابق، ج٢، ص٥١.

(٣) الجريب: قدر من الأرض غير كبير.

- الجهل.

وفضلاً عن المعاني السابقة، عاب الشعراء العباسيون على بعض الولاة والقادة ما كانوا عليه من جهل وقلّة فهم وعقل، ووصفوهم بالحمق والرقاعة وعدم العلم، ورأوا أنَّ هذه الصِّفات السّلبيّة تُشكل مدخلاً لذمِّ تلك الطائفة من ولاة الدولة وقوّادها. ويمكن للباحث أن يتخذ من قصيدة أبي العتاهية في هجاء القائد عبد الله بن معن بن زائد الشيباني مثالاً دالاً على قصائد الهجاء السياسي التي ركّزت على إظهار صفة الجهل في الولاة والقادة، يقول أبو العتاهية[١]:

لا تُكثـــروا، يـــا صـــاحبي رَحْلـــي ... فـــي شـــتمِ مَـــنْ أكثـــرَ مـــن عَـــذْلي[٢]
سُـبحانَ مَـنْ خـصّ "ابـن مَعـنٍ" بمـا ... أرى بـــه، مـــن قلّـــة العَقْـــلِ
قـــال "ابـــنُ مَعـــنٍ"، وجَـــلا نَفْسَـــهُ ... علـــى القَـــرابينِ مِـــنَ الأهْـــلِ: [٣]
أنـــا فتـــاةُ الحـــيّ مِـــنْ وائـــلٍ ... فـــي الشَّـــرفِ البـــاذخِ والنُّبـــلِ[٤]
مـا في "بنـي شيبـانَ"، أهـل الحِجـى، ... جاريـــــةٌ واحـــــدةٌ مِثلـــــي[٥]
يُكنـــى "أبـــا الفضـــل"، فيمـــا مَـــنْ رأى ... جاريـــــةً تكنـــــى "أبـــــا الفضـــــل"؟!
قُـــولا "لعبـــدِ الله": لا تَجهلـــنَّ ... وأنـــتَ رأس النُّـــوكِ والجَهـــلِ[٦]
تَبـــذلُ مـــا يمنـــعُ أهـــلُ النَّـــدى ... هـــذا، لَعَمـــري مُنتهـــى البَـــذلِ
مـــا يَنْبَغـــي للنَّـــاسِ أن يَنْســـبُوا ... مَـــنْ كـــان ذا جُـــودٍ إلـــى البُخـــلِ
مـــا قُلـــتُ هـــذا فيـــكَ، إلا وقَـــدْ ... جَفَـــتْ بـــه الأقـــلامُ مـــن قَبْلـــي

ويسوق أبو الفرج رواية مزيدة لهذه القصيدة التي جعلت عبد الله بن معن الشيباني ينتقم من الشاعر بطريقة فاحشة، ثم عرض عليه الصُّلح بعد ذلك، فقبل أبو العتاهية واستسلم[٧].

ويبدو عند الرجوع إلى القصيدة أن الشاعر يؤكد في أكثر من بيت على صفة الجهل التي أظهرها الشيباني، بل يرى الشاعر أن الله خصّ مهجوه بهذه الصِّفة أكثر من غيرها، وإمعاناً في هذه الصِّفة صور الشاعر مهجوه بفتاةٍ تفتخر بحسبها ونسبها وشرف قومها، ولعلّ الشاعر أراد

---

(١) أبو العتاهية، الديوان، مصدر سابق، ص٢٢٤.
(٢) العذل: العتاب.
(٣) جلا: أوضح وأظهر، والقرابين: جلساء الملك والسُّلطان.
(٤) الباذخ: العالي.
(٥) الحِجى: العقل.
(٦) النوك: الجهل والحُمق.
(٧) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٤، ص٢٥- ٢٦.

بهذه الصُّورة أن ينقل مشهداً دالاً على حُمق المهجو وقلّة عقله، إذ هو يتصرّف تصرّف النِّساء اللواتي يُشغلن بالمفاخرات الفارغة.

ويعود الشاعر في البيت السابع مخاطباً رفيقيه اللذين توجّه إليهما بالخطاب في مطلع القصيدة، داعياً إياها إلى خطاب الشيباني ألا يتمادى في جهله؛ لأنه رأسٌ في جهله وحمقه، فلا يلزمه المزيد من الجهالة وقد بلغ فيها ما بلغ، وراح الشَّاعر يضرب مثالاً على هذا التمادي، مشيراً إلى أنَّ جهل الشيباني قاده إلى البخل المفرط، حتى أفسد السمعة الطيبة التي كانت تُتناقل عن أبيه معن بن زائد المشهور بجوده وكرمه في الناس.

وسلك بعض الشعراء طريقاً أُخرى في إنكار علمِ بعض الولاة حتى لو بلغوا من العلم مهما بلغوا، فهذا ابن طباطبا العلويّ يعلن في إحدى مقطوعاته الهجائية كفرَهَ بعلم أبي علي بن رستم – والي الخراج في أصفهان – وبكلِّ محفوظاته من العلوم، لكنه يستثني – بذكاء – حفظه وعلمه بكتاب الله عزّ وجلّ، ثم يرى الشاعر أن المهجو مهما حصل من ألوان العلوم اللغوية أو الفقهية، ولو دانى العلماء الكبار كأبي حنيفة ويونس بن حبيب وقطرب، فإنَّ معرفته العلميّة لن تجدي، ولن تنفع، ولن ترفع من شأنه؛ بسبب وضاعة نسبته، يقول[١]:

كُفــراً بعِلمــكَ يــا "ابــنَ رســتمٍ" كُلّــه ... وبمــا حَفِظــتَ، ســوى الكتــابِ المُنــزلِ
لــو كُنــتَ "يــونسَ" فــي دوائــرِ نَحــوِهِ ... أو كنــت "قُطــربَ" في الغَريــبِ المُشكــلِ[٢]
وحويــتَ فقــهَ "أبــي حنيفــةَ" كُلَّــه، ... ثُــمَّ انتميــت "لرســتمٍ" لــم تَنْبُــلِ

وأمَّا المتنبي، فقد رسم لكافور الإخشيدي، والي مصر، صُورة لمدى ما استبدّ به من الجهل، حتّى جعله لا يدري – من شدة جهله – حقيقة لونه، أهو أبيض البشرة أم أسودها، يقول[٣]:

وإنَّــكَ لا تَــدْري أَلَوْنُــك أسْــودٌ ... مِنَ الجهلِ أمْ قَــدْ صَــارَ أبــيض صــافيا؟!

- اللؤم.

وجد الشعراء العباسيون من بعض الولاة والقادة وعمال الدولة ما يدل على تأصل اللؤم فيهم، فقد قابل بعضهم الشعراء بطباعٍ سيئة للغاية، وردّوهم عن أبوابهم، وأظهروا لهم من مهانة النفس وقبض اليد ورداءة المعاملة وسوء الأصل ما يقوم دليلاً على لؤمهم وفقدانهم الأخلاق السياسيّة الإنسانيّة والشخصيّة الجميلة. وقد مرّ العديد من الشعراء العباسيين بهذه التجربة القاسية

---

(١) ابن طباطبا العلوي، أبو الحسن، محمد بن أحمد الأصبهاني (ت ٣٢٢هـ)، شعر ابن طباطبا العلوي الأصبهاني، جمع وتحقيق: د. شريف علاونة، دار المناهج، عمّان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٩٤.

(٢) يونس: أراد يونس بن حبيب النحوي، وقطرب: أراد محمد بن المستنير النحوي.

(٣) المعري، معجز أحمد، مصدر سابق، ج٤، ص٣٣.

مع رجال الدولة، فكانت أهاجيهم في هذه الطائفة ردّة فعل على سوء المعاملة التي وجودها. ومن الممكن أن يبدأ الباحث بالتجربة المريرة التي لقيها دعبل الخزاعي حين فرَّ إلى مصر من وجهة الخليفة الذي تعرض له بالهجاء، فقد وجد هذا الشاعر الهجّاء أن لؤم الوالي المطلب بن عبد الله الخزاعي، والي مصر، قد غطّى على كل حسناتِ قبيلة خزاعة، فهجاه بأبيات، لعل منها هذين البيتين اللذين لا يذهبان بكرم المطلب وحده وإنما يذهبان بكرم خزاعة كُلّها، يقول[١]:

اضـــــربْ نَـــــدى طلحـــــةِ الطَّلحـــــات مُبتـــــدئاً

بلـــــؤم مُطّلـــــبٍ فينـــــا وكُـــــنْ حَكَمـــــا[٢]

تُخْـــــرِجْ خُزاعـــــةَ مِـــــنْ لُـــــؤمٍ ومِـــــنْ كَـــــرَمٍ،

فـــــلا تَعـــــدُّ لهـــــا لَؤمـــــاً ولا كَرمـــــا

يحاول الشاعر في هذين البيتين أن يعبر عما لقيه من لؤم الوالي الخزاعي الذي لجأ إليه وطمع في معروفه، فأبدى لؤماً منقطع النظير، مما دفع الشاعر إلى هجائه بصورةٍ ذكيةٍ، إذ لم يلجأ الشاعر إلى سبّه وشمته أو الاستهزاء به والسخرية منه، كما هي عادة شعراء الهجاء، ولكنه لجأ إلى القارئ طالباً تحكيمه في مسألة كرم طلحة الطلحات التي فخرت بها قبيلة خزاعة ومسألة لؤم المطلب بن عبد الله التي مسحت آثار ذلك الكرم، ليصل بالقارئ الحكم إلى نتيجة ذكية أيضاً وهي أن كرم طلحة ولؤم المطلب متساويان بالنسبة إلى خزاعة، وعليه، تخرج خزاعة من هذه النتيجة صفراً، فلا كرم لها ولا لؤم عليها، يقول الجاحظ تعليقاً على قول دعبل هذا: "وقد ظرف في شعره فظلم خزاعة ظلماً عبقرياً"[٣]، ولعله لا يغيب عن الذهن أن دعبلاً كان من خُزاعة.

وإذا كان دعبل قد اختبر المطلب الخزاعي وبنى حكمه على تجربة، فقد حاول بعض الشعراء أن يرسم صُورة خارجية للؤم بعض الولاة، كما فعل حماد عجرد الذي جعل لؤم محمد بن سليمان العباسيّ، والي البصرة، ظاهراً على تقاسيم وجهه، فإذ ما لاح وجهه للناظر وتأمل في صفحته، ونظر إلى خديه وذقنه بإمعان، أدرك أنَّ هذه الخلقة تنم عن لؤم صاحبها وسُوء أخلاقه، يقول[٤]:

لُؤمـــــكَ بـــــادٍ لمـــــن يَـــــراكَ إذا أقبلـــــت، فِـــــي العارضـــــينِ والـــــذَّقَنِ[٥]

---

(١) الأشتر، عبد الكريم، دعبل بن علي الخزاعي، شاعر آل البيت، مصدر سابق، ص٦٨.

(٢) طلحة الطلحات الخزاعي: ممن ضُرب بهم المثل جوداً وكرماً في الإسلام.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ج١، ص٣٦٠.

(٤) يارد، نازك، حماد عجرد، مصدر سابق، ص٦٣.

(٥) العارضان: صفحتا الخد.

وتوسّع البحتري في هجاء الحسن بن أبي قُماش، صاحب الخبر في خلافة المعتز، فجعل أخلاقه لئيمة وضيعة، بل جعلها كأخلاق الكلاب في خستها وحقارتها، يقول[١]:

لحـــاك اللهُ يـــا "بـــنَ أبـــي قُمـــاشٍ" ولا أســـقى مَحلَّتَـــكَ السَّـــحابُ!!
فكـــأنْ فيـــك مِـــنْ خُلُـــقٍ لَئـــيمٍ تكـــرّمُ، أو تعاطـــاه الكِـــلابُ

وفي قصيدة أُخرى، يهجو البحتري أسد بن جَهْورَ، أحد العُمَّال في بلاد الشام، بناءً على ما جرّبه من سوء أخلاقه ولؤم طباعه التي كشف عنها الشَّح المتأصل في نفس مهجوه، يقول[٢]:

ذَمَمْنـــا عَهْـــدَهُ لمّـــا بَلونـــا لَئـــيمَ سَـــجيّةٍ لِحْـــزٍّ بَخيـــلِ[٣]
ولـــم يُســـلْ الكثيـــرَ، وغيـــر سَـــهْلٍ تَطلُّبُـــكَ القليـــلَ مـــن القليـــلِ

ولعلَّ أهمّ ما يدل على لؤم أسد بن جهور أن الشاعر لم يسأله سوى القليل، ولم يثقل كاهله بالطلب، ولكن رداءة أصله ولؤم طباعه جعلته لا يستجيب للسؤال، ولذا، فإن الشاعر يصف طلبه بالقليل ويصف مهجوه بالقليل أيضاً، مشيراً إلى أن القليل – المهجو – لا يجود حتى بالقليل، وأن العسر يتمثل في استخراج بعض المال من والٍ لئيم.

- الجبن.

إذا كان نفر من الشعراء العباسيين مدحوا بطولة القادة الشجعان الذين أظهروا حسن البلاء في المعارك، ورسموا لشجاعتهم صُورة محببة إلى النفوس، فقد نعى فريق آخر من الشعراء على بعض القادة ما أظهروه من جبن وتخاذل ونكوص وتولٍ يوم الحرب، واتخذوا هذه المعاني السلبيّة مادة لقصائد الهجاء ومقطوعاته التي عبّرت عن الجانب المُقابل للبطولة بوصفها أخصّ الصفات التي يجب أن يتحلى بها قادة الجيوش وولاة الأقاليم، وقد جاءت هذه الأهاجي لتفضح بعض المواقف التي سادها الجبن والتخاذل، وأساءت إلى صورة البطولة المحبوبة.

وهكذا، يجد الباحث أن تعبير الشعراء عن حالة الجبن التي انتابت بعض القادة والولاة، كانت تُعبر في حقيقة الأمر عن ثنائية الشجاعة، الجبن، إذ كان الشعراء يطلبون المعاني الإيجابية في ولاتهم وقادتهم، ويذمون المعاني السلبية فيهم، ولذا راح بعضهم يقيم مفارقة بين حال بعض الولاة إذا ما كان في حال السلم، وحاله إذا وقعت الحرب، من ذلك تصوير ابن الرُّومي سليمان بن عبد الله بن طاهر – والي طبرستان – بالأسد القوي حين يكون في قصره،

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٦٦.
(٣) لحز: شحيح بخيل.

والثعلب الجبان حين يكون في المعركة، فهو شديد حازم في حال الرخاء، جبان متخاذل في حال الشِّدة، يقول[١]:

هُـــو الأســـدُ الـــوَرْدُ فـــي قَصْـــرِهِ ولكنَّـــــه ثَعْلـــــبُ المَعركـــــةْ

واتخذ بعض الشعراء من هزيمة بعض الولاة والقادة في المعارك مادة جيدة لهجائهم وتعييرهم بالهرب، من ذلك ما هجا به دعبل الخزاعي إسماعيل بن جعفر بن سليمان العباسي، والي الأهواز في عهد المأمون، فقد عاب جبنه وتخاذله وفراره من ملاحقة جيش زيد بن موسى بن جعفر، الملقب بزيد النار الذي ثار على العباسيين وأحرق دُورهم بالبصرة، يقول دعبل[٢]:

لَقـــدْ خَلّـــف "الأهْـــوازَ" مِـــنْ خَلْـــفِ ظَهـــرِهِ
و"زيـــدٌ" وراء "الـــزّاب" مـــن أرضِ "كَسْـــكَرِ"[٣]
يُهـــــوَّلُ "إســـــماعيل" بـــــالبيضِ والقَنَـــــا
وقـــد فَـــرَّ مـــن "زيـــدِ بـــن موســـى بـــن جَعْفـــرِ"[٤]
وعَاينتُـــــهُ فـــــي يَـــــومِ خَلَّـــــى حَرِيمَـــــهُ
قبـــا قُبْحهـــا مِنـــهُ، ويـــا حُسْـــنَ مَنْظـــرِ

تُصوّر هذه المقطوعة المكثفة حالة الرُّعب التي انتابت إسماعيل العباسي يوم أن تناهت إليه أخبار ثورة أحد العلويين، فقد غشيته حالة من الذعر والهلع، وسيطر عليه موقف الخوف، ولم تحدثه نفسه بالاستعداد والمواجهة، بل ترك الساحة للثائر، وولى هارباً، يريد النجاة بنفسه، تاركاً الأهواز تُلاقي مصيرها وحدها. وينم البيت الأول عن مدى حالة الذعر التي جعلت الوالي العباسي يغادر ولايته قبل أن تصلها الجيوش الثائرة، مما يعني أنه لم يكن مستعداً إلا لأمرٍ واحد، وهو الهرب.

ويصور البيت الثاني شيئاً من سيطرة الموقف المتخاذل على الوالي العباسي الذي كان الخوف من أسلحة الثورة قد شكل هاجساً مُرعباً له، وهذا دليل جبنه وخوره، إذ لا قبل له

---

(١) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٥، ص١٨٢١.

(٢) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٠٥- ٢٠٦.

(٣) الأهواز: منطقة كبيرة ممتدة ذات كُور بين البصرة وبلاد فارس، والزّاب: هناك نهران بالعراق يُعرف أحدهما بالزاب الأعلى والآخر بالزاب الأسفل، وهما يصبان في نهر دجلة، وكسكر: كورة واسعة بين البصرة والكوفة وقصبتها واسط.

(٤) يهوّل: يُخوف، والبِيض: السيوف، والقنا: الرِّماح.

بمواجهة السيوف والرماح، ولذا بادر إلى الفرار قبل أن يلتقي الفريقان، إذ كان لا يروم سوى تحقيق النجاة.

ويتابع الشاعر في البيت الثالث تفصيلات الصّورة المخزية التي سطّرها الوالي العباسيّ الجبان، إذ سيطر عليه الخوف، ولم تحدثه نفسه إلا بنجاة روحه، ولذا ترك كل من كان معه، وهرب وحده، وبلغت به أنانية الجبن كلّ مبلغ، حتى ترك حريمه، أي نساءه وكلّ من يلزمه حمايتهن وصونهن، يواجهن المكروه، ولاذ وحده بالفرار. إنَّ هذا الموقف المشين الذي عاينه الشاعر بنفسه يجمع كما يرى الشاعر بين الضدّ وضدّه، فهو فعلٌ قبيح وتصرّف جبان أن يفر الوالي دون أن يؤمن الحماية والخروج لأهل بيته، وهو منظر حسن ومشهد جميل أن ترى الوالي هلعاً قد غلبه الخوف فانسحب خلسةً، وانسلّ كما ينسلّ الجبناء.

وفي قصيدة أُخرى يوجّه دِعبل سهام هجائه السياسيّ إلى المطلب بن عبد الله الخزاعي، والي مصر، ناعياً عليه جبنه وتخاذله، إذ سرعان ما ظهر سوء تدبير قائد الجيش ونكوصه إلى الوراء، داعياً أصحابه إلى العجلة في الفرار والنجاة بأنفسهم، بدلاً من أن يثبتهم ويدعوهم إلى المجالدة، ثم تراه يتقدّم جموع الفلول، يقول[١]:

ويَـــــومَ السُّـــــراةِ تَحَسَّـــــبنَها ... يَطيـــبُ لـــدى مِثْلِهـــا الحنَظَـــلُ
تَولَّيـــتَ رَكْضـــاً، وفِتيانُنـــا ... صُـــدُورُ القَنـــا فـــيهمُ تَغْسِـــلُ[٢]
إذا الحَـــربُ كُنـــتَ أميـــراً لهـــا ... فَحظُّهـــمُ منـــك أن يُقتلـــوا
فمنـــكَ الـــرُّؤُوسُ غـــداةَ اللِّقـــا ... وممّـــنْ يُحاربـــك المُنْصـــلُ[٣]
شِـــعارُكَ فـــي الحـــربِ يـــوم الـــوغى ... – إذا انهزمـــوا –: عَجِّلـــوا عجِّلـــوا
هَزائمُـــكَ الغُـــرُّ مَشْـــهورةٌ ... يُقَـــرطِسُ فـــيهن مَـــنْ يَنْصُـــلُ[٤]
فأنـــتَ لأوَّلهـــمْ آخـــرٌ، ... وأنـــتَ لآخـــرهمْ أولُ

يتحدّث الشاعر في هذا المقطع من قصيدته عن مجافاة المطلب الخزاعي لأخلاق البطولة التي يجب أن يتصف بها القادة الشجعان، فهو لا يقوى على الصمود في حومة القتال، وسرعان ما تولى منهزماً بنفسه، متخلياً عن أصحابه الذين يواجهون الموت بصدورهم، وهو لسوء تدبيره في الحرب يعرّض أصحابه للقتل ويُسلم رؤوسهم لسيوف أعدائهم، فإذا حمى الوطيس لم يكن

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٥٤– ٢٥٥.

(٢) عسلت الرماح: اشتدّ اهتزازها.

(٣) المُنصل: السيف ونحوه من الأسلحة.

(٤) يقرطس: يصيب الغرض، وينصل: يرمي بالنصل.

منه إلا تخذيل أصحابه ودعوتهم إلى الفرار والهزيمة، مُتخذاً العجلة في الهرب شعاراً له في المعركة.

ويرى الشاعر أن سِجَل المطلب الحربي مليء بالمخازي والهزائم، حتى أصبحت هذه الهزائم مشهورة في الناس، وما ذلك إلا لتخاذله وضعفه، فهو إذا دارت المعركة تأخر الصفوف؛ حتى لا يصاب بأذى، وهو إذا وقع الفرار كان في أول الصفوف؛ ليؤمن النجاة لنفسه، غير عابئٍ بجنده.

وفضلاً عن الجبن والتخاذل في ميادين الحرب، وقف بعض الشعراء في وجه بعض الولاة والقادة، غير خائفين من تهديداتهم، فمن ذلك أن روح بن حاتم المهلبي – والي السند ثم البصرة والكوفة ثم فلسطين – توعّد بشار بن برد لما بلغه أنه يهجوه، فما كان من بشار إلا أن عاد إلى هجائه من جديد، واصفاً إياه بالجبن والتخاذل، يقول[١]:

تَوعَّـــــدني "أبُـــــو خلـــــفٍ" وعَـــــنْ أوتـــــارِهِ نامـــــا[٢]
بســـــيفٍ "لأبـــــي صُـــــفر ةَ" لا يَقْطـــــعُ إبْهامـــــا[٣]
كـــــأنَّ الـــــوَرْسَ يَعْلُـــــوهُ إذا مـــــا صَـــــدْرُهُ قامـــــا[٤]

يبدو واضحاً أن بشار بن برد لم يبالِ بوعيد الوالي المهلبي، ولم يخف من سوء حسابه، بل نراه على عكس ذلك، يهاجم هذا الوالي داعياً إياه إلى المطالبة بدماءِ أهله أولاً، ولكنه كما يقول الشاعر نام عن ثأره تخاذلاً وجبناً، وسل على الشاعر سيفاً يريد أن يقتله به، ولكن الشاعر يهزأ بهذا السّيف الذي أصابه الصدأ؛ لعدم استعماله، فما أصبح قادراً على قطع أحد الأصابع، فضلاً عن أن يقطع رأس الشاعر، وهكذا، يجعل الشاعر الوالي جباناً متخاذلاً نائماً عن حق الثأر، كما يجعل سلاحه غير ماضٍ قد علاه الصدأ، حتى عاد أحمر كنبات الورس.

- الكبر.

أظهر العديد من الولاة والقادة العباسيين غروراً وعُجباً بالمناصب التي تقلدوها، وداخلهم من الكِبر والتّيه والتعالي، مما جعل الشعراء يقفون لهم بمرصاد الأهاجي التي ركّزت على نقد

---

(١) بشار، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص١٦٤.

(٢) أبو خلف: كنية روح بن حاتم المهلبي، وأوتاره: ثاراته.

(٣) أبو صفرة: جدّ روح بن حاتم، صحابي من الأزد.

(٤) الورس: نبات يحتوي على مادة حمراء تستعمل للصبغ.

هذا السلوك السلبي، داعين هذا النصف من رجال الدّولة إلى التحلي بالتواضع وعدم الكِبر، يقول عبد الصمد بن المُعذَّل هاجياً صديقاً له ولي النَّفّاطات[١]، فأظهر تيهاً وعُجباً بولايته[٢]:

لَعَمــري لَقــد أظهــرتَ تِيهــاً كأنَّمــا ... تَوَلّيْــتَ "للفضــلِ بــن مــروانَ" مِنْبــرا
وما كنــت أخْشَــى لــو وليــتَ مكانَــهُ ... علــيَّ "أبــا العبّــاسِ" أن تَتغيّــرا
بحفظِ عُيــونِ الــنِّفطِ أظهــرتَ نخــوّةً، ... فكيفَ بــه لــو كــان مِسْــكاً وعَنْبــرا!!
دَعِ الكِبْــرَ واسْــتبقِ التَّواضــعَ إنّــهُ ... قَبــيحٌ بــوالي الــنِّفطِ أن يَتكبّــرا

يُحاول الشاعر في مقطوعاته أن ينبه صديقه المتعالي إلى حقيقةِ الولاية التي تقلدها، فهي ليست من الولايات الشريفة، بل هي عمل وضيع لا يستدعي من واليه إظهار الكبر والتيه، ويؤكد الشاعر – من ثمَّ – أنَّ الولاية الجديدة حتى لو علت مكانتها ومنزلة فهي ليست مدعاة إلى تغيّر الصديق على صديقه. ويعود الشاعر إلى صديقه متولي أعمال النِّفط داعياً إياه إلى التواضع وعدم الكبر؛ لأنّ الكبر من والي النّفط قبيح، ولو كان متولياً عملاً ذا رائحة زكية، كالمسك والعنبرا، لجاز له أن يتهيه ويعجب بعمله، أما وأن رائحة النفط كريهة واستخراجها عمل وضيع، فعلامَ يتكبر من يتولى هذا العمل؟!

ولجأ ابن الرومي في هجاء محمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي، الوالي المعروف في خراسان وبغداد، إلى دعوته إلى التخلي عن خُيلائه وتيهه، ولا سيما في مواكب العيد، مشيراً إلى وضاعة أصله، ومذكراً إياه بحقيقة الدُّنيا الفانية التي لا تساوي عند الله شيئاً، فكيف بالإنسان يُداخله غرورها ويملأ قلبه زخرفها، وهو ميت لا محالة، يقول الشاعر[٣]:

ألســتَ "ابــنَ بوشــنج" أُعَيْــرجَ ناقصــاً ... وإن نلــتَ مهمــا نلتَــهُ بالمقــادِرَ[٤]
ومــا كانــت الــدُّنيا وأنــتَ عَميــدُها ... لتعــدلَ عنــدَ اللهِ عَبَّــةَ طــائرِ[٥]
ولو كان في النَّــاسِ ابــنُ حُــرٍّ وحُــرّةٍ ... لمــتَّ ولــم تَخطــر علــى بــالِ ذاكــرِ
أحَسْبَكَ فــي العيــدين إيجــافُ مَوكــبٍ ... تَخايــلَ فيــه مُسْــبَطرُّ المَشــافرِ[٦]

---

(١) النفّاطات: المواضع التي يُستخرج منها النِّفط.

(٢) البيهقي، المحاسن والمساوئ، مصدر سابق، ص١٩٨.

(٣) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٣، ص٩٨٢.

(٤) بوشنج: قيل من أجداد المهجو، وقيل اسم إحدى مُدن خراسان، والمقادير: أراد الأقدار.

(٥) عَبّة: شربة.

(٦) إيجاف المواكب: إسراعها في السير، وتخايل: شعر بالعجب والفخر والتيه، ومُسبطر المشافر: طويلها.

وواضح من هذه الأبيات دعوة الشاعر مهجوه إلى الكفّ عن كبره وتعاليه، إذ ليس ثمة ما يدعوه حقاً إلى هذا السلوك السلبي، فنسبه ناقص، ومناصبه التي تقلدّها لم تكن إلا تقديراً من الله لا اجتهاداً منه، ثُمّ إن حقيقة الموت التي لا مفرَّ منها تناقض سلوك الكبر والغرور الذي عليه الوالي، وأخيراً، فإنَّ مظاهرَ الكِبر والخيلاء التي يأتي بها الوالي الخزاعي لا تعدو أن تكون فارغة حقاً، فإنَّ مجيء الموكب ومروره سريعاً أمام النّاس ليست مدعاةً إلى الشعور بالزّهو والخيلاء الفارغين.

- مُعاداة الدِّين.

فسّر بعض الشعراء العباسيين تصرفات بعض الولاة والقادة وسُوء تدبيرهم ومعاملتهم للرعية على أنّها عداء سافر للدِّين، وتجاوز على معالم الإسلام الذي كانوا يستظلون بظله ويحكمون باسمه، وقد توسع الشعراء في معنى عداء الدِّين حتى نسبوا بعض الولاة والقادة إلى الكفر، واتهموهم بحرب الدِّين وتقويض شعائره المُقدّسة، كما اتهم بشار بن برد بذلك أبا مُسلم الخراساني قائد الجيش، قائلاً[١]:

تجـــرّدتَ للإســـلامِ تَعْفُـــو سَـــبيلَهُ وتُعْـــري مَطَـــاه لِلُّيـــوثِ الضَّـــراغمِ[٢]

فهو يتهمه بمُناصبة الدين الإسلامي وعدائه، ومحاولة طمس معالمه، وكشف عوراته للأعداء، وهذه الأفعال لا تمثل سوى الخروج عن الدِّين والكفر بقواعده وأركانه.

وينسب ابنُ الرُّومي أفعالَ الوالي سليمان بن عبد الله الطاهري إلى بعض رُموز الكفر والعناد، بل يرى أن فرعون وهامان – وهُما مَنْ هُما في الكفر– لم يسلكا مسلك هذا الوالي الطاغية المعاند المُفسد، يقول[٣]:

وأحســـبُ "فِرْعـــونَ" فـــي كُفْـــرِهِ و"هامـــانَ" مـــا سَـــلَكا مَسْـــلَكهْ!!

وأمَّا أبو نواس، فقد عاتب الخليفة الرشيد على تنصيب الخصيب والياً على مصر، مُوجهاً إلى هذا الوالي تهمة الكفر الصريحة، مؤكداً للخليفة أن الخصيب ما زال على دين النصرانيّة، يُقدّس الصُّلبان ويسجد لها، وأنه لا يدين بدين التَّوحيد، يقول[٤]:

---

(١) بشار بن برد، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص١٧٤.

(٢) تعفو: تمحو، والمطا: الظهر، والضراغم: الأُسود الضارية.

(٣) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٥، ص١٨٢١.

(٤) أبو نواس، الديوان، مصدر سابق، ص٥٦٣.

أميـــرَ المُـــؤمنينَ، وأنْـــتَ عَفـــوٌ ... وما لك فـــي الخلائـــقِ مِـــنْ ضَـــريبِ[١]
عَـــــلامَ وأنـــــتَ ذُو حَـــــزمٍ ورأْيٍ ... تُصـــيِّرُ أمْـــرَ مِصْـــرَ إلـــى الخَصِـــيبِ!!
فتـــــى مـــــا دان للـــــرَّحمنِ دِينـــــاً ... ومـــــا إنْ زَالَ يَسْـــــجدُ للصَّـــــليبِ!!

وواضح للعيان أن أبا نواس يمدح الخليفة ويُعلي من شأنه، ويثني على سياسته وإدارته، إذ استعمل الحزم والرأي والمشورة، ولكنه مع ذلك يُعاتبه لأنَّ تعيين الخصيب على مصر تدبير سياسيّ ينقصه الحزم الذي أشاد به الشاعر؛ كون هذا الوالي يواجه تهمة دينيّة خطيرة، وهي الكفر واعتقاد النصرانيّة، وهي تهمة كافية – من وجهة الشاعر– بإبطال قرار التّعيين.

- الاتهام بالشذوذ.

لم يسلم بعض الولاة والقادة من تُهمٍ خلقيّة قد تكون دليلاً على شذوذ بعضهم وعدم سويتهم، فقد أشار بعضُ الشعراء إلى عدد من القبائح الجنسيّة التي كان بعض الولاة والقادة يأتونها، ووجدوا في مثل هذه التُّهم الخطيرة مدخلاً مناسباً لتمزيق هذه الفئة من رجال الدولة والإقذاع في هجائهم، كما فَعَلَ دِعبل الخزاعي في هجاء الحسن بن وهب، والي البريد، يقول في إحدى مقطوعاته[٢]:

ألا أبلـــغْ أميـــرَ المُـــؤمنينَ "مُحمَّـــداً" ... رِســـالةَ نـــاءٍ عـــن جَنَابيـــهِ شـــاحِطِ[٣]
بأنَّ "ابـــنَ وهـــبٍ" حينَ يَشْحجُ شاحجٌ ... يُمـــرُّ عَلـــى القِرطـــاسِ أقـــلامَ غِـــالطِ[٤]
أحـــبَّ بَغـــالَ البُـــردِ حُبّـــاً مُـــداخلاً ... وعـــادَ إلـــى غِشُـــيانها فـــي المَـــرابطِ[٥]
ولـــولا أميـــرُ المُـــؤمنينَ لأصـــبحت ... أُيـــ ورَ بغـــالِ البُـــردِ حَشْـــوَ الخَرائـــطِ[٦]

يستطيع المتأمل في هذه المقطوعة أن يكتشف أن رسالة الشاعر إلى الخليفة تحمل في طياتها نقداً مبطناً لطريقة اختيار والي البريد، إذ هو كاتب، ولا قبل له بولاية البريد التي تستدعي صفاتٍ ومؤهلات تتجاوز مؤهلات الكاتب، ويتخذ الشاعر هذه الحقيقة مدخلاً سائغاً لهجاء والي البريد المعين من قبل الخليفة، إذ انجرف بسبب ولايته الجديدة إلى عشق بغال البريد التي تحمل خرائطه، حتى إنَّ هذا الوالي تغشاه مشاعر وأحاسيس غريبة إذا ما سمع أصوات

---

(١) الضَّريب: الشَّبيه والنَّظير.
(٢) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٢٣، وانظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ، مصدر سابق، ج٢، ص١٧٠.
(٣) ناءٍ: بعيد، وشاحط: بعيد أيضاً.
(٤) الشحيج: صوت البغال.
(٥) البُرد: جمع بريد، والغشيان: الإيتان.
(٦) الخرائط: الأكياس.

البغال تصيح، فهو يعشق هذه الأصوات عشقاً يجعل كتابته مُضطربة، بل مليئة بالأغلاط، إذ ما صادفت الكتابة سماعَ الأصوات التي يعشقها، ولا شك أنَّ هذا التصوير يحمل في جوفه السخرية من المهجو والاستهزاء من سلوكه.

ويعود الشاعر في البيت الثَّالث ليوجه تُهمة الشُّذوذ البهيمي التي ابتلي بها الحسن بن وهب بسبب عشقه البغال، إذ بلغ به هذا العشق مبلغاً جعله غير قادر على الانقطاع عن معشوقة، فإذا هو يأتي إلى مرابط البغال؛ ليفعلَ فعلته البهيمية التي تدلُّ على الحالة الدنيئة التي وصل إليها شذوذ والي البريد.

وفيما يبدو، فإنَّ أشعار دعبل في هجاء الحسن بن وهب، والي البريد، تحض الخليفة على عزله حضاً شديداً، فقد أوحت له بغال البريد معاني شيطانية فاحشة نعجب أن تخطر له على بال- كما يقول عبد الكريم الأشتر-، ولا سيّما أنّه جاوز الثمانين، فقد جعل الحسن يغشاها في المرابط، من أُبنةٍ شديدةٍ به، وجعله يضطرب من حُبّها اضطراباً شديد يُفسد عليه أمره[١].

- الطَّعن في الأعراض.

تناول الشعراء العباسيون أعراض الولاة والقادة، مُتهمين إياها بتهم خُلقية خطيرة، وغالباً ما كانت الأُمّ هي موضع الاتهام بالزِّنا أو السِّفاح أو نحو ذلك. وقد عرض بعض الشعراء مشاهد سوداء لأُمهات الولاة والقادة خاصة، مشيرين إلى شيءٍ من سيرهن السابقة، في سبيل الانتقاص من أبنائهن وتعييرهم بماضي أُمهاتهم المُؤلم. ويبدو واضحاً للمتأمل أن هذا المنحى من هجاء الولاة والقادة وغيرهما من رجال الدولة العباسيّة تسرّب إلى الشعر العباسي في مراحل مُبكرة، ولا سيّما من قبل بعض الشعراء الذين كانوا يجاهرون بهجاء الجميع من غير خوف أو وجل، مثل بشار بن برد الذي أظهر شجاعة كبيرة في أهاجيه السياسيّة، حتى كان حتفه بسببها، يقول في هجاء يحيى بن صالح بن علي العباسي[٢]:

هَـــلاَّ مَنَعْـــتُم "بنـــي وأذان" أُمُّكُـــمُ مـــن المُوَسِّـــمِ إذ يَسْـــري بِقَنْفـــاءِ[٣]

---

(١) الأشتر، عبد الكريم، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، مصدر سابق، ص١٦٦.

(٢) بشار بن برد، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٤٤.

(٣) بنو وأذان: اسم جماعة اتهمهم بشار بالفعل، ويبدو أنهم ليسوا من العرب، والموسِّم: الذي يضع علامة الوسم، ويسري: يسير ليلاً، والقنفاء: من أسماء ذكر الإنسان.

بِـــتُّمْ نِيامـــاً وبـــاتَ العِلْـــجُ ..... في لَيلةٍ مِثْـــلِ ضَـــوءِ الصُّـــبْحِ قَمـــراءِ[١]
وَيـــــلُ أُمِّـــــهِ نَبَطيّـــــاً ..... بِفَيْشَـــةٍ مِثْـــلِ رأسِ الكَلْـــبِ جَوْفـــاءِ[٢]

يرسم بشار في هذا المقطع من قصيدة صُورة للفعلة النكراء التي جاءت من أُمّ المهجو، إذ طاب لها أن تقضي ليلة مع أحد الأعلاج غير العرب، وكانت تلك ليلتها الأُولى مع الرجال، ولم يُقصّر الفاعل من جهته في الاعتداء على شرف الفتاة البكر، إذ فضّ عذريتها، وقضى ليلته معها من غير خوف أو وجل. ولعلّ حديث الشاعر عن عضو الفاعل وتصوير ضخامة رأسه برأس الكلب، هو أشدّ إقذاعاً وإيلاماً في هذا اللون من الهجاء. ويبدو واضحاً أن بشاراً أراد – كذلك– أن ينتقص من كرامة المهجو وأهله، إذ كانوا في غفلة ساهين، وناموا ليلهم الطويل، وفتاتهم تفعل فعلتها، ومما ضاعف من بشاعة الفعلة أن الفتاة عذراء، وأنَّ الفاعل علج غير عربي، وأنَّ ليلة الفعلة لم تكن سوداء مظلمة، بل كان القمر ينشر ضوءه على امتداد أُفقها، فضلاً عما حملته تلك الفعلة من تصرفات فاحشة قام بها الفاعل مع الفتاة أُم المهجو.

وبالمثل، يُوجّه دِعْبل الخزاعي تُهمة الزِّنا لأُمِّ مالك بن طوق، فضلاً عن أبيه، فهو – على ما يتهم الشاعر – ابن زانية وزانٍ، بل هو يشاركهم هذه الصفة، وهو يُصرّح بهذه التهمة من غير خوف من حدِّ القذف؛ كون هذا الفعل الفاحش أصبح مشهوراً في آبائه وأُمهاته، يقول[٣]:

لا حـــــــدَّ أخشـــــــاهُ علـــــــى مَـــــنْ قـــــال: أُمُّـــــك زانيـــــةْ
يـــا زانـــي ابـــنَ الزَّانـــي ابـــ ـــــنِ الزَّانـــي ابـــنِ الزَّانيـــةْ
أَنْـــتَ المُـــردَّدُ فـــي الزِّنـــا ءِ علـــى السِّـــنين الخاليـــةْ[٤]
ومُـــــــردَّدٌ فيـــــــه علـــــــى كـــــــرِّ السِّـــــــنينَ الباقيـــــــةْ[٥]

يشير الشاعر على تأصّل هذه التُّهمة الخلقية في أهل بيت مهجوه، إذ بدرت هذه الفعلة الفاحشة قديماً من أُمّه وأبيه وجدّه، وتلقفها المهجو سائراً على طريقةِ أهل بيته في إيتان هذه الفعل القبيح، بل إن الشاعر يصل ماضي الأُسرة في ارتكاب هذه الفاحشة بما هو آت من

---

(١) العِلج: الرجل الشديد الغليظ، يُطلق على غير العربي، وينفضها: يُحركها ويهزها، وقمراء: لم يغرب قمرها.

(٢) النبط: أراد غير العرب، وفض خاتمها: كناية عن افتضاضها وافتراعها، والفَيشة: رأس ذكر الإنسان، وهي الكمرة.

(٣) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٤٤.

(٤) المُردّد: أراد المعروف المشهور.

(٥) كَرّ: توالي وتعاقب.

المُستقبل، فقد فعلها الآباء والأُمهات فيما سبق، ومالك مُصرٌّ على هذه الفعلة فيما يستقبل من أيامه.

وفي مقطوعة أُخرى، يعود دِعبل إلى تأكيد تهمة الزِّنا اللصيقة بأُم مالك بن طوق، وكأنما أصبحت هذه التهمة علامةً تلحق بأُمهم، فهم لا يُعرفون إلا بهذه النِّسبة، يقول[١]:

سألتُ عِنكُمْ يا بني "مَالكٍ" في نَازحِ الأرضينَ والدَّانيةْ
طُراً، فلمْ تُعرفُ لكمْ نِسبةٌ حتَّى إذا قلتُ: بني الزّانيةْ
قالوا: فَدَعْ داراً على يَمْنةٍ وتِلْكَها دَارهُمُ ثانِيَةْ

اتبّع الشاعر في بناء هذه المقطوعة طريقة مغايرة تقوم على حوارٍ مُفترضٍ بينه وبين أُناس توجّه إليهم بالسُّؤال، إذ راح الشاعر يسأل القاصي والداني عن نسبٍ يعرفونه لآلِ مالك بن طوق، ولكنه فشل في أن يجد لهم نسبةً معروفةً، ولكنه ما إن نسبهم إلى أُمهم الزَّانية حتى عرفهم الناس حقَّ المعرفة، بل دلوا السائل على دارهم، ووصفها له وصفاً دقيقاً، ممّا يشير إلى أنَّ التُّهمة البشعة لا تنال أُمهم فحسب، بل إنَّ دارهم مشهورة بين النَّاس بأنها محلّ لممارسة تلك الرذيلة التي شُهرت أُمهم بهاّ!!

* موقف الشعراء من نكبات الولاة والقادة.

وجد الشعراء العباسيون في عزل الولاة والقادة، وما حلّ به من مصائب ونكبات فرصة للتشفي وإظهار الفرحة بما نال هؤلاء من عقوبة، رأى الشعراء أنّها بعض ما عُجّل له من جزاءٍ، في هذه الحياة الدنيا؛ لسبب غيهم وبغيهم وظلمهم وتجاوزهم، وإذا كان الشعراء قد تصدوا للولاة والقادة وغيرهم من رجال الدولة إبّان توليهم المناصب، فساموهم بالأهاجي القاسية، ونقدوا سياستهم وأخلاقهم الشخصية وسلوكياتهم، رُغم ما يحوط هذا الهجاء من مخاطر قد تودي بالشاعر إلى الهلاك، فإنّ هذا الاتجاه من الهجاء نما وازداد قوةً في ظلّ الظروف القاسية التي أصابت ولاة الدولة وقادتها، ولا سيّما إذا ما تعرّض الواحد منهم إلى غضب الخليفة، فعزله عن منصبه، فعندها تتناوله ألسن الشعراء بحرية أكبر، يلقى من مرِّ الهجاء ما لم يلقه إبّان ولايته المنصب.

لقد تعدّدت أنواع النكبات التي أنتجت شعر الهجاء في هذا الفريق من رجال الدَّولة، فكان العزل والإقصاء ومصادرة الأموال والسجن والقتل من أبرزها، فضلاً عما كان يصيب هؤلاء من نكبات الزّمان، كفقدان الأهل أو خسارة الأبناء أو ضيق الحال أو نحو ذلك من المصائب لم يكن المنصب السياسيّ سبباً في وقوعها. وسواء أكانت هذه المناصب ناجمة عن أسبابٍ سياسيّة

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٤٤.

أو طبيعيّة، فقد كان الشعر العباسي حاضراً في هجاء المنكوبين من الولاة والقادة، وقد اتخذ هذا الهجاء طابع التشفي تارة، والاعتبار تارة، وكان في كلا الحالين يصدر عن نفسٍ قد غمرتها المشاعر الفرحة بما حلّ بالظالمين من تدابير القدر العادل.

لقد انتقل الشعراء العباسيون إلى موضوع عزل الولاة والقادة على أنّه من طبائع السياسة وتقلباتها، فالتعيين يقابله العزل، وهما عند الشاعر وجهان لعملة واحدة، ولذا حاول بعض الشعراء أن يُسري عن وال معزول، فقال على سبيل الوعظ لا الهجاء[١]:

لا تَجْـــزعَنْ، فكُـــلُّ والٍ يُعْـــزلُ ... وكمـــا عُزِلْـــتَ فَعَـــنْ قريـــبٍ يُعْـــزَلُ
إنَّ الولايـــــةَ لا تَـــــدومَ لِواحـــــدٍ، ... إن كُنـــــت تُنّكـــــرُهُ فـــــأين الأوَّلُ؟!
وكـــذا الزَّمـــانُ بمـــا يَسُـــرّكَ تـــارةً، ... وبمـــــا يَسُـــــوءك مَـــــرّةً يتَنقّـــــلُ

ومزج الشاعر ابن المعتز بين الوعظ والهجاء، فقال يهجو كل تائهٍ مُعجب بولايته غير مُعتبرٍ بما تُخفي له الأيام، بل الساعات القادمة، إذ هو ينعم في عليائه، ويتفاخر في ولايته، ويتهيه على الآخرين بمنصبه، وقرار عزله قد اتخذ فعلاً، ولم يعد بينه وبين مفارقة المنصب الذي يتيه به سوى المدة التي يستغرقها وصول البريد حامل القرار الصّعب الذي سيقلب الأُمور رأساً على عقب، يقول الشاعر[٢]:

كَـــــــمْ تَائـــــــهٍ بِولايـــــــةٍ ... وبِعزلَـــــــهِ يَعْـــــــدُو البريـــــــدُ
سُـــــــكرُ الولايـــــــةِ طَيّـــــــبٌ ... وخُمارُهـــــــا صَـــــــفْعٌ شَـــــــديدُ

يُمثل هذان البيتان لوناً من الهجاء العامّ الذي يوجهه الشاعر إلى عُموم أصحاب الولايات، وكأنما هو يدعوهم إلى عدم الاغترار بحلاوة المنصب؛ لأنَّ العزل آتٍ لا محالة، بل هو في الطريق سيأتي به البريد عاجلاً، وإذا كان الأمر على الصُّورة، فلمَ يدخل العجب والغرور والخيلاء إلى نفوس الولاة الذين سيغادرون مناصب عما قريب، صحيح أنَّ شعورَ الوالي بمنصبه كشعور السّكران المنتشي، ولكن هذا الانتشاء يعقبه العزل الذي يعكره، وهذا العزل كالصّفع الذي لا يصحو السّكران إلا به.

---

(١) البيهقي، المحاسن والمساوئ، مصدر سابق، ص١٩٨.

(٢) ابن المعتز، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٤٤٣، والبيهقي، المحاسن والمساوئ، مصدر سابق، ص١٩٨.

لم يترك الشعراء في هذه المُدّة مَنْ عُزلوا من مناصبهم وشأنهم، بل سلقوهم بالأهاجي التي تحمّل في طياتها كثيراً من معاني التشفي، يقول أبو العيناء البصري هاجياً زيدَ بن صاعد بعد عَزْله[١]:

قُـــلْ لِزَيـــدِ بـــنِ صَـــاعِدٍ ... حَـــاكَ العَـــزْلُ فـــي نَطَـــفْ[٢]
فـــاجْرَعِ الهـــمَّ واصْـــطَبْر ... فعلـــى رَبِّـــك الخَلَـــفْ
أنْـــتَ أيضـــاً إذا ولَيْـــ ... ـــت، فـــلا تُكْثِـــر الصَّـــلَفْ[٣]

يكشف الشاعر اللثام في هذه الأبيات عن حقيقة عزل الوالي زيد بن صاعد، فقد عزله الخليفة بعدّما تبين له سوء طويته، وما كان عليه من سوء الضمير والاتهام والفساد والشر والريبة. ويوجّه الشاعر في بيته الثاني رسالة عزاء مُضادة للوالي المعزول، تحمل في طياتها موجه عارمة من التشفي بما حلّ بهذا الوالي من غمٍّ وهمٍّ وحزن؛ بسبب مُفارقة الولاية، ويدعو الشاعر مهجوه إلى تجرّع غُصص العزل وآلامه، كما يدعوه – مستهزاً – إلى التحلي بالصَّبر وانتظار الفرج، لعل الله أن يجبر كسره ويعوضه ولاية أُخرى أفضل ممّا فاتته.

ويوجّه لشاعر النصيحة في آخر مقطوعاته للوالي المعزول إذا ما أُتيح له أن يعودَ إلى ولاية أُخرى من جديد أن يتعامل مع الرعية بلين وتواضع، وألا يستعمل الشدّة والغلظة، وألا يعود إلى سابق عهده الذي لم يسلم من الفساد والشرّ والرِّيبة.

ونقل بعض الشعراء مشاهد نكبة بعض الولاة الذي غضبت الدولة عليهم بسبب ما بدر منهم من مواقف سياسيّة أو سوء إدارة وتدبير، ومثالاً على هذا النمط من شعر الهجاء يسوق الباحث مقطوعة الشاعر ابن أبي عُينية المهلبي في هجاء إسماعيل بن جعفر بن سليمان العباسي، والي البصرة في زمن المأمون، يقول[٤]:

مَـــرَّ إســـماعيلُ وابْنـــا ... هُ مَعـــاً فـــي الأُسَـــراءِ
جَالِســـاً فـــي مَحْمَـــلٍ ضَنْـــ ... ـــكٍ علـــى غَيْـــرِ وِطـــاءِ[٥]
يَتَغَنَّـــى القَيِّـــدُ فـــي رِجْلـــ ... ـــيْهِ أَلـــوانَ الغِنـــاءِ

---

(١) أبو سويلم، أنور، أبو العيناء: دراسة وتوثيق، مصدر سابق، ص١١٠.

(٢) نطف: فساد أو شر أو اتهام بريبة.

(٣) الصَّلف: الشِّدّة والغلظة.

(٤) الرباعي، عبد القادر، شعر آل أبي عُيينة المهلبي: جمع ودراسة وتحقيق، منشورات أمانة عمّان الكبرى، عمّان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٩٣.

(٥) وطاء: كالحلس ونحوه وما يوضع تحت الراكب على ظهر الدَّابة.

بَاكِيـــــــاً لا رَقَـــــــأَتْ عَيْـــــــــ ـــــــناهُ مـــــن طُـــــولِ البُكـــــاءِ[١]
يـــا عُقـــابَ الـــدَّجْنِ فـــي الأمـــــ ـــــنِ، وفـــي الخَـــوفِ ابـــنُ مـــاءِ[٢]

ويبدو الشاعر فرحاً بالمصير الذي آل إليه والي البصرة، وتعبيراً عن هذا الفرج تحمل مقطوعاته معاني الشماتة والتشفي بما نال هذا الوالي من نكبة قاسية طالته وابنيه، إذ سيقوا جميعاً من البصرة إلى بغداد، وهم مقيدون بالسلاسل الحديدية، كما يُساق الأسرى في الحرب، وقد حمل الوالي على ظهورِ الدَّواب التي لم تُوضع على ظهورها شيءٍ ليسهل الركوب عليها، بمعنى أن المركب كان خشناً وصعباً وهو ما يؤثر سلباً على الراكب ويتعبه ويكد جسمه.

ويرسم الشاعر في البيت الثالث صُورةً بديعةً للقيد الذي كبل رجلي الوالي المنكوب، إذ تخيل الشاعر أن هذا القيد كان يتغنى في رجلي صاحبه بما راق له من ألوان الغناء، ومعروف أن الغناء يُرافق الفرح، بمعنى أن القيد كان فرحاً مسروراً طرباً وهو يعض على رجلي الوالي المنكوب ويشد عليهما.

وفي آخر المقطوعة، يسجل الشاعر شيئاً من مظاهر الانقلاب التي أصابت هذا الوالي، إذ كان في أمسه فرحاً مسروراً يعيش في دعة وغبطة، وأمّا اليوم فهو يُساق مُكبلاً في صورة مزرية، وقد انسكبت الدموع على وجنته، وهو دموع لا يعزّ على الشاعر جريانها، بل هو يشمت بصاحبها، ويدعو الله أن تدوم، وألا تسكن وتكفّ عن الجريان. وأما آخر مظاهر هذا الانقلاب، فيتضمن قدحاً في موقف الوالي المنكوب في حالتي الأمن والخوف، قصد إظهار جبنه وضعفه، فهو يظهر للناس في الحالة الأُولى شجاعاً صلباً كأنما هو عُقاب السماء المُحلق عالياً بجناحيه، ولكن سرعان ما تنكشف الحقيقة إذا ما جئنا إلى الحالة الثانية، وهي حالة الخوف، التي يبدو فيها المهجو جباناً ضعيفاً مُستسلماً كضعاف الطير التي لا تقوى على المواجهة.

ويتحدّث الشاعر ابن الرُّومي في مقطوعة له عما حلّ بآل طاهر، مشاهير الولاة العباسيين، من مصائب ونكبات مؤلمة أتى الزّمان بها عليهم، بيد أنّه ينظر إلى ذلك نظرة إيجابيّة، فهو يرى أنّ ما أصابهم لم يكن حيفاً ولا ظُلماً من الزمان عليهم، بل كان عدلاً؛ لأن آل ظاهر أسرفوا وتجاوزا في الطغيان كلّ حدّ، وعادوا الزمان وساعدوا على عدائه، وحموا من

---

(١) رقأت: سكت وجفت وانقطع جريانها.

(٢) العقاب: طائر معروف من الكواسر، وابن ماء: طائر صغير يألف الماء، والدّجن: إلباس الغيم الأرضَ وأرجاء السّماء.

سبب الخوف والهلع للناس، فكان طبيعياً أن يأتي الزمان بجنايته عليهم، وأن ينتقم لنفسه، يقول الشاعر[١]:

تَفكـــــرّتُ فـــــي حَيْـــــفِ الزَّمـــــانِ عَلـــــيكُمُ

فلـــــم أره عنـــــد التَّأمُّـــــلِ ظَالمـــــا[٢]

أجـــرتُمْ عليـــه مَـــنْ أخـــافَ، ومـــن يُجِـــره

عليـــه ويحفظْـــه يهـــجْ منـــه عارمـــا[٣]

ومَـــنْ لـــم يـــزل يَبْتَـــزُّ فَريســـةً

يكـــن قَمِنـــاً أنْ لا يُـــرى منـــه سَـــالما[٤]

لقد أظهر الشاعر تأملاً وتفكراً عميقين وهو يُصدر حكمه على عَدالة ما حلّ بالطاهريين الذين نالهم ما كسبت أيديهم، وحلّ بهم ما كان متوقعاً، فإنّ من عادى الزمان عاداه، ومن عرّض نفسه للأخطار أصابته، كمثل من ينازع الليث الشديد فريسته، فإنّه يعرّض نفسه للخطر، ومن الجدير ألا تُرافقه السّلامة.

ويلاحظ الباحث في نهاية هذا الفصل أن الشعر الذي قيل في هجاء الولاة والقادة العباسيين كان غنياً في معانيه، وقد شارك فيه العديد من الشعراء الذين حاولوا نقد هذه الفئة من رجال الدَّولة وبيان عيوبها وسوء إدارتها ومعاملتها للرعية وما رُكّب من طبائع السُّوء، كما وقفوا موقفاً آخر من نكبات هذه الفئة، معتبرين ما حلّ بها من عدالة الزمان وتدابير القدر.

---

(١) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٦، ص٢٢٧٨.

(٢) الحيف: الجور والظلم.

(٣) أجرتم: حميتم وأنفذتم، ويهج: يثير، والعارم: الشديد أو المشاكس.

(٤) يبتز: ينزع ويأخذ بجفاء وغلظة، وقمناً: جديراً.

الفصـــل الرابـــع : هِـــجـــــاءُ القُـــضـــاة

* **بواعث هجاء القضاة**.
* **معاني هجاء القضاة**.
* **موقف الشعراء من نكبات القضاة**.

* بواعث هجاء القضاة.

مثّل القضاة في هذا العصر رأس السلطة القضائية العباسيّة، وتُعدُّ هذه السلطة مسؤولة أمام الخليفة عن تدبير شؤون الشرع، وتنفيذ الأحكام، وإقامة العدالة بين أفراد الرعيّة، وفض الخصومات وفق أحكام الشرع الإسلاميّ. وقد أصبح القضاة في هذا العصر من كبار رجال الدولة العباسيّة، يحظون بمنزلة رفيعة من لدن الخلفاء والوزراء والولاة، ويقيم لهم المجتمع وزناً كبيراً؛ نظراً لقربهم من رأس السلطة السياسية، وتسلّمهم المراكز الشرعيّة المهمة في الدّولة.

وقد شهد هذا العصر عشرات الشواهد للقضاة الشُّجعان العُدول الذين اشتهروا بعدلهم واستقامتهم وتقواهم وورعهم وخوفهم مقام ربهم، وكان يُصدرون أحكامهم الشرعيّة بكل شجاعة وعدل وإنصاف، لا تلومهم في ذلك لومة لائم، وكثيراً ما اصطدمت أحكامهم وأقضيتهم برغبة السلطة الحاكمة، ولكنهم أصروا على إنفاذ حكم الشرع والدفاع عن المظلومين والوقوف في وجه الظالمين، مهما كلف الأمر، ويُمكن للقارئ أن يُطالع عشرات الوقائع والقصص التي أوردها القاضي وكيع في كتابه "أخبار القضاة"؛ ليقف على مستوى ما كان عليه القضاة آنذاك من القوة والشجاعة التي تخولهم إصدار الأحكام الشرعيّة، من غير خوف أو وجل.

وفيما يُقابل هذا المشهد الإيجابي تسرب الضعف والفساد إلى طائفة من القضاة العباسيين، وانحرفوا عن أحكام الشرع التي كُلفوا بالأمانة عليها، فجاروا في الأحكام، ودخلت الشهوات إلى أقضيتهم، وخافوا سطوة الظالم فلم يُنصفوا المظلوم، ومنهم من باعوا أنفسهم بعَرضٍ رخيص من المال، وأخذوا الرِّشوة من أجل تزوير الأحكام، وأساءوا إلى أنفسهم وأمانة القضاء حين انحرف فريق منهم نحو ارتكاب المُحرمات والمفاسد، وهو ما سهّل الطريق أمام الشعراء للتعرض لهم بالهجاء والنقد، فنظموا القصائد والمقطوعات التي تفضح سلوكهم المشين، وتُعريهم أمام المجتمع، وقد كان هذا الهجاء في جوهره سياسيّاً؛ لأنّه قصد قضاةَ الدولة، وكشف عن سوء تصرفهم في أحكام النظام القضائي.

ويلاحظ الباحث أن الشعراء العباسيين كانوا يُعبرون في هجائهم للقضاة عن مواقف سياسيّة وشخصيّة، وكثيراً ما التقت مواقفهم السياسيّة مع الشخصيّة في التعبير عن سخطهم من بعض القضاة، وكان أنجحهم من حاول أن يُناسب بين معاني الهجاء ومنصب القاضي ومكانته الشرعية، كأن يتحدّث عن ظلمه وجوره وعسفه وأخذه الرشوة وبعده عن التقى والورع، على أن بعض الشعراء– كما سنرى – لم يُوفقوا في هجاء فريق من القضاة حين لم يهتموا بالملاءمة بين معاني الهجاء، وما يجب أن يتحلى به القضاة، فليس من المناسب أن يُعير القاضي بحسبه ونسبه، ويشار إلى ضعة أصله، أو عيوبه الخَلقية، أو أنَّه مِزْواج أو مِطْلاق، أو نحو ذلك من المعاني التي لا تعيب عمل القاضي العادل وسيرته القائمة على العدل والموضوعية بين الناس.

لقد بدت مواقف الشعراء من القضاة سلباً أو إيجاباً واضحة منذ قيام الدولة العباسيّة، فقد وجد من الشعراء من يركز أشعاره في هجاء قاضٍ بعينه، ووجد من الشعراء من يتقرب إلى القضاة ويخلع عليهم المدائح، ووجد من يمدح القضاة ثم يهجوهم، وكانت الميول السياسية والشخصيّة هي الباعث للشعراء على هجو القضاة أو مدحهم، ولنا أن نتمثل هنا بموقف الشاعر المتشيع السيد الحميري من القاضي العدل عبد الله بن سوّار العنبريّ، قاضي المنصور في مدينة البصرة، إذ وقف هذا الشاعر من هذا القاضي موقفاً شديداً لأسباب مذهبية، إذ كان عبد الله بن سوار يرفض شهادةَ الروافض، ويُظهر المحبة للصحابة والسلف الصالح، ولذا رفض شهادة السيد الحميري وطرده من مجلس القضاء، فعمل السيد الحميري شعراً يهجو به القاضي سوّار، فمن ذلك قوله يستعدي الخليفة المنصور على قاضيه[١]:

يـــا أمـــينَ اللهِ يـــا "مَنْـــ ... ـــصـــورُ" يـــا خَيْـــرَ الـــوُلاةِ
إن "سَـــوّارَ بـــن عبـــد اللـــ ... ـــه" مـــن شَـــرِّ القُضـــاةِ
إن "ســـواراً" لأعمـــى ... مـــن ذوِي جَهْـــرٍ جُنـــاةِ[٢]
نعثلـــيٌّ جَمَلـــيٌّ ... لَكُـــم غَيْـــرُ مُـــواتِ[٣]
جَـــدُّهُ ســـارقُ عَنْـــزٍ ... فَجْـــرةٌ مِـــنْ فَجَـــراتِ[٤]
لرســـولِ اللهِ والْـــ ... ـــقاذِفُـــهُ بـــالمُنكراتِ
والـــذي كـــان يُنـــادي ... مـــن وراء الحُجـــراتِ
يـــا هَنـــاةً اخـــرُجْ إلينـــا ... إننـــا أهـــلُ هَنَـــاتِ[٥]
سَـــنَّ فينـــا سُـــننا ... كانـــت مواريـــثَ الطُّغـــاةِ
فَهجونـــاهُ، ومَـــنْ نَهْجـــو ... يُصَـــبْ بالفـــاقراتِ[٦]
مَـــدَحنا المـــدْحَ، ومـــن نَـــ ... ـــرُ مْ يُصَـــبْ بـــالزَّفراتِ
فَاكْفِنيـــهِ، لا كفـــاهُ اللـــ ... ـــهُ شَـــرَّ الطَّارقـــاتِ[٧]

---

(١) السيد الحميري، الديوان، مصدر سابق، ص٦٠- ٦١، والأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٧، ص٢٧٤- ٢٧٥.

(٢) ذوو الجهر: الذين نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت عالٍ من وراء الحجرات.

(٣) نعثلي: نسبة إلى رجل اسمه نعثل من أهل مصر طويل اللحية، وجملي: أي منسوب إلى وقعة الجمل، أي هو أنصار السيدة عائشة والصحابة الكرام.

(٤) قيل إن أحد أجداده وهو عنزة بن نعثل سرق عنزاً لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٥) أهل هنات: أهل أخطاء يسيرة.

(٦) الفاقرات: الدواهي الكاسرات.

(٧) الطارقات: المصائب التي تطرق الناس فجأة.

وواضح من هذه الأبيات أن الشاعر يتهم القاضي بالسوء وعماية البصيرة، ويأخذ عليه ما أحدثه في القضاء من سُنن الطغاة، ويسخر من طول لحيته، ثم يتفرغ إلى حشد بعض الإشارات التاريخية التي يتخذها مَعْبراً للطعن على القاضي، ولا سيّما حادثة المناداة على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من وراء الحجرات التي شارك فيها بعضُ أجداد القاضي، كما قيل، وهي حادثة لا يحمل القاضي أوزارها ما دام قائماً بأحكام الله عدلاً، وكما في الإشارة إلى حادثة سرقة عنزٍ لآل بيت الرسول اتهم بها جدّه المشارك في الحادثة السابقة. وواضح أنَّ هجاء السيد الحميري مبعثه الاختلاف المذهبي مع القاضي سوّار الذي أقصى الشاعر ومنعه من أداء الشهادة، ولعل وصف القاضي بأنه "جَمَلي"، أي نسبة إلى وقعة الجمل المشهورة، فيه دلالة واضحة على أن القاضي سوّار كان على مذهب السَّلف، وهو ما جعل الشاعر المتشيع يُشنع عليه.

ولعل ما يؤكد هذه الوجهة قول السيد الحميريّ من قصيدةٍ أُخرى يهجو القاضي نفسه[١]:

وأنـــتَ يـــا "ســـوّارُ" رأسٌ لهـــمْ ... فـــي كُـــلِّ خِـــزيٍ طَالِـــبِ الثَّـــارِ
تَعيـــبُ مـــن آخـــاه خَيْـــرُ الـــورى ... مِـــنْ بَـــينِ أطهـــارٍ وأخيـــارِ[٢]
وقـــال فـــي "خُـــمٍّ" لـــه مُعلنـــاً ... مـــا لـــم يُلقّـــوه بإنكـــارِ: [٣]
مـــن كُنْـــتُ مـــولاهُ فهـــذا لـــه ... مُـــولّى، فكونـــوا غَيْـــرَ كُفّـــارِ

يعود الشاعر لترديد رأيه السابق في القاضي سوّار، متهماً إياه بتوجيه العيب والنقد إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كرّم اللهُ وجهه، مبيناً أنّ شرف عليّ عظيم في الإسلام، فهو من الرسول بمنزلة عظيمة، وله بين الصحابة مكانة جليلة، ويستدعي الشاعر حادثة "غدير خم" التي تؤكد وثاقة الصلة التي قررها الرسول، صلى الله عليه وسلم، بعلي حين أعلن حقيقة المحبة والصلة التي تربطه بعليّ كرم الله وجهه.

وقد ظلت العلاقة، للأسباب المذهبية المعروفة، متوترة بين القاضي سوّار والشاعر الحميري، حتى شكا القاضي سوار السيّد الحميري إلى الخليفة أبي جعفر المنصور بعد أن هجاه،

---

(١) السيد الحميري، الديوان، مصدر سابق، ص١٠٨.

(٢) يعني علياً بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(٣) خُمّ: اسم غدير مشهور، قال عنده رسول الله لعلي: "من كنت مولاه فعليٌّ مولاه".

فأمر المنصور السيد أن يصير إليه مُعتذراً، ففعل، فلم يقبل القاضي اعتذاره، فقال السَّيّد يَهْجُوهُ ثانيةً[١]:

أتيـــتَ دَعـــيَّ "بنـــي العَنْبـــرِ" أرومُ اعْتـــذاراً فلـــم أُعْـــذَرِ
فَقلـــتُ لِنفســـي وعاتبتُهـــا على اللُّـؤمِ فـي فِعْلِهـا أقصـري:
أيَعتْـــذرُ الحـــرُّ ممّـــا أتـــى إلـــى رَجـــلٍ مـــن "بنـــي العَنْبـــرِ"؟!

يهجو السيد الحميري القاضي سواراً بنسبه، ويتهمه بأنَّه دعي في بني العنبر، ثم يلوم نفسه ويعاتبها لأنها دفعته إلى المجئ إلى سوّار مُعتذراً، ويرى أن هذا الاعتذار غير مُتكافئ، إذ هو حرٌّ صريح النسب، يعني نفسه، وأمّا القاضي، فهو في نظره من قومٍ لا يرتفع شأنهم إلى شأن قومه. وقد سبق أن أشرنا قبل قليل إلى أن مسلك الشعراء في القدح في أنساب القضاة لم يكن مناسباً لهجاء هذه الفئة من رجال الدَّولة.

وظل السيد الحميري يُكن مشاعر الكُره والبغضاء للقاضي سوّار، وبقي يهجوه كلما سنحت له الفرص، حتى منعه المنصور[٢]، ولما مات القاضي وشيعه الناس وواروه التُّراب استغل السيد الفرصة، فهجا القاضي بعد موته قائلاً[٣]:

يـــا مَـــنْ غَـــدا حَـــامِلاً جُثْمـــانَ "ســـوّارِ" مِـــنْ دارهِ ظاعِنـــاً مِنْهـــا إلـــى النَّـــارِ
لا قَـــدّس اللهُ رُوحـــاً كـــان هَيْكَلَهـــا، فقـــد مضـــتْ بِعَظـــيمِ الخِـــزْيِ والعـــارِ
حتـــى هَـــوَتْ قَعْـــرَ بُرْهـــوتٍ مُعذَّبـــةُ وجِسْـــمُهُ فـــي كَنيـــفٍ بـــين أقْـــذارِ[٤]
لقـــد رأيـــتُ مـــن الـــرَّحمنِ مُعْجَبـــةً فيـــه، وأحكامُـــهُ تجـــري بمقـــدارِ
فاذهـــب عليـــكَ مـــن الـــرَّحمن بَهْلَتُـــهُ يا شَـــرَّ حـــيٍّ بَـــراهُ الخـــالقُ البـــاري[٥]

يُتابع السيد الحميري هجاءه للقاضي سوّار وهو ميت، متوعداً إيّاه بالنار والخزي والعار، داعياً عليه بالويل والعذاب واللعنة والخلود في قعر جهنم.

---

(١) السيد الحميري، الديوان، مصدر سابق، ص١١٢، والأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٧، ص٢٨١-٢٨٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٧، ص٢٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٨٨، والسيد الحميري، الديوان، مصدر سابق، ص١١٠.

(٤) برهوت: قيل بئر عميقة في حضر موت لا يُستطاع النزول إلى قعرها، وقيل هي مأوى أرواح الكفار والمنافقين في نار جهنم.

(٥) البهلة: اللعنة، وبراه: خلقه.

ويعتقد الباحث أنّ السيد الحميريّ لم ينجح في مجمل أشعاره التي ذُكرت في هجاء القاضي سوّار، ولم يستطع النيل منه، لأن أكثر المعاني التي ذكرها في مهجوه لا تمت بصلةٍ إلى عمل القاضي والصفات التي يجب أن يتصف بها رجلُ الشرع، مع التأكيد على ما ذُكر سابقاً من أن المذهبية والخلافات الشخصيّة كانت تحرّك هذا الهجاء وتبعثه.

وفي بعض الأحيان، كانت أسباب الحسد والمنافسة وما تجره من عداوات تُحرّك هجاء بعض الشعراء المتنفذين للقضاة، كما في هجاء الوزير الشاعر محمد بن عبد الملك الزيَّات لقاضي القضاة في زمانه أحمد بن أبي دُواد الإياديّ، فقد أدى علو مكانة القاضي ابن أبي دُواد في خلافة المعتصم إلى اشتعال نار المنافسة والبغضاء بينه وبين الوزير الزيَّات، ونشبت العداوة بينهما، وأخذ الوزير يهجوه ويُشنع عليه، وغالباً ما انصبّ هذا الهجاء على معانٍ غير مناسبة كالطعن في النسب، أو الإكثار من الزّواج، مما لا يدخل في صميم معاني الهجاء المناسب لحال القضاة، يقول في إحدى مقطوعاته[١]:

تأيَّـــــدَ وادَّعـــــى القُربـــــا ... وأثْـــــرى واسْـــــتفادَ أبَـــــا
لِتَهْنِـــــكَ دَولـــــةٌ حَـــــدَثتْ ... فأحْـــــدَثتَ عِزُّهـــــا نَسَـــــبا
صَـــــنائِعُهُ إلـــــى الأنـــــذا ... ل تُخبـــــرُ أنَّـــــه كَـــــذَبا

يُوجّه الشاعر إلى القاضي في هذه المقطوعة تهمة ادعاء النسب إلى قبيلة إيّاد العربيّة، مؤكّد أنّه دعيٌّ في هذا النسب، مُستفيدٌ منه، إذ كسب المال وأثرى، كما استفاد القُرب من العرب، ويرى الشاعر أنَّ أفعال القاضي وإحسانه إلى أهل السفه والنذالة دلالة مؤكّدة على أنّه كذب وزوّر في هذا النسب.

ويقول الوزيرُ الزيّات في مقطوعة أُخرى طاعناً على نسب القاضي الإيادي[٢]:

أبلـــغْ دَعِـــيَّ "إيـــادٍ" إن مَـــررتَ بـــهِ ... قَـــولَ امـــرئٍ ناصـــحٍ لله والـــدِّين:
لَـــنْ تَصْلُـــحَ الأرضَ مـــا أُسْكِنْـــتَ ظاهِـــرهَا، ... ولا تـــرى العَـــدْلَ أو تلحـــقْ "بإفشـــينِ"[٣]
مـــا زلـــتُ تَحضُـــرُ للخِـــذْلانِ عـــن دَغَـــلٍ ... في القَلْـــبِ منك لهذا الدِّيـــن مَكْنُـــونِ[٤]

---

(١) الجبوري، يحيى، محمد بن عبد الملك الزيات، مصدر سابق، ص١٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٢– ٢٧٣.

(٣) الإفشين: قائد عسكري عباسي، قاد الجيش في عهد المعتصم، اتهم بالكفر والزندقة وصُلب، وكان القاضي ابن أبي دُواد مَنْ تولى مُحاكمته.

(٤) الدغل: العيب والفساد والخيانة.

وكُنْـــتَ فـــي ذاكَ لمّـــا أنْ قَصَـــدتَ لَـــهُ كـــالعَنْزِ إن بَحَثَـــتْ عـــن حَـــدِّ سِـــكِّينِ
نَحـــنُ الـــذينَ إذا عُـــدَّ العفـــافُ يُـــرى فِينـــا العَفـــافُ ومـــأوى كُـــلِّ مِسْـــكينِ

يبدأ الزيات مقطوعته باتهام القاضي الإيادي في نسبه، مؤكداً أن هذا النسب ليس صحيحاً، ويدخل بعد هذا الطعن مخاطباً القاضي متهماً إياه بالفساد الكبير الذي عمّ البسيطة بسببه، مؤكداً أن هذا القاضي مجانب للعدل، متبع للظلم والجور، منغمس في العيب والخيانة، وهو في مفاسده كأنما هو يبحث عن حتفه حتى يكون مصيره مصير القائد "الأفشين" الذي اتهم بالكفر والزندقة، وقتله الخليفة المُعتصم، ويُشبه الشاعر القاضي بالعنز التي تبحث عن حدِّ السِّكين حتى يكون حتفها بتلك السكين.

* معاني هجاء القضاة.

يأخذ الباحث بعد الحديث عن بواعث هجاء القضاة بالحديث عن أهم المعاني التي اشتملت عليها أهاجي الشعراء الموجهة إلى هذا الفئة من رجال الدّولة العباسيّة، ويجب مُلاحظة أن الشعراء نوعوا في هذه المعاني، فكانت القصيدة أو المقطوعة الواحدة تشتمل على عدّة معانٍ سلبيةٍ تؤخذ على القاضي المهجو، وكانت هذه المعاني تقف في الوجهة المُقابلة للمعاني الإيجابية التي قيلت في الثناء على القضاة الممدوحين.

- الجور والظُّلم.

ولعلَّ الشعراء العباسيين لم يأخذوا على قُضاة عصرهم أكثر مما أخذوا عليهم مُباينة العدل الذي عُيّنوا من قبل الدولة لإقامته بين الخصوم، وهكذا يجد الباحث أن اتصاف القاضي بالجور والظلم والعسف كان أهم ما اشتملت عليه الأهاجي التي نظمها الشعراء في القضاة، إذ تصوّر الشعراء أن القاضي يمكن أن يُقبل منه كل شيءٍ إلا أن يكون جائراً في أحكامه، متلاعباً في أقضيته، غير عاملٍ بالحق والعدل والإنصاف، يقول الشاعر أبو حَكيمة في هذا المعنى واصفاً القاضي يحيى بن أكثم[١]:

وُكنّا نُرجِّـــي أن نـــرى العَـــدلَ ظَـــاهِراً، فأعقبنـــــا بعـــــد الرَّجـــــاءِ قُنُـــــوطُ

لقد رجى الشاعر أن يظهر العدل ويختفي الظلم بمجئ القاضي إلى منصبه، ولكن سرعان ما تبدد هذا الرجاء، إذ بان للناس جوره وظلمه، وأعقب ذلك يأساً لدى الشاعر من فرصة ظهور العدل المتوقع على يد هذا القاضي الذي كسر التوقع بظلمه وجوره.

---

[١] المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص٢٢.

ونظير هذا قول الشاعر محمّد بن مُناذر يهجو القاضي خالد بن عبد الله الخزاعي[١]:

أيُّ قـــــاضٍ أنـــــت للظُّلـــــــــ ـــــــمِ وتعطيـــــلِ الحُقـــــوق؟!

وقريب من هذا قول أحدهم يهجو جعفر بن محمّد، قاضي سامراء[٢]:

تحكـــمُ بـــالجَورِ حـــين تَقْضـــي، فكيـــف لا تَسْـــقطُ السّـــواري؟!

يصف الشاعر في هذا البيت ما كان عليه القاضي من جور عظيم، حتى كانت أحكامه مبينة مُؤسسة على هذا الجور، ونظراً لفداحة الأحكام الجائرة التي كانت تصدر عن القاضي في مجلسه يستغرب الشاعر من بقاء أعمدة المجلس قائمة، إذ كان توقعه أن تنهار على القاضي ومن يشهد مجلسه الجائر.

- الجهل وتناقض الأحكام.

وإلى جانب الجور والظلم، عاب الشعراء العباسيون على قضاتهم جهلهم بالأحكام الشرعيّة، وسوء فهمهم لمسائل الشّرع، وعدم فقههم بقواعد الأحكام، مما أوقعهم في التناقض والاضطراب، وجعل أقضيتهم تُباين الشرع بل تناقضه، من ذلك قول أبي السري أحمد بن بديل في هجاء القاضي جعفر بن محمد، قاضي سامراء[٣]:

جُبلـــتَ علـــى مَحبـــةِ كُـــلِّ نَـــذْلٍ لئـــيمِ الأصـــلِ مَفْـــري الأديـــمِ

وقُلّـــدتَ القضـــاءَ بغيـــرِ فِقـــهٍ، فأنـــتَ مُـــذمّمٌ عِنْـــدَ الخُصُـــومِ

يشير الشاعرُ في البيت الثاني إلى جهل القاضي وعدم معرفته بالفقه، مما يعني عدم بصره بالأحكام الشرعية، ولذا، فإنَّ أقضيته التي يصدرها ستكون عن جهلٍ لا عن علم، ممّا يجعلُ الخُصومَ لا يثقون به ولا يحترمون أحكامه؛ لعلمهم أنَّ ما يصدر عنه من أحكامٍ إنما هو صادر عن قاضٍ جاهل لا علم له بما يقضي بين الخصوم.

ويقول الشاعر عبد الصمد بن المُعذَّل في هجاء القاضي إبراهيم بن محمّد، قاضي البصرة[٤]:

ويَنْظـــرُ فـــي القَضـــاءِ بِغيـــرِ علـــمٍ وأجْهـــلُ مـــا يَكُـــونُ إذا تـــأنّى

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٢، ص٣٤٦.

(٢) وكيع، أخبار القضاة، ج٢، ص١٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٠.

وكما هو حال القاضي جعفر بن محمّد، قاضي سامراء، تبدو صورة القاضي إبراهيم بن محمّد، قاضي البصرة، مُقاربة إلى حدٍّ كبير، فهو جاهل في الأحكام، يباشر أقضيته على غير علمٍ وبصيرة، والمفارقة أن جهله يزداد إذا ما أظهر الأناة والتروي في إصدار الأحكام؛ لأن الأناة عنده منبعها الجهل بالمسائل، لا التفكرّ فيها، وشتان بين الأمرين.

ويصور الشاعر محمد بن مُناذر كثرة أخطاء القاضي خالد بن عبد الله بن طليق الخُزاعي، قاضي البصرة، قائلاً[١]:

قُـــلْ لأميـــرِ المُـــؤمنينَ الـــذي ... مِـــنْ "هاشـــمٍ" فـــي سِـــرِّها واللُّبـــابْ
إن كُنـــتَ للسُّـــخطةِ عاقَبْتَنـــا ... "بِخالـــدٍ" فهـــو أشـــدُّ العِقـــابْ
أصَـــمُّ أعْمـــى عـــن سَـــبيلِ الهُـــدى ... قـــد ضَـــرَبَ الجَهْـــلُ عليـــه حِجـــابْ
كـــان قُضـــاة النَّـــاسِ فيمـــا مَضَـــى ... مِـــنْ رحمـــةِ اللهِ، وهـــذا عَـــذابْ
يـــا عَجَبـــاً مِـــنْ "خالـــدٍ" كَيْـــفَ لا ... يَغْلَـــطُ فينـــا مَـــرّةً بالصَّـــوابْ!!

يكشف الشاعر في هذه الأبيات عن نظرته السلبيّة إلى القاضي الذي استغرق جهله، وحاد عن سبيل الحقّ والهدى، ويظهر الشاعر عجبه من كثرة الأخطاء التي وقع فيها القاضي حتى أصبح الخطأ ديدنه. ويرى الشاعر أنَّ ولاية هذا القاضي الجاهل عقاب شديد من الخليفة لأهل البصرة، فإذا كان القضاة يُمثلون رحمةً من الله للناس؛ لأنّهم يقيمون العدل في الأرض، فإن القاضي الخزاعي يُمثل عذاباً للناس؛ لأنَّ جهله مدعاة لظلمه وجوره.

ويمضي ابنُ مُناذر ساخراً من اضطراب أحكام القاضي الخزاعي؛ بسبب جهله في أحكام الحدود، فبدلاً من قطع يد السّارق كان يجلده، وبدلاً من جلد القاذف كان يقطع يده، وهذا التصوير الساخر لتخليط القاضي في أحكامه ما هو إلا تعبير عن تناهيه في الجهل وعدم معرفته بأحكام الدين. ويسخر الشاعر مرّة أُخرى من القاضي الجهول حين يصور هذا الاضطراب والتخليط على أنه إحياء للسُّنة والدِّين، وهو لا يريد إلا نقيض هذا المعنى، يقول[٢]:

يَقطـــعُ كَـــفَّ القـــاذفِ المُفْتـــرِي ... ويَجلـــدُ اللِّـــصَّ الثَّمانينـــا
سَـــقيا ورَعيـــاً لـــكَ مِـــنْ حـــاكمٍ ... يُحيـــي لنـــا السُّـــنةَ والـــدِّينا

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٢، ص٣٤٦، والعلي، عدنان عبيد، شعراء مغمورون بين الفن والالتزام (١٩٨- ٦٧٥هـ/ ٨١٤- ١٢٧٧م): جمع وتحقيق ودراسة، زهران للنشر، عمّان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٢- ٢٣.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٢، ص٣٤٦- ٣٤٧، وتُنسب لمحمود الوراق، انظر: ديوانه، مصدر سابق، ص١٢٠.

ويسترسل ابنُ مناذر في سخريته من أحكام القاضي الخُزاعي الذي تمادى به الجهل في الأحكام حتى بدأ يحكم بغير شرع الإسلام، فإذا هو يأخذ بأحكام النصارى التي لا توافق أحكام الشريعة الغراء، يقول[١]:

"خالـــــدٌ" يَحْكُـــــمُ فـــــي النَّـــــا ... سِ بحُكـــــــــمِ الجـــــــــاثليق[٢]
يـــــا "أبـــــا الهيـــــثمِ" مـــــا كُنـــــ ... ـتَ لهـــــــــــذا بِخليـــــــــــق

وينتهي الشاعر إلى الحُكْم على طريقة القاضي المعوجّة في إصدار الأحكام، فهو يتنكب السبيل الجلي، ويسلك الطرق الملتوية في الأحكام، ويحيد عن واضحها، مما يفضي إلى إحقاق الباطل وإبطال الحق وأكل حقوق الخلق[٣]:

يَـــــــدعُ القَصْـــــــدَ ويَهْـــــــوي ... فـــــــي بُنيـــــــاتِ الطَّريـــــــق[٤]
أيُّ قـــــــاضٍ أنـــــــتَ للنقـــــــ ... ـــــــضِ وتبطيـــــــلِ الحُقـــــــوق

ويكشف البيت الأول عن المسلك السلبي للقاضي، فهو يدع الحق الواضح لكلِّ ذي عينين مُعتمداً، ويميل به الهوى إلى إتباع الشبهات، حتى يكون قضاؤه مخالفاً لأساس العدل وإحقاق الحقّ. ويصل الشاعر في خاتمة مقطوعته إلى مُكاشفة القاضي متوجهاً إليه بكلِّ صراحة، مُبيناً له عدم أهليته للمنصب الذي تولاه، لأنه منصب لا يستحقه إلا من كان جديراً به، قادراً على تحمّل أمانته العظيمة، يقول:

يـــــا "أبـــــا الهيـــــثمِ" مـــــا أنـــــ ... ـــــتَ لهـــــــــذا بِخَليـــــــــق
حَبْلُـــــــهُ حَبْـــــــلُ غُـــــــرورٍ ... عِنْـــــــدهُ غيـــــــرُ وثيـــــــق
لا ولا أنـــــــت لمـــــــا حُمّلـــــــ ... ـــــــتَ منـــــــه بمُطيـــــــق

وممّن هُجي من القضاة بالجهل ومُباينة المنهج الواضح في إقامة الأحكام الشرعية على أُصولها القاضي بِشر بن الوليد الكنديّ الذي قال فيه أحد الشعراء يُخاطب الخليفة المأمون[٥]:

يـــــا أيَّهـــــا الملـــــكُ المُوحـــــدُ رَبّـــــهَ ... قاضـــــيك "بِشـــــر بـــــنُ الوليـــــد" حِمـــــارُ
ينفـــــي شَـــــهادةَ مَـــــنْ يـــــدينُ بمـــــا بـــــه ... نَطَـــــقَ الكتـــــابُ وجـــــاءت الآثـــــارُ

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج٢، ص٣٤٦.

(٢) الجاثليق: من رؤساء النصارى.

(٣) العلي، عدنان، شعراء مغمورون بين الفن والالتزام، مصدر سابق، ص٣٨.

(٤) بُنيات الطريق: الطرق الملتوية غير الواضحة.

(٥) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، مصدر سابق، ج٨، ص٥٩٧.

ويَعـــدُّ عَـــدلاً مَـــنْ يقـــول بأنَّـــه شَـــيخٌ يُحـــيطُ بجســـمهِ الأقطـــارُ

ولعلَ وصف القاضي بالحمار، هو أبشع ما يدل على جهله وعدم تمكنه من علم القضاء الذي يقضي به بين الخصوم، ومن مظاهر جهله أنّه لا يقبل شهادة العدول ممن يعرفون الله، عزّ وجلّ، ويتبعون القرآن والسُّنة، ويأخذ بشهادة أصحاب المقولات الشاذة التي تباين ما كان عليه السّلف الصالح من العقيدة الصافية والاستقامة الواضحة.

وبالغ الشاعر محمد بن مناذر في تصوير مدى جهل القاضي خالد بن طليق الخزاعي فجعل جهله ملازماً له في كُلِّ أوقاته، حتى لكأنما استحال إلى آلة استسقاءِ الماء – ساقية – التي تظل في حركة دوران مُستمر[١]:

الحمـــــدُ للهِ علـــــى مَـــــا أرى "خالـــدٌ" القاضـــي و"عيســـى" أميـــرْ
لكـــن "عيســـى" نَوكُـــهُ ســـاعةً ونَـــوكُ هـــذا مَنْجُنـــونٌ يَـــدورْ[٢]

ويتحدّث الوزير محمّد بن عبد الملك الزيات في بعض أشعاره عن تلاعب قاضي جَبَّل بالأحكام القضائية، وتغيير الحُكم تبعاً للهوى، إذ كان يصدرُ الحُكم لأحد الخصوم على وجه الحقّ، لكنه كان يرجع عن الحق إلى الباطل إذا ما جاء الخصم الآخر، ويدلّ هذا النقضُ على تلاعبه بالأحكام تلاعباً يدلُّ على جهله وجوره، يقول[٣]:

قضـــى لِمُخاصِـــمٍ يَومـــاً فلمّـــا أتـــاهُ خَصْـــمُهُ نَقَـــضَ القضـــاءُ!

- الانحراف الخُلقي.

واجه القضاة إلى جانب اتهامهم بالجهل والظلم والعسف وتناقض الأحكام اتهاماً خطيراً تمثل في انحراف أخلاقهم، وسُوء سلوكهم الاجتماعيّ، إذ سوّلت لهم أنفهسم – كما يشير بعض الشعراء – أن يهووا في دَرك الرذيلة الكُبرى، رذيلة اللواط والغرام بالغلمان المُرد[٤]. ويبدو أن هذا المسلك الشاذ الذي تسرب إلى الأوساط الاجتماعية في هذا العصر، لم يسلم منه بعض ضعاف النفوس من القضاة، ولا يستطيع الباحث أن يجعل هذه التهمة الشنيعة لصيقة بالقضاة عامة، ففي ذلك إساءة وعدم موضوعية في إصدار الحكم.

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج١٨، ص٢١١، والعلي، عدنان، شعراء مغمورون بين الفنّ والالتزام، مصدر سابق، ص٣٤.

(٢) النوك: الحمق، والمنجنون: ما يُستقى عليها الماء.

(٣) الجبوري، يحيى، محمد بن عبد الملك الزيّات، ص١٤٣.

(٤) التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص١٦٥.

والذي يبدو من تتبع الإشارات والأخبار والأشعار الواردة هنا وهناك، أن بعض القضاة اتهموا فعلاً بملاحقة الغلمان ومطاردة المردان، وربما ممارسة الفاحشة معهم، لكن هذا السلوك ظل سلوكاً فردياً، لا عاماً، ولعل الشعراء بالغوا في كثير من الأحيان في تصوير انغماس بعض القضاة في هذا المسلك، ولا سيما ما قالوه عن قاضي القضاة يحيى بن أكثم الذي أصبح رمزاً للقاضي اللُّوطيّ الذي لا يكاد يسلم الغلمان منه.

وتدّل أخبار هذا القاضي على أنّه كان مفتوناً بالغلمان، حتى جرّ عليه ذلك تهمة اللواط[١]. وقد لخص الإمام الذهبي صفوة ما رُمي به القاضي ابن أكثم فقال: "ودُعابة يحيى مع المُرد أمرٌ مشهور، وبعض ذلك لا يثبت، وكان ذلك قبل أن يشيخ"[٢]. وكان الإمام أحمد بن حنبل، وهو ممن عاصر ابن أكثم، يُنكر اتهامه إنكاراً شديداً ويُدافع عنه[٣].

وقد تناول عددٌ من شعراء القرن الثالث القاضي يحيى بن أكثم في أشعارهم مُتهمين إياه باللواط اتهاماً لا تنقصه الصراحة، مُتعجبين من أن يلي هذا المنصب الشريف مَنْ يُجاهر بركوب الغلمان وفعل هذه الرذيلة الحيوانية، متأسفين على ضياع صفات المروءة والورع والخشية والتقوى التي يجب أن يتحلّى بها قاضي المسلمين، وثمة رواية يسوقها صاحب "الأغاني" مفادها أن الخليفة المأمون الذي عيّن يحيى بن أكثم قاضياً للقضاة اكتشف في أحد مجالسه ميل قاضيه إلى الغلمان، فأنكر عليه ذلك بقوله متمثلاً[٤]:

مَتـــى تَصْـــلحُ الـــدُّنيا ويَصـــلحُ أهلُهـــا وقاضـــي قُضـــاةِ المُســـلمينَ .....!!

وهذا البيت أحد بيتين لإبراهيم اليزيدي قالهما في هجاء يحيى بن أكثم، وأولهما قوله[٥]:

وكُنـــا نُرجّـــي أن نَـــرَى العَـــدلَ ظَـــاهِراً فأعقبنـــــا بَعْـــــدَ الرَّجـــــاءِ قُنُـــــوطُ

وفَضْلاً عن اليزيديّ، هاجم شاعر آخر، هو ابن أبي نُعيم، القاضي ابن أكثم، متهماً إياه صراحةً بارتكاب كبيرة اللواط، متهكماً من طريقته في إثبات حكم الزنا ونفي حكم اللواط؛ لميله لممارسة تلك الرذيلة، بل شغفه بها، ودفاعه عن أهلها، يقول[٦]:

أميرُنـــــا يَرْتَشِـــــي، وحَاكِمُنـــــا .....، والـــرأسُ شـــرّ مـــا راسِ

---

(١) انظر: الثعالبي، ثمار القلوب، مصدر سابق، ص١٥٦– ١٥٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج١٢، ص١٦.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مصدر سابق، ج١٤، ص١٩٨.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٢٠، ص٢٧٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٢٠، ص٢٧٢.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص٢٢.

قـــاضٍ يَـــرَى الحَـــدَّ فـــي الزِّنـــاء، ولا يَرَى علـــى مَـــنْ ..... مِـــنْ بـــاسِ
ما أحســـبُ الجَـــورَ يَنْقضـــي وعلـــى الـــ أمـــــــةِ والٍ مـــــــن "آل عبـــــــاسِ"

يبدو هذا الشَّاعر يائساً من تحقق العدل في الرعية، بسبب فساد منظومة الإدارة السياسيّة والقضائيّة كلها، فالأمير يأخذ الرشوة، والقاضي يلوط الأولاد، ويدافعُ عن هذه الرذيلة، ولا يُقرر عقوبةً رادعة لمن يرتكبها، ولكنه – في الوقت نفسه – ينفذ الحدّ فيمن يزني، على أن الفعل الأول هو أقبح من الفعل الثاني وأشد تحريماً. وينتهي الشاعر إلى قطع الأمل بالإصلاح، وتحقق العدل، ما دام العباسيون يستولون على مقاليد الأُمور، وفي هذا كشف عن حقيقة موقف الشاعر من العباسين الذين نشروا الجور بحكمهم، ولم يطبقوا أحكام العدل بين الناس الذين كرهوا سُلطانهم، وتضايقوا من جوره، وتمنوا زواله.

وشارك البحتري في دائرة الهجاء التي التفت حول القاضي يحيى بن أكثم، ولم يكتفِ برميه بتهمة الشذوذ الجنسيّ، حتى أضاف إليه القِيادة، أيّ تقديم النساء للرجال على سبيل الزنا والعُهر والدّعارة، ونسبه إلى صنعة التقيين، أي بيع الجواري والقيان في سوق النخاسة، وكلها مثالب تقدح في نزاهة القاضي وعدالته وعفته وتقاه، يقول فيه[١]:

يُبْـــــدي لنـــــا زِيَّ القُضـــــاةِ وسَـــــمْتَهُم
وأجـــــلُّ طُعَمتِـــــهُ مـــــن التَّقيـــــينِ
.....
.....
حتـــــى إذا حَـــــذِقَ القِيـــــادةَ كُلَّهـــــا
بـــــاع القيـــــانَ وجـــــدَّ فـــــي التَّعيـــــينِ
وقَضَـــــى مظـــــالمَ جَـــــدِّهِ مُتَحَرِّيـــــاً
فَـــــــتَخلَّصَ ..... بالمـــــــــأبونِ

تبدو صورة القاضي ابن أكثم هُنا مُنسجمة مع صورته النمطية السابقة التي رسمها شعراء ذلك العصر، فالقاضي يظهر خلاف ما يبطن، فهو يخرج على الناس بهيئة القضاة وسمتهم المهيب، ولكنه في خفائه يمارس كُلّ رذيلة تسيء إلى مركزه القضائي، فهو يشتغل بتجارة الجواري والقيان، ويكسب أموالاً طائلة من هذه التجارة الفاسدة التي تحوّلت به إلى ممارسة القِيادة، فأصبح قواداً يسوق النساء إلى الرجال؛ لممارسة الزنا والسّفاح والحرام، وبعد هذا كلّه، يجلس القاضي في مجلس القضاء ليقضى وفق أحكام الشرع، لكنه يُحرّف ويُبدل ويزور، فلا

---

[١] البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣٦٢– ٢٣٦٣.

يمضي الأحكام على اللوطيين الذين يتخلصون من الأحكام التي تواجههم؛ بسبب تواطء القاضي معهم.

وتجاوز بعضُ الشعراء اتهام القاضي يحيى بن أكثم بأنّه يفعل اللواط إلى اتهامه بأنُّه يُفعل به أيضاً، فهو يُمارس الشذوذ الجنسيّ – كما يصور بعض الشعراء – فاعلاً ومفعولاً به، يقول أحد شعراء البادية فيه[١]:

قُل "لابنِ أكثم يحيى" خِبتَ من رَجُلٍ ... يُرى إلى أقبحِ الأفْعالِ مَنْسُوبا
فِسْقاً وبُخلاً وأخْلاقاً مُذممّةً ... إن كُنتَ في الجُبِّ ركّاباً ومَرْكُوبا[٢]

ويدلّ شعر آخر لابن أبي نُعيم على أن قضاة آخرين غير يحيى بن أكثم كانوا ابتلوا بهذه الآفة الدنيئة، غير أن يحيى اشتهر من بينهم[٣]، يقول الشاعر[٤]:

يا ليتَ "يحيى" لم يَلده أكثمُهْ ... ولم تَطأ أرضَ "العِراق" قَدَمُهْ
..... قاضٍ في "العراق" نَعْلَمُهْ ... أيّ دواةٍ لم يُلْقها قَلمُهْ

ويشير البيت الثاني إلى أن الشاعر كان يعرف قضاةً آخرين غير يحيى رُموا بممارسة اللواط، ولكنه يجعل يحيى أشدّهم ارتكاباً لهذا الإثم. ويعود الباحث ليؤكد أنَّ التهمة لا يصح تعميمها على مجتمع القضاة برمته، فهذا الفعل إن كان وقع فعلاً من بعض القضاة، بسبب الانحلال الخلقي والفساد الاجتماعي، فهو حالات خاصة لا يجوز أن تتخذ حكماً عاماً.

- خيانة الأمانة.

تنوّعت مآخذ الشعراء ومطاعنهم على القضاة، مما لا ينحصر تحت موضوع بعينه، فركزوا فضلاً عن ظلمهم وجورهم وفساد أخلاقهم على معنى خيانتهم الأمانة، فقد هجا بديع الزمان الهمذاني القاضي الظالم الذي يعتدي على أموال اليتامى ظلماً وعَسفاً، ويحشو بطنه وجيبه بهذا المال الذي أُؤتمن عليه، فخان أمانته، وامتدت يده إليه بغير حق، حتى جرّ ذلك أثراً سلبياً، فسمن القاضي لأكله أموال اليتامى، وهزل اليتيم لتعدي القاضي على أمواله، وهذا ما جرّ

---

(١) وكيع، أخبار القضاة، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٦.

(٢) الجب: البئر.

(٣) التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص١٦٦– ١٦٧.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص٢٢، والثعالبي، ثمار القلوب، مصدر سابق، ص١٥٨.

الأُم الثَّكلى إلى البكاء من جَور القاضي الذي ضيع أموال أيتامها، ولم تستطع أن تدافع عنها، يقول[١]:

يـــا مَـــنْ يَلـــي أمـــرَ القَضـــا ... ءِ، وذاك مـــن سُـــوءِ القَضـــاءِ
ويـــلٌ لقاضـــي الأرضِ يَـــو ... مَ الـــدِّينِ مـــن قاضـــي السَّـــماءِ
كَـــمْ مِـــنْ يَتـــيمٍ قـــد حشـــو ... تَ غنـــاه فـــي ذاكَ الوعـــاءِ
ولـــربَّ ثَكلـــى قـــد تركـــ ... ـتَ بعينهـــا أثـــرَ البُكـــاءِ
فَســـمنتَ مـــن هَـــزلِ اليتـــيمَ ... نَعَـــم ومِـــنْ غَـــزلِ الإمـــاءِ

ويبدو أن البديع الهمذاني لا يتوجّه إلى قاضٍ بعينه، بل وجّه خطاباً عاماً إلى سائر القضاة الذين يسلكون منهج الظلم والتعدي و الجور، فهو ينتقد ابتداءً سوء اختيار هؤلاء القضاة الظلمة لتولي منصب القضاء الذي يمثل العدالة والأمانة والشرع، ويرى الهمذاني أن سوء القضاء هو الذي ولّى أُولئك القضاة الظلمة في تلك المناصب الشرعيّة الحساسة، ويتوعد – من ثم – قضاة الأرض إن جاروا ولم يعدلوا بالعذاب والهوان يوم القيامة، يوم يقف هؤلاء القضاة الظالمون بين يدي القاضي العدل، سبحانه وتعالى، فيحاسبهم بما عملوا، وينصف المظلومين منهم، ويرد الأحكام الجائرة التي قضوا بها في الدُّنيا.

ثُمَّ يمضي الهمذاني مبيناً أهمَّ صُور الجور والتعدي التي يأتي بها القضاة الظلمة، وفي مقدمتها استغلال ضعف اليتامى، ووصايتهم عليهم، والتعدي على أموالهم بالسلب والنهب، حتى إنهم ليأكلون منها من غير حسيب ولا رقيب، فيكون في ذلك خيانة للأمانة، وأكل للأموال التي حرّم الله أكلها. ويختم الشاعر مشيراً إلى صورة أُخرى من فساد قُضاة الظلم، وهي ضعفهم أمام النساء، وجريانهم وراء الغزل والتشبب بالمرأة، وهي علاقة ضعف أُخرى تناقض ما يجب أن يكون عليه القاضي من الورع والخشية والتقوى والعفاف.

ويشير البحتري إلى جملةٍ أوسع من المآخذ والمثالب التي تجلت في شخص القاضي ابن أبي الشوارب، فهو يشير بدءاً إلى علو رواتبه الشهريّة، ويسوق ذلك على سبيل السخرية والتهكم، فهو يرى أن المئتي ألف التي يتقاضاها القاضي عند رأس كل شهر ليست كبيرة، وهو يريد العكس تماماً. ثم يُسجل انتقاداً آخر لهذا القاضي الذي تعدّى على أموال اليتامى، فوقف إلى جانب الأوصياء الأقوياء، ونصرهم على اليتامى والضعاف، وفي ذلك جور وعسف وظلم

---

[١] الهمذاني، بديع الزمان، أحمد بن الحسين (ت ٣٩٨هـ)، ديوان بديع الزمان الهمذاني، دراسة وتحقيق: يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٣١.

لليتامى، ويتجاوز ظلم القاضي أكل أموال اليتامى، إلى الضعف إمام المرأة، فهو ينصرها على الرجل الذي فرض الله له حق القوامة على المرأة، يقول[١]:

ومـــا قـــاضٍ لـــه مِائتـــانِ ألفـــاً مِـــنَ الأرْزاق فـــي شَـــهْرٍ بِغَـــالِ!
نَصَـــرتَ الأوصـــياءَ علـــى اليتـــامى وقَـــدّمت النِّســـاءَ علـــى الرِّجـــالِ!

ويُتابع الشاعر هجاءه للقاضي الذي وصل به الأمر إلى التعدي على الأوقاف التي تُحبس لتنفق في سبيل الله على الضعاف والفقراء والمساكين، حتى إنه ليرى نفسه أحق بهذه الأموال الموقوفة ممّن يستحقها بحكم الشرع. ويختم الشاعر مقطوعته راصداً مُخالفة أُخرى من مخالفات القاضي الشرعية، إذ كان يقضي شهواته بشرب زقاق الخمر، فهو يُنادم المخمورين، وتصل درجة سكره إلى شُرب بقايا الزقّ؛ لإفراطه في الشرب، ورغبته في المزيد، حتى لو كان هذا المزيد كريهاً مُهاناً، يقول[٢]:

وأحْـــرزتَ الوقـــوفَ، فكُنـــتَ أولـــى بهـــنَّ مـــن الكَلالـــةِ والمَـــوالي[٣]
فـــلا تُشْـــلَلْ؛ فـــنعمَ أخـــو النَّـــدامى وســـاقي فَضْـــلةِ الـــزِّقّ المُـــذالِ[٤]

- الشره.

هجا بعض الشعراء القضاة العباسيين بصفة الشره وكثرة الأكل وسعة البطن، فقد هجا الشاعر علي بن الجهم القاضي أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دُواد واصفاً إياه بالشره والنّهم والبطنة، يقول[٥]:

شَـــرِهاً إذا ذُكِـــرَ المَكـــارمُ والعُـــلا ذَكَـــرَ القَلايـــا مُبـــدئاً ومُعيـــدا[٦]
ويـــودُّ لـــو مُســـخت "رَبيعـــةُ" كُلّهـــا وبنُـــو "إيـــاد" صَـــحْفةً وثَريـــدا

تبدو المفارقة في فرط اهتمام القاضي بالطعام والأكل، فإذا ذَكَرَ الناس المكارم ذكر المقليات من الأطعمة، ودأب على ذكرها، وهو من فرط حُبّه للطعام، يتمنى أن تمسخ كبار قبائل العرب إلى صحافٍ ثريد يأكلُ منها!!

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٦٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٨٦٣.
(٣) الوقوف: الأوقاف والأحباس، والكلالة: ما لم يكن من النسب لحاً، أو ما خلا الوالد والولد.
(٤) المُذال: المُهان.
(٥) ابن الجهم، الديوان، مصدر سابق، ص١٢٦.
(٦) القلايا: الأطعمة المقلية.

- النفاق.

ومن المعاني التي وقف عندها شعراء الهجاء في هذا العصر معنى نفاق القُضاة، فمن ذلك ما سجله البحتري في إحدى مقطوعاته على القاضي يحيى بن أكثم، إذا رسم له صورةً من صُور النفاق، فقد كان القاضي يظهر بوجهين لجلسائه، فإذا كان الجليس حاضراً أطراه ومدحه وأسمعه ما يسره، وإن غاب لم يأمن الغيبة، وتكلم فيه القاضي قادحاً وذاماً، فلا يحمي الجليس منه إلا أن يكون حاضراً، ولا يسلم من هذا المسلك المتناقض الصديق فَضْلاً عن غيره، مما يعني أن جانب القاضي لا يُؤمن أبداً، يقول[١]:

أعمـــى لَـــهُ بَصَـــرٌ يعيـــبُ صَـــديقَهُ ... يـــأتي المَثالـــبَ فـــي خَفـــاً وسُـــكونِ

....

كَمْ ثَـمَّ مِـنْ وَصْـفٍ يَسُـرَّكَ حَاضِـراً ... ومـــعَ المَغيـــبِ فلـــيسَ بالمـــأمونِ

ورُغم مُعاناة القاضي ابن أكثم من ضعف البصر الذي يجعله الشاعر لوناً من العمى، فإنَّ بصره يبدو قوياً إذا ما تعلّق الأمر باستحضار عيوب الأصدقاء ونشر مثالبهم، وتلك مفارقة يُؤسسها الشاعر ليرسخ مدى ما كان عليه القاضي من التناقض والتذبذب وعدم المصالحة مع نفسه، ويكمل الشاعر بناء هذه المفارقة صورة هذا التناقض الصَّارخ حين يجعل القاضي مزدوج السلوك، فمن كان حاضراً سمع من القاضي ما يسرّه، ومن كان غائباً وقع فيه القاضي، ولم يرحمه بلسانه.

ووجد بعضُ الشعراء في نقض القضاة عُهودهم ومواثيقهم وخيانتهم للأمانات والأيمان المغلظة مدعاة إلى هجائهم والتشنيع عليهم ورميهم بالكذب والنِّفاق وسوء الأخلاق وشهادة الزور وإخلاف العهد والذمة، ولنا أن نستشهد على هذا المسلك بقصيدة أحد الشعراء العباسيين في هجاء القاضي محمد بن يوسف الذي أعطى العهود والأمان والمواثيق باسم الخليفة المكتفي لبدر بن خير القائد، غلام المعتضد وقائد جيشه، ثم لم يفِ له بذلك، بل اتهمه الناس بأنه كان السبب في قتل بدر، والقصيدة[٢]:

قُـــلْ لقاضـــي "مَدينـــةِ المَنْصـــورِ" ... بـــمَ أحللـــتَ أخـــذَ رأسِ الأميـــرِ!

بَعْـــدَ إعطائـــه المَواثيـــقَ والعَهْـــ ... ـــدِ وعَقْـــدِ الأيمـــانِ فـــي مَنشُـــورِ

أيـــن أيمانُـــكَ التـــي شَـــهدَ اللـــ ... ـــهُ علـــى أنّهـــا يَمـــينُ فَجُـــورِ

أنَّ كفيّـــكَ لا تُفـــارِقُ كَفّيـــ ... ـــهِ إلـــى أن تـــرى مَلِيـــكَ السَّـــريرِ

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣٦١- ٢٣٦٢.

(٢) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، مصدر سابق، ج١٠، ص٩٣.

يـــا قَليـــلَ الحَيـــاءِ، يـــا أكـــذبَ الأُ ... مَـــــةِ، يـــا شـــاهداً شـــهادةَ زُورِ
لـــيس هـــذا فِعْـــلَ القُضـــاةِ ولا يُحْـــ ... ســـــن أمثالَـــــهُ ولاة الجُسُـــورِ
أيِّ أمـــرٍ رَكِبـــتْ فـــي الجُمعـــةِ الزَّهـــ ... راء مـــن شَـــهْرِ خَيـــرِ خَيـــرِ الشُّـــهورِ
قـــد مَضَـــى مَـــنْ قَتلـــتَ فـــي رَمضـــانٍ ... صَـــائماً بَعْـــدَ سَـــجدةِ التَّعفِيـــرِ
يا "بني يُوســفَ بــن يعقــوب" أضْــحى ... أهـــلُ "بغـــدادَ" مِـــنْكُم فـــي غُـــرورِ
بَـــدّد اللهُ شَـــمْلكمْ، وأرانـــي ... ذُلَّكُـــمْ فـــي حَيـــاةِ هـــذا الـــوزيرِ
فأعِـــدَّ الجـــوابَ للحكَـــمِ العـــا ... دِلِ مِـــنْ بَعْـــدِ مُنكَـــرٍ ونَكيـــرِ
أنـــتمُ كُلّكـــمْ فِـــدْا لأبـــي حَـــا ... زم المُســـتقيم كُـــلَّ الأُمـــورِ[1]

ينتقد الشاعر في قصيدته مسلك القاضي المراوغ الذي أغرى بدراً القائد وغَرّر به حتى ساقه إلى حتفه، مُغايراً ما يجب أن يقوم به القاضي العدل من وفاء العهود والمواثيق لا خيانتها والتنكر لها، ولا سيّما أن الأمر متعلق بدم امرئ مُسلم. ويرى الشاعر أن سلوك القاضي لا ينسجم مع أفعال القضاة، ولا يُقبل حتى من رجال الشرطة، فكيف من القاضي الذي يجب أن يقيم العدل ويحارب الجور.

ويصور الشاعر مقتل بدر، وهو صائم في شهر رمضان المبارك، وفي يوم الجمعة، وبعد أداء الصلاة، وهي حُرمات عظيمة تشير إلى بشاعة الجُرم، وسوء اختيار توقيته، ولذا، فإن الشاعر يُنهي قصيدته بالدُّعاء على القاضي وآل بيته جميعاً بالويل والثبور وتشتيت الشمل وحياة الذل والهوان، هذا في الحياة الدُّنيا، وأما بعد الموت، فإن الشاعر يطلب إلى القاضي الخؤون أن يُعدَّ الجواب لمنكر ونكير في القبر أولاً، ثم لله الحكم العادل الذي سيقتص من القاضي الذي خان عهده وأمانته، وكان سبباً في سفك دم امرئ مُستأمن أُخذت له العهود الغليظة. ويختم الشاعر – أخيراً– بالثناء على القاضي أبي حازم الذي لم يخن أمانة القضاء، كما خانها القاضي المهجو محمد بن يوسف.

- أخذ الرِّشوة.

تطرّق بعضُ الشعراء إلى اتهام القضاة في هذا العصر بقبض الرشاوى والبراطيل في سبيل تغيير مجرى العدالة والجور في الأحكام وإبطال الحق؛ يقول الشاعر ابن طباطبا العلوي في قاضٍ مُرتشٍ[2]:

---

(١) أبو حازم: قاضٍ ذو علم ودراية، رفض أن يأخذ العهود باسم المكتفي لبدر، فطلبوا إلى القاضي محمد بن يوسف، فأخذها، انظر: المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج٤، ص٢٧٧.

(٢) ابن طباطا، الديوان، مصدر سابق، ص١٨٦.

يـــا خَليلـــي يـــا "أبـــا الغَيـــثِ" دَرَك نَصَـــبَ القاضـــي لـــك اليـــومَ شَـــرَكْ
طَلَـــبَ البِرْطيـــلَ فابذلْـــهُ لَـــهُ يســـكت القاضـــي وإلا ذَكـــرك[١]
لا يَهولنَّـــــكَ دِيْنيّتـــــهُ أعطـــاه مِـــنْ رِشْـــوةٍ مـــا حَضَـــرَكَ[٢]

تُصوّر هذه الأبيات حالة الفساد التي وصل إليها بعض القضاة العباسيين الذين كانوا لا يتورعون من طلب الرِّشوة من الخصوم حتى يسكتوا عنها، ويصوّر الشاعر طلب البراطيل كالشرك الذي كان القاضي ينصبه، وكان هو يصطاد فريسته، ويوجه الشاعر صديقه أبا الغيث إلى ضرورة دفع الرشوة إلى القاضي، ليسلّم من أذاه، مُفصحاً أنَّ أداء الرِّشوة إلى القاضي أصبح أمراً طبيعياً لا يدعو إلى الهول والاستغراب.

- الحرص على الدنيا.

أخذ الشعراء العباسيون على القضاة تكالبهم على الدُّنيا ولهاثهم وراء حُطامها الزائل، رُغم ما يزعمونه من ذمّها والتشنيع عليها أمام الناس، مما يشير إلى مناقضة أقوالهم لأعمالهم، يقول ابن الرومي في ذمِّ القضاة[٣]:

الأ إنمـــا الـــدُّنيا كجيفـــةٍ مَيتـــةٍ وطُلابهـــا مثـــلُ الكـــلابِ النَّواهِسِ[٤]
وأعظمُهُـــمْ ذمَّـــاً لهـــا وأشـــدُّهم بهـــا شَغَفـــاً قَـــومٌ طِـــوالُ القلانسِ[٥]

لم يذكر ابن الرُّومي فئة القضاة بشكل صريح، ولكنه كنى عنهم بذكر هيئة ملابسهم التي هي أشبه بزي يعرفون به، فهو يرى أن هذا الفئة هي أشدّ الناس شغفاً بالدُّنيا وإقبالاً على شهواتها وملذاتها.

وإذا كان ابن الرومي أوجز رأيه في القضاة المتهالكين على الدُّنيا، رُغم ما يشيعونه عنها من صُور القدح والذم، يسترسل الشاعر محمود الورّاق في رسم صُورتهم السَّلبيّة وتكالبهم على طلب الدُّنيا ورتبها الزائلة، يقول[٦]:

رَكبُـــوا المراكـــبَ واغْتَـــدَوا زُمَـــراً إلـــى بَـــابِ الخَليفـــةْ
وصَـــلُوا البُكُـــورَ إلـــى الـــرَّوا حِ ليبلُغُـــوا الرُّتـــبَ الشَّـــريفةْ

---

(١) البرطيل: الرشوة.
(٢) الدِّينة: الدين والعبادة.
(٣) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٢٨.
(٤) النواهس: التي تعض.
(٥) القلانس: الثياب الطويلة، من أزياء القضاة.
(٦) الوراق، الديوان، مصدر سابق، ص١٠٠- ١٠١.

حتَّـــــى إذا طَفِـــــروا بمـــــا ... طَلَبُـــوا مِـــنَ الحـــالِ اللَّطيفـــةْ
وَغَـــــدا المُـــــوَلّى مـــــنهُمُ ... فَرِحـــاً بمـــا تَحـــوي الصَّـــحيفةْ
وتَعسَّـــــفُوا مَـــــنْ تَحْـــــتهم ... بـــــالظُّلمِ والسِّـــــيرِ العَنيفـــــةْ
خـــــانُوا الأمانـــــةَ بالخيـــــا ... نـــــةِ، واشْـــتَروا بـــالأمنِ جِيفـــةْ
عَقُـــــدوا الشُّـــــحومَ وأهْزلُـــــوا ... تلـــــك الأمانـــــاتِ السّـــــخيفةْ
ضَـــــافتْ قُبُـــورُ القَـــومِ واتَّســـــ ... ـــــعت قُصُـــــورهُم المُنيفـــــةْ
مِـــــنْ كُـــــلِّ ذي أدبٍ ومَعْـــــ ... ـــــرفةٍ وآراءٍ حَصـــــيفةْ
مُتَفقـــــهٍ جَمَـــــعَ الحدَيـــــ ... ـــــثَ إلـــى قِيـــاسِ أبـــي حَنيفـــةْ
فأتـــــاكَ يَصْـــــلحُ للقضـــــا ... ءِ بلحيـــــةٍ فَـــــوقَ الوَظيفـــــةْ
لـــــم يَنْتفـــــع بـــــالعِلمْ إذ ... شَـــــغَفتْهُ دُنيـــــاهُ الشَّـــــغوفةْ
نَسِـــــيَ الإلـــــهَ ولاذَ فـــــي ... الـــــدُّنيا بأســـــبابِ ضَـــــعيفةْ

تُقدّم هذه القصيدة نقداً شديداً لسلوك رجال القضاء الذين أصبحوا علماء سلطان، وتسابقوا إلى أبواب الخلفاء، طمعاً في الحصول على مغانم الدنيا من منصب وجاه ومال، حتى إذا حصلوا مُرادهم من ذلك، عادوا مملوئين بالفرح والنشوة والحبور، وجلسوا بعدها للفصل بين الخصوم مُمارسين الظلم والجور العسف، مستعملين العنف والقوة في فرض أحكامهم الجائرة على ضعاف الخلق، ويصفهم الشاعر بهذا المسلك بالخيانة وعدم الأمانة، إذ إن الخليفة الذي منحهم الرُّتب وعينهم في هذه المناصب طلب إليهم إشاعة العدل وإحقاق الحق، ولكنهم خانوا أمانته واتبعوا طرق الخيانة، فظلموا وجاروا وارتشوا وباعوا ضمائرهم بأتفه المغريات، حتى داخل حبّ الدُّنيا أنفسهم، فطاروا وراءها يلهثون، فبالغوا في البنيان واتخاذ القصور العاليات، وسمنت أجسامهم جراء أكل الأموال التي ائتمنوا عليها حتى ورمت وعلاها الشحم الزائد.

ويبين الشاعر أن هؤلاء المتفقهين الذين جمعوا علماً وأدباً ودرايةً ورواية، وأطالوا لحاهم فوق الحدّ، لم تنفعهم علومهم، إذ كان شغفهم بالدُّنيا وحطامها قد استولى عليهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، ولم يتفكروا في مآلهم ورجوعهم إلى خالقهم، وظنوا أن جاههم وأموالهم وقصورهم تمنعهم من الانتقال من سعة الدُّنيا إلى ضيق القبور.

ووجد بعضُ الشعراء أن صفة الجمع والمنع تطغى على بعض القضاة، فوقفوا يصورون ما رُكب في طباعهم من شح وبخل يُناقضان مع سماحة النفس وكرم السجايا التي يجب أن

يتحلى بها القاضي، من ذلك قول أبي تمام يهجو القاضي أبا الوليد محمّد بن أحمد بن أبي دُواد[١]:

أتطمـــــعُ أن تُعـــــدَّ كَـــــريمَ قَـــــومٍ وبابـــــكَ لا يُطيـــــفُ بـــــه كَـــــريمُ؟!

فالشاعر يعد القاضي في جملة الجامعين المانعين المُبخلين، ومع ذلك، فهو يرجو أن يقال عنه كريم أو جواد أو معطاء، وإزاء هذا التناقض بين ما هو كائن وما هو مأمول، يبدي الشاعر استغرابه من رجاء القاضي وأبوابه موصدة أمام طالبي المعروف من الناس.

وقريب من هذا المعنى قول الشاعر عُمارة بن عَقيل يهجو القاضي يحيى بن أكثم ويصف منعه وبخله[٢]:

إذا كنـــتَ نرجـــو دَرَّ مـــولًى كَلالـــةً لـــه ثَـــروةٌ، المـــالُ والمنـــزلُ الفَّخـــمُ
فـــلا تَـــرجُ دارَ "الأكثمـــيِّ"؛ فإنَّـــه كَثيـــرُ العُقـــودِ، لا عظـــامٌ ولا لحـــمُ
وخرّوعـــةُ الـــوادي يَطـــولُ فجـــاءةً ولَـــيْسَ لَـــهُ عُـــودٌ صَـــلبٌ، ولا طَعْـــمُ

- الطعن في الأحساب والأنساب.

وفضلاً عن المعاني الآنفة، وجد الشعراء العباسيون الطريق سائغة للطعن في أنساب القضاة وأحسابهم، والانتقاص من أُصولهم، أو تفنيد ما يدعونه من نسبٍ مُلفقٍ لا أساس له من الصّحة، ورُغم أهمية هذا المنحى وتركيز كثيرٍ من الشعراء عليه، ذهب الدكتور قحطان التميمي إلى القول بأن هجاء القضاة بأنسابهم ليس أمراً كبير الأهمية[٣]، ولعله أراد تأكيد أهمية المعاني الآنفة التي تدل في صميم عمل القاضي، وأن مسألة النسب لا تعد من صميم تلك المعاني التي يجب على الشاعر أن يكون مدركاً لها من أجل توفير عناصر النجاح للأُهمية.

ولعل قاضياً لم يطعن الشعراء في نسبه كقاضي المعتزلة أحمد بن أبي دُواد الإياديّ، فقد تناول نسبه عدد من الشعراء المعاصرين له كالوزير الزيّات، ودعبل، والبحتري، قد سبقت أن الإشارة إلى بعض أشعار الوزير ابن الزيات في هجاء القاضي الإيادي بنسبه، ومن ذلك أيضاً قوله يعيب عليه اسم والده، يقول[٤]:

"فَـــرَجٌ" قـــالوا اســـمُ والـــدِ مَـــنْ يَتَعـــاطى الفقـــهَ والحِججـــا

---

(١) أبو تمام، الديوان، مصدر سابق، ص٥٣٧.

(٢) ابن عقيل، عمارة بن عقيل الخطفي (ت ٢٣٩هـ)، ديوان عمارة بن عقيل، جمع وتحقيق: شاكر العاشور، دار الينابيع، الطبعة الأُولى، دمشق، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٨٩.

(٣) التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص١٧٠.

(٤) الجبوري، يحيى، محمد بن عبد الملك الزيات، مصدر سابق، ص١٦٦.

إنْ يكُـــنْ هـــذا اســـمُ ذي حَسَـــبٍ فمُنِعـــتُ الـــرُّوحَ والفَرجَـــا

وأمّا دعبل الخزاعي، فقد صبّ جام غضبه على القاضي الإيادي، فنظم عدداً من القصائد والمقطوعات في الطعن على نسبه، وإنكار اتصاله بقبيلة إياد، ولجأ تارةً إلى استخدام أُسلوب الفحش، وتارةً إلى توظيف أُسلوب التهكم، ومن الأمثلة على الأُسلوب الأول قوله[١]:

إنَّ هـــذا الـــذي "دُوادُ" أبُـــوهُ و"إيـــادٌ"، قَـــدْ أكثـــرَ الأنَبـــاءَ
..... ليـتَ شِـعْري عَنْـهُ فمـنْ أيـن جـاءَ!
جاء مِـنْ بـين صَـخْرتينِ صَـلودَ يْـ ـــنِ عَقـامَينِ يُنبتـان الهبـاءَ[٢]
لا سِـــفاحٌ ولا نِكـــاحٌ، ولا مـــا يُوجـــبُ الأُمهـــاتِ والآبـــاءَ!

ومن الأمثلة على أُسلوب السخرية قولُ دعبل يُخاطب القاضي أحمد بن أبي دُواد ويهجوه[٣]:

أبـــا "عبـــدِ الإلـــه" أصِـــغْ لِقـــولي وبَعْـــضُ القـــولِ يَصـــحبُهُ السَّـــدادُ[٤]
تـــرى "طســـماً" تعـــود بهـــا اللّيـــالي إلـــى الـــدُّنيا، كمـــا رَجَعـــت "إيـــادُ"؟[٥]
قَبائـــلُ جُـــذَّ أصـــلُهُم فبَـــادوا، وأودى ذِكـــرُهُمْ زَمَنـــاً فَعـــادُوا[٦]

وتتمثل السخرية في هذه الأبيات في إضافة الشاعر قبيلة إياد، قبيلة القاضي العدنانية، إلى جُملة القبائل العربية البائدة التي لم يبقَ ما يدلّ عليها، وقد ألحق الشاعر قبيلة القاضي بجُملة هذه القبائل التي انتهى أمرها إلى الزوال والانحلال، في إشارة منه إلى ضعف اتصال القاضي بهذه القبيلة التي يدعي الانتساب إليها.

أمّا البحتري، فله في هجاء أحمد بن أبي دُواد والطعن في نسبه إلى إياد[٧]:

يـــا "أحمـــدَ بـــنَ أبـــي دُؤَادِ" والحادثـــات بكُـــلِّ نـــادِ
مـــاذا رأيـــت إذا انتسبـــ ـــت إلـــى "إيَـــاد" فـــي إيَـــادِ؟!

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٩٤- ٩٥.
(٢) صلودتان: قاسيتان، وعقام: أيّ عقيم لا يُولد له ولد.
(٣) المصدر نفسه، ص١٦٦.
(٤) أبو عبد الإله: أبو عبد الله، وهي كنية القاضي أحمد بن دُواد، وأصخ: اسمع.
(٥) طسم: من قبائل العرب البائدة، وإياد: قبيلة القاضي.
(٦) جُذّ: قُطع.
(٧) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٨١٤.

ومع إيمان الشاعر العميق بأن القاضي انتسب إلى إياد ادعاءً، فإنه يرى أن هذا النَّسب لا يُجدي شيئاً ولا ينفع، ويتساءل من ثم ما الذي وجده القاضي في إياد حتى ينتسب إليها، وهل في هذا النسب من تأييد له في نفي الحادثات والمصائب إذا نزلت به؟!

- العيوب الجسدية.

وإلى جانب التهمة والطعن في الأحساب والأنساب، وجد بعض الشعراء في هجاء القضاة بعيوبهم الجسمية وهيئاتهم الشخصية سبيلاً آخر يتعانق مع ثلب أخلاقهم النفسيّة والشخصيّة، ولعله لا يخفى أن عمود الأُهجية يقوم على تعداد الصفات السلبيّة والنفسيّة والخُلقية والشخصيّة، غير أن ذلك لم يمنع بعض الشعراء من الخروج على هذا العمود بتعداد الصفات السلبيّة الجسميّة والخلقيّة، إن كان هذا المنحى أقل أهمية من سابقه. ومن هنا عاب الشعراء على بعض القضاة عاهاتهم الخلقية وسخروا منها، يقول دعبل الخزاعي في هجاء قاضي القضاة يحيى بن أكثم حين ولى حيان بن بشر قضاء الجانب الشرقي من بغداد وسوار بن عبد الله العنبري قضاء الجانب الغربي، وكلاهما كان أعور[١]:

رأيـــتُ مـــن الكبـــائرِ قَاضِـــيينِ ... هُمـــا أُحدوثـــةٌ فـــي الخَـــافقينِ
همـــا اقتَســـما العَمـــى نِصْـــفينِ قَـــدْرا ... كمـــا اقْتَســـما قَضـــاءَ الجَـــانبينِ
وتَحســـبُ مِنْهمـــا مَـــنْ هـــزَّ رأســـاً ... لِينظُـــرَ فـــي مَواريـــثٍ ودَيـــنِ
كأنَّـــك قـــد جَعلـــتَ عليـــه دَنّـــاً ... فتحـــت بُزالَـــهُ مـــن فَـــردِ عَـــينِ[٢]
هُمـــا فـــألُ الزَّمـــانِ بِهُلْـــكِ "يَحْيـــى" ... إذ افْتَـــتَحَ القَضـــاءَ بـــأعورينِ

يُبدي الشاعر استنكاره الشديد لما يراه من ولاية القاضيين الأعورين لشرقي بغداد وغربيها، ويُعدُّ ذلك من الكبائر العظيمة التي طار ذكرها في الشرق والشرق، وعرفها القاصي والداني، مشيراً إلى أن القدر شاء أن يقتسم هذان القاضيان العمى، فكل منهما أعور لا يرى إلا بعين واحدة، ثم يسخر الشاعر من منظر قاضٍ يشرب الدمع من عينه العوراء – وهو يصدر الأحكام بين الناس – كما يشرب الخمر من دنٍّ مثقوب، وهذا ما يثير غمز الآخرين وهمزهم، ويُضعف هيبة القاضي في نفوس الحضور[٣]. وينتهي الشاعر إلى تغيير وجهة نظره في آخر المقطوعة، ويظهر الاستبشار بولاية هذين القاضيين الأعورين؛ لأنهما من وجهة نظره فأل

---

(١) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٣٥٨، ونُسب الشعر للجمّاز، انظر الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، مصدر سابق، ج٩، ص١٨٩.

(٢) البزال: موضع البزل، أي الفتح من إناء الخمر.

(٣) التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث، مصدر سابق، ص١٧١.

بهلاك قاضي القضاة يحيى بن أكثم الذي أمر بتعيينهما في سُدّة القضاء، ويقول البحتري هاجياً القاضي يحيى بن أكثم مُعيراً إياه بالعمى[١]:

أعمـــى لـــه بَصَـــرٌ يعـــينُ صـــديقَهُ يـــأتي المَثالـــبَ فـــي خَفـــاً وسُـــكونِ

وكثيراً ما صوّر الشعراء القضاة بالصُّور الحيوانية، كما في تصوير القاضي بشر بن الوليد الكندي بالحمار، يقول أحد الشعراء مخاطباً المأمون[٢]:

يـــا أيّهـــا الملـــكُ المُوحّـــدُ رَبّـــه قاضـــيك "بشـــرُ بـــنُ الوليـــدِ" حِمـــارُ

وكما في تصوير القاضي أحمد بن أبي دواد الإيادي بالغُراب، يقول الوزير ابن الزّيات[٣]:

وقـــالوا: هـــل رأيـــتَ "أبـــا دُوادٍ" فقلـــتُ: نعـــم "أبـــا الحُبـــابِ"
فقـــالوا: لا عليـــك رأيـــت منـــه كأشـــبه بـــالغُرابِ مـــن الغُـــرابِ

وكما في تصوير القاضي أبي الوليد محمد بن أحمد أبو دواد الإيادي بالضَّبُع، يقول عليّ بن الجهم في صفته[٤]:

وإذا تَربَّـــعَ فـــي المجـــالسِ خِلتـــه ضَـــبُعاً وخِلـــتَ بنـــي أبيـــه قُـــرُودا

وتعدّى بعضُ الشعراء إلى انتقاد بعض الملامح الجسديّة لبعض القضاة، كما في هجاء علي بن الجهم للقاضي أبي الوليد مصوراً بشاعة مبسمه وثناياه ومنخاريه، يقول[٥]:

وإذا تبسّـــم ضَـــاحكاً شَـــبّهته شَـــرِقاً تَعجّـــل شُـــرْبَهُ مَـــزْؤودا
لا أصْـــبحتْ بـــالخيرِ عَـــينٌ أبصـــرت تِلـــكَ المنـــاخرَ والثّايـــا السُّـــودا

وتبدو السخرية واضحة في تصوير أُسلوب القاضي إذا أسفر عن أسنانه مُبتسماً، فكأنه إنسان غصّ بالماء شرقاً، فكادت روحه تخرج من بين جنبيه، وهو تصوير يشي بمدى بشاعة ابتسامة القاضي التي كان متوقعاً أن تكون ابتسامةً لطيفةً، لا بشعة.

ونُلاحظ أن الشعراء كانوا يطاردون القضاة بأشعارهم اللاذعة، وكثيراً ما دخلوا عليهم في حياتهم الشخصيّة، وبسطوا ألسنتهم في نقد سلوكاتهم التي لا علاقة لها بالقضاء، فمن ذلك نرى

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣٦١.
(٢) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، مصدر سابق، ج٨، ص٥٩٧.
(٣) الجبوري، يحيى، محمد بن عبد الملك الزيات، مصدر سابق، ص١٥١.
(٤) ابن الجهم، الديوان، مصدر سابق، ص١٢٦.
(٥) المصدر نفسه، ص١٢٦.

أن عدداً من الشعراء شاركوا في نقد زواج القاضي أحمد بن أبي دواد امرأتين من بني عجل، واتخذوا هذه الحادثة وسيلة للتفكه والتسلية والسخرية، يقول دعبل الخزاعي[١]:

أيـــا للنَّـــاسِ مـــن خبـــرٍ طَريـــفٍ ... يُغـــرِّدُ ذكـــرُهُ فـــي الخَـــافقينِ!
"أعِجْـــلٌ" أنكحُـــوا "ابـــنَ أبـــي دُوادٍ" ... ولـــم يتـــأملّوا فيـــه اثنتـــينِ؟!
أرادُوا بعـــضَ عاجلـــةٍ فبـــاعُوا ... رَخيصـــاً عَـــاجِلاً نَقْـــداً بـــدَينِ
بضـــاعةُ خاســـرٍ بـــارتْ عليـــه ... فَباعَـــكَ بـــالنَّواةِ التَّمـــرتينِ
ولـــو غَلَطـــوا بِواحـــدةٍ لَقُلْنـــا ... يكـــونُ الـــوهمُ فـــي العَـــاقِلينِ
ولكـــنْ شَـــفْعُ واحـــدةٍ بـــأُخرى ... يـــدلُّ علـــى فَســـادِ المَنْصـــينِ
لحـــا الله المعـــاشَ بفـــرجِ أُنثـــى ... ولـــو زَوَّجتهـــا مِـــنْ ذِي رُعَـــيْنِ
ولمـــا أن أفـــادَ طَريـــفُ مـــالٍ ... وأصـــبحَ رَافِـــلاً فـــي الحُلْتـــينِ
تكنّـــى وانتمـــى لابـــن "أبـــي دُوادٍ" ... وقـــد كـــان اســـمُهُ ابـــنَ الفـــاعِلينِ
فَـــردُّوهُ إلـــى "فَـــرَجٍ" أبيـــه ... و"زِريـــابٍ"، فـــألامُ والـــدِّينِ

أخذ دعبل يزفُّ هذا الخبر الطريف، ويصيح به في الناس، كأنه أُعجوبة من أعاجيب الزمان، مقدّماً تفسيراً لهذا الزواج غير المتكافئ الذي استمال – كما يقول عبد الكريم الأشتر– إلى صفقة تجارية، خسر فيها الطرف الأول، ولم يربح الطرف الثاني...، وواضح أن هذا الهجاء قائم في أساسه على أساليب السخرية، وتضخيم المعايب، والعبث بأبعادها ومعانيها المألوفة[٢].

وقال الوزير الزيّات في الحادثة نفسها[٣]:

مـــا بالُـــهُ وابنُـــهُ لـــمْ ... يُزَوَّجـــا عَرَبيّـــهْ
ولا أبـــوه علـــى مـــا ... بهـــم مـــن العَصـــبيّهْ؟!
لكـــنّهم حِـــيْنَ صَـــارُوا ... إلـــى الأُمـــورِ السَّـــنيهْ
قـــد أبعـــدوا فـــي التَّمنـــي ... وأرْغَبـــوا فـــي العَطيّـــهْ
فـــلا جَـــزى اللهُ عِجْـــلاً ... والعُصْـــبة الدُلَفيّـــهْ

---

(١) انظر: دعبل، الدِّيوان، مصدر سابق، ص٢٩٧، والأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٩-١٥٠، ٢١١.

(٢) الأشتر، عبد الكريم، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، مصدر سابق، ص١٠٠-١٠١.

(٣) انظر: الجبوري، يحيى، محمد بن عبد الملك الزيات، مصدر سابق، ص٢٨٥- ٢٨٦، والأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٩- ١٥٠، ٢١١.

خَيْـــــــراً ولا تـــــــرك اللَّـــــــــــــــهُ فـــــــيهم مـــــــن بَقيّـــــــةْ

* موقف الشعراء من نكبات القضاة.

وجد بعض الشعراء في المصائب والنوازل التي أُلحقت ببعض القضاة فرصة سانحة للتشفي الذي يُعدُّ أحد أساليب الهجاء السياسي البارزة، ولنا أن نستشهد على هذا المنحى بقصيدة الشاعر عليّ بن الجهم في هجاء القاضي أحمد بن أبي دواد يوم أن أُصيب بالفالج، يقول الشاعر[١]:

لـــم يَبْـــقَ مِنْـــكَ ســـوى خَيالِـــكَ لامعـــاً فـــــوقَ الفـــــراشِ مُمهَّـــــداً بِوِســـــادِ
فَرِحـــتْ بِمَصْـــرعِكَ البريّـــةُ كُلُّهـــا مَـــنْ كـــان مـــنهم مُوقنـــاً بمعَـــادِ
كَـــمْ مجلـــسٍ لهِـــا قَـــدْ عَطّلْتَـــهُ كـــي لا يُحـــدَّثَ فيـــه بالإسْـــنادِ
ولَكَـــمْ مَصـــابيحٍ لنـــا أطْفَأتَهـــا حتّـــى نَحِيـــدَ عـــن الطَّريـــقِ الهـــادِي
ولَكَـــمْ كَريمـــةِ مَعْشَـــرٍ أرمَلْتهـــا ومُحَـــدِّثٍ أوْثَقْـــتَ فـــي الأقْيـــادِ
إنَّ الأُســـارى فـــي السُّـــجونِ تَفرّجُـــوا لمّـــا أتَتْـــكَ مَواكـــبُ العُـــوّادِ[٢]
وغـــدا لِمَصْـــرعكَ الطَّبيـــبُ فلـــم يَجِـــدْ لِـــدواءِ دائـــك حِليـــةَ المُرتـــادِ
فَـــذُقِ الهـــوانَ مُعَجّـــلاً ومُـــؤجَّلاً واللهُ ربُّ العَـــرشِ بالمِرصـــادِ
لا زالَ فالجُـــكَ الـــذي بـــك دائمـــاً وفُجعـــتَ قبـــلَ المـــوتِ بـــالأولادِ

تتنفس قصيدة الهجاء هذه في جوٍّ مذهبي واضح، فالشاعر عليّ بن الجهم يُمثل توجهات أهل السُّنة في شعره، وهو يظهر تشفيه من القاضي أحمد بن أبي دُواد، قاضي المعتزلة، الذي لقي أهلُ السُّنة على يديه مصائبَ عظيمة بسبب ما عُرف تاريخياً بفتنة "خلق القرآن"، إذ كان القاضي ابن أبي دُواد رأساً مُحرضاً في هذه المحنة التي طالت الفقهاء والمحدثين، ومَنْ يعتقدون بأن القرآن الكريم كلام الله عز وجلّ، وأنه ليس بالحادث ولا المخلوق، كما زعم أهل الاعتزال.

ولما كان سلطان المعتزلة قوياً صمت الشاعر علي بن الجهم ولم يستطع أن يبوح بمشاعره وأحاسيسه السُّنية، حتى إذا اضمحل الاعتزال منذ بداية خلافة المتوكل على الله، ناصر السُّنة، وجد الشاعر ابن الجهم المجال رَحباً للهجوم على القاضي الذي أُبعد عن منصبه وغضب الخليفة عليه، أُصيب بالفالج الذي صيره رهين البيت، وقد كانت هذه الحادثة المَرضيّة التي سبقتها وفاة القاضي أبي الوليد بن أحمد بن أبي دواد في حياة أبيه[٣].

---

(١) ابن الجهم، الديوان، مصدر سابق، ص١٢٨- ١٢٩.

(٢) تفرّجوا: جاءهم الفرج، والعوّاد: الذين يزورون المريض.

(٣) انظر: الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، مصدر سابق، ج٩، ص١٦٣، ١٨٩، ١٩٧.

وبمناسبة نكبة القاضي أحمد بن أبي دواد، وإصابته بمرض الفالج، نظم الشاعر علي بن الجهم هذه القصيدة بقصد التشفي من القاضي المعتزلي الذي تزعم إيذاء أهل السُّنة، إبان المحنة التي دامت سنوات، ويصور الشاعر في قصيدته حالات الضيق والألم التي أصابت الناس بتحريض القاضي آنذاك، ثم يتحوّل إلى تصوير حالة الفرج والفرح التي أصابت الناس بعد أن أُصيب القاضي بالفالج وعُزل من منصبه، ويرى الشاعر أن مظاهر الفرح عمت البريّة كُلّها؛ لأن أذى القاضي كان قد طالهم، فوجدوا في مرضه عافية لهم.

ويتحدّث الشاعر في قصيدته عن بعض مظاهر الضيق التي آذى بها ابن أبي دواد الناس، من ذلك أنه عَطّل مجالس الحديث، ومنع المحدثين من إملاء الأسانيد، وضيق على العلماء، بل تعدّ ذلك إلى تقتيلهم وسجنهم وتقييدهم بالأغلال، فكانت نكبة عامة لأهل العقيدة القويمة، ويشير الشاعر إلى كثرة الأرامل اللواتي قتل القاضي المعتزلي أزواجهن؛ لإنكارهم أن يكون القرآن مخلوقاً، ويصوّر ما أحدث القاضي بإطفاء المصابيح بما يلزم من إطفائها شيوع الظلمة والعتمة وزوال النور والضياء.

وتضم القصيدة القائمة على ثنائية الضيق والفرج، والحزن والفرح، والظلمة والنور، مُتقابلات أُخرى تعمق هذه الثنائيات المركزية، فمن ذلك الحديث عن الفرصة الغامرة التي داخلت أهل السجون وراء القضبان يوم أن جاء الزوار يعودون القاضي المفلوج، ومن ذلك الإشارة إلى عجز الطبيب عن تحديد الدواء الذي يكون شفاء لعلّة القاضي.

ويبدو الشاعر منذ البيت الأول فرحاً بما أصاب القاضي من سوء، ويبدو ذلك بالاستهلال بمخاطبة القاضي نفسه بالحقيقة المُرّة، هي أن المرض أنهك القاضي حتى استحال إلى جثة هامدة فوق سريره، لا حول له ولا قوة ولا طول، وتتعانق خاتمة القصيدة مع بدايتها، إذ يعود الشاعر مؤكداً أن القاضي يتجرّع بعض الغَصص وآلام في هذه الدنيا، فوق ما ينتظره من حساب عسير يوم القيامة، ويختم الشاعر بالدُّعاء على القاضي أن تستمر أوجاعه وآلامه، وأن يُصاب الفاجعة فقد البنين قبل موته، وهو ما حدث فعلاً، إذ بقي الفالج مصاحباً القاضي سنواتٍ، ومات ابنه القاضي أبو الوليد قبل وفاته بمدّة وجيزة[١].

وشارك البحتري الشعراء الفرحة بنكبة القاضي ابن أبي دُواد، يقول مخاطباً الخليفة المتوكل[٢]:

أميـــــرَ المُـــــؤمنينَ، لقـــــد سَـــــكنّا إلـــــى أيّامـــــكَ الغُـــــرِّ الحِســـــانِ

---

(١) المصدر نفسه، ج٩، ص١٩٧.

(٢) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص٢٢٩٠- ٢٢٩١.

رَدَدتَ الـــدِّينَ فَـــذاً بعـــد مـــا قَـــدْ ... أراهُ فِـــــــرقتيْنَ تَخْتصـــــــمانِ[١]
قَصَـــــمتَ الظَّـــالمينَ بكُـــلِّ أرضٍ ... فأضـــحى الظُّلـــمُ مَجْهُـــولَ المكـــانِ
وفـــي سَـــنةِ رَمَـــتْ مُتَجبِّـــرهِمْ ... علـــى قَـــدَرٍ بداهيـــةٍ عَـــوَانِ[٢]
فَمـــا أبقـــت مـــن "ابـــن أبـــي دُوادٍ" ... ســـوى جســـدٍ يُخاطَـــبُ بالمعـــاني
تعـــرّب بارتبـــاطِ الجُـــزْرِ حتَّـــى ... رَمَتْـــهُ فـــي اليـــدينِ وفـــي اللِّســـانِ[٣]
ومـــا كانـــت غِـــذاهُ زَمـــانَ يَشْـــرِى ... سَـــراطين "الصَّـــراة" ويَهْرُبـــانِ[٤]
تحيّـــر فيـــه ســـابورُ بـــنُ سَـــهلٍ ... وطاولـــــه ومَنَّـــــاه الأمـــــاني
إذا أصـــحابُهُ اصْـــطَبحَوا بِليـــلٍ ... أطـــالوا الخَـــوضَ فـــي خَلْـــقِ القُـــرآنِ
يُـــدِيرونَ الكُـــؤوسَ وهـــم نَشَـــاوى ... يُحـــدِّثُنا فُـــلانٌ عـــن فُـــلانِ!

يُزجي البحتري في قصيدته فائق الشكر والتقدير للخليفة المتوكل الذي أحيا السُّنة، ونكب ابن أبي دُواد، ومنع مقولاته القائمة على الاعتزال، فعاد العدل قوياً، وزهق الظلم. ثم يتحول الشاعر إلى الحديث عن إصابة ابن أبي دُواد بالفالج الذي كان أشبه بمصيبة عظيمة استحقها عقوبة له على ما بدر منه، حتى لم يبقَ منه سوى حسد ضعيف لا يقوى على الحركة، بل إنه أصبح لا يقوى على النطق والكلام، فهو يشير بحركات بيديه تعبر عما يريد؛ لانعقاد لسانه وعدم استطاعته الكلام.

ويشير البحتري إلى أن ابن أبي دُواد تمادى في كل شيءٍ وتجاوز الحدّ، فقد طاول الكبراء، وكان يعيش في ترف ودعه، ولم يترك أُمور الناس تمشي على ما هي عليه حتى امتحنهم بفتنة خلق القرآن الكريم، فكان وأصحابه إذا ما اجتمعوا في مجالسهم خاضوا في القرآن الكريم، وقرروا أنه مخلوق، مع أنهم يغرقون في السُّكر والشراب، ولا يدرون ما يقولون.

وبمناسبة نكبة القاضي أحمد بن أبي دُواد، قال أحد الشعراء يهجوه ويأخذ عليه تأييده للمعتزلة القائلين بخلق القرآن[٥]:

لـــو كُنـــتَ فـــي الـــرَّأي مَنْسُـــوباً إلـــى رَشَـــدٍ
وكـــــان عَزْمُـــــكَ عَزْمـــــاً فيـــــه تَوفيـــــقُ

---

(١) الفذ: الفرد.

(٢) الداهية العوان: الشديدة.

(٣) الجُزر: العمود من حديد أو فضة.

(٤) السراطين: جمع سرطان وهو يعيش معروف يعيش في الماء، والصّراة: نهر في العراق.

(٥) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، مصدر سابق، ج٩، ص١٩٧.

لكَـــانَ فـــي الفقـــهِ شُـــغلٌ أو قَنِعْـــتَ بـــه
عـــن أن تَقـــولَ: كَـــلامُ اللهِ مَخْلُـــوقُ
مَـــاذا عَليـــكَ وأصـــلُ الـــدِّين يَجْمَعهـــمْ
ما كـــانَ فـــي الفَـــرعِ لـــولا الجَهـــلُ والمُـــوقِ[١]

يظهر الشاعر في هذه المقطوعة معاتبته للقاضي الذي ظلم الناس بامتحانهم بمقولة خلق القرآن الكريم، ويرى أن مسلك القاضي المتعصب للاعتزال لم يكن مسلكاً رشيداً، ولم يكن موفقاً في امتحانه للناس، ولو كان حكيماً لنبذ التعصب لمذهب المعتزلة، ولم يروّج لمقولتهم، ولكانت عنايته موجهة إلى الفقه الذي هو الأساس الذي يُبنى عليه علم القاضي، لاشتغاله بالأحكام الشرعية، ويرى الشاعر أخيراً أن حكمة القاضي كانت تقتضي أن يكون مع الناس على أُصول الدين العامة التي تجمعهم، بيد أن جهله وحماقته جرّته إلى الدخول في الفُروع وإقامتها مقام الأُصول الرئيسة.

وهكذا، يجد الباحث في خاتمة هذا الفصل من الدراسة أن المظاهر السلبية التي دخلت إلى مؤسسة القضاء في العصر العباسيّ كانت باعثاً رئيساً لتحرّك الشعراء باتجاه نقد هذه المظاهر وتمزيق القضاة بالهجاء الممزوج بالسخرية والتهكم والسّب واللعن والنقد وما إلى ذلك من أساليب. وقد وجد الشعراء في هجاء فئة القضاة فرصة سانحة لنقد الدّولة العباسيّة والنعي على نظامها القضائي الذي تسرب إليه الجور والجهل والرِّشوة وغيرها، وغدا القاضي فاقداً لكثير من مظاهر المروءة والهيبة والتقدير، بل وصل الانحطاط إلى درجة طلب الرِّشوة علانيةً.

---

(١) الموق: الحماقة.

الفصـــل الخامـــس: هِـــجـــاءُ كُتّـــــاب الدَّولـــــة

* **بواعث هجاء الكُتّاب**.
* **اتجاهات هجاء الكُتّاب**.
* **نقد جهل الكُتّاب وعدم كفايتهم**.
* **موقف الشعراء من تعيين الكُتّاب**.
* **موقف الشعراء من نكبات الكُتّاب**.
* **نقد مثالب الكُتّاب الأُخرى**.

* بواعث هجاء الكُتّاب.

تطورت الكتابة وتعددت أغراضها في العصر العباسي الذي يعد عصر الكتابة والتدوين، وقد اشتغل في هذه الصنعة مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم في ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة. ومن كان يُظهر من هؤلاء الكتاب مهارة في دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رئاسة الديوان الذي يعمل فيه. وقد تُقبل عليه الدنيا فيصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين، وقد يُصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشؤونها، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم(١).

لقد كثر الكُتّاب العاملون في مؤسسات الدولة كثرة واضحة، ويكفي القارئ أن يرجع إلى كتاب "الوزراء والكتاب" للجهشياري ليجد أمامه عشرات من أسماء الكتاب الذين كانوا على صلة وثيقة بخلفاء الدولة، مما يدل على أهمية صناعة الكتابة الديوانيّة من جانب، ووفرة أعداد الكُتّاب من جانب آخر، فَضْلاً عن عدد هؤلاء الكُتّاب ومهامهم في تسيير مهام الدولة وتصريف شؤونها العامة، وعلى ذلك، يتضح أن هؤلاء الكُتّاب – على اختلاف تخصصاتهم الديوانية – شكلوا طبقة من رجال الدولة العباسية ومُوظفيها الرَّسميين.

ويبدو لمن يتتبع أخبار الكُتّاب العباسيين أهمية المنزلة التي نالوها أدبياً وسياسياً واجتماعياً، فقد شُهر كثير منهم بفنهم الكتابي وإنشائهم البليغ، كما اقترب كثير منهم من السلطة العباسية وصاروا يكتبون باسمها ويعبرون عن وجهة نظرها، كما نظر المجتمع العباسي إلى هؤلاء الكُتّاب نظرة تقدير واحترام؛ نظراً لمنزلتهم من السلطة وقربهم من الخلفاء والوزراء والولاة، ومن هنا، تعرّض هؤلاء الكُتّاب إلى ما تعرّض له رجال الدولة الآخرون من مدائح الشعراء وأهاجيهم، فكما كشف الشعراء عن الجوانب الإيجابية عندهم، كشفوا في المقابل عن الجوانب السلبية عندهم، وجاءت أشعارهم في الهجاء أشبه ما يكون بالنقد السياسيّ الصريح الذي فضح مساوئ هؤلاء الكُتّاب وأظهر سُوء تصرفاتهم وضعف خبراتهم في صناعة الكتابة وسوء اختيارهم لمنصب الكتابة الذي يُعدُّ من المناصب الإدارية المرموقة آنذاك.

والملاحظ أن علاقة الشعراء العباسيين بالكتاب العباسيين كانت أقوى وأوثق من علاقتهم ببقية رجال الدولة، وسبب ذلك أن الكُتّاب والشعراء يرتبطان بعلاقة الأدب والإبداع، فهما أهل الأدب وأرباب صناعتي الشعر والنثر، وكثيراً ما كان الشعراء العباسيون يتقنون مهارات

---

(١) ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، الطبعة الرابعة عشرة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٤٦٥.

الكتابة، كما كان كثيرٌ من الكُتّاب العباسيين يقرضون الشعر وينظمون القصائد، ويبدو واضحاً إذن أن الشعراء والكُتّاب هما في الحقيقة من صنف واحد، ولذا كان الشعراء أعرف الناس بالكتاب وأخلاقهم وطبائعهم ومهاراتهم، ومن هنا، جاءت أهاجيهم في هذه الفئة قوية وعميقة في آن معاً.

وهكذا جمع كُتّاب الدواوين بين الصفات الإيجابية والصفات السلبية، وقد عبر الجاحظ عن هذه الحقيقة حين جلس في بعض الدواوين مُتأملاً كتابها، فقال واصفاً حالهم: "خِلقٌ حُلوة، وشمائلُ معشوقة، وتظرُّف أهل الفهم، ووقار أهل العلم، فإن أُلقيت عليهم الإخلاص وجدتهم كالزبد يذهب جُفاء، وكنبتة الربيع يُحرقها الهَيْف[١] من الرياح، لا يستندون من العلم إلى وثيقة، ولا يدينون بحقيقة، أحفز الخلق لأماناتهم، وأشرهم بالثمن الخسيس لعهودهم، الويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون"[٢].

وقد وضع الجاحظ رسالةً في "ذم أخلاق الكتاب" تحدّث فيها عن لؤم طباعهم، وسوء أخلاقهم، وذكر النماذج العملية التي تدل على مثالب هذه الطائفة من موظفي الدولة[٣]. ويبدو أن الجاحظ وضع هذه الرسالة مُتأثراً بالأجواء المحيطة بنكبة الكُتّاب المشهورة سنة ٢٢٩هـ، ففي هذه السنة اكتشف الخليفة خيانات كتابه وأثبت عليهم السرقات، فقبض على مشاهيرهم، وزجهم في السجن، وألزمهم دفع الأموال التي أخذوهم، وعذبهم عذاباً أليماً بتحريض من الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، ومن أشهرهم: أحمد بن إسرائيل، وسليمان بن وهب، وأحمد بن الخصيب، وإبراهيم بن رباح، ونجاح بن سلمة، وغيرهم[٤].

ويُلاحظ المدقق في هذا الاتجاه أن حركة هجاء الكُتّاب من قبل الشعراء بدأت مُبكرة في العصر العباسي، واستمرت في تصاعدها، وبلغت الذروة في القرن الثالث الهجري، وارتبط ذلك بكثرة التقلبات السياسيّة وانقلاب الوزارات، وهو ما انعكس على أوضاع الدواوين التي كان هؤلاء الكتاب – على اختلاف تخصصاتهم – يعملون فيها، فقد دخلت إلى هذه الدواوين عوامل الفوضى ومظاهر الفساد، وافتقدت العاملون فيها لكثير من المؤهلات اللازمة كالأمانة والعلم والوعي والمهارات الكتابية، واتصفت نفوس كثير منهم بالخيانة والحقد والمكر والشره والغرور والبخل والخبث، فكان ذلك باعثاً على تحرّك الشعراء إلى هجائهم وفضح مستورهم، والكشف عن مساوئهم وأخلاقهم الدنيئة التي أظهروها للعامة، ولا شك أن العوامل الشخصية تدخلت أيضاً

---

(١) الهيف: ريح حارة تأتي من قبل الجنوب.

(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ج٢، ص١١٩ – ١٣٤.

(٤) انظر: الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، مصدر سابق، ج٩، ص١٢٥– ١٢٨.

في هذا الهجاء ذي اللون السياسيّ، إذ كثيراً ما كان سوء العلاقة بين الشاعر المكتسب والكاتب المسؤول عن المال، يؤدي بالشعراء إلى بسط ألسنتهم في هذه الفئة التي حالت دون حصولهم على المال وسدّت عليهم باباً من أبواب رزقهم، إضافةً إلى ذلك، فإن ظروفاً شخصية أُخرى شجعت الشعراء على التعرّض بالهجاء للكُتّاب وتصويرهم تصويراً سلبياً وكشف حقيقتهم للناس.

كما يُلاحظ من جانب آخر أن عدداً كبيراً من الشعراء العباسيين شاركوا في هذه الحركة الهادفة إلى ذمِّ كُتّاب الدولة وتشويه سيرهم، ولم تقتصر هذه الحركة على غير المشهورين من شعراء العصر العباسيّ، وإنما شارك فيها كبار الشعراء كأبي نواس وأبي تمام ودعبل الخزاعي وعلي بن الجهم والبحتري وابن الرومي وغيرهم، ويعدّ البحتري وابن الرومي أوفر هؤلاء شعراً وقصيداً في هجاء الكُتّاب، ويبدو أن قُربهما من السُّلطة العباسيّة وترددها على القصر العباسي ودواوين الدولة جعلتهما على احتكاك دائمٍ بهؤلاء الكتاب ومعرفة دقيقة بأحوالهم وأخلاقهم، فجاء شعرهما – من ثَمّ – كثيراً وافراً.

* اتجاهات هجاء الكُتّاب.

يستطيع الدارس بعد استقراء مجموعة كبيرة من القصائد والمقطوعات التي تدور حول هذا الغرض تحديداً أن يفرز ثلاثة اتجاهات للشعر المنظوم في هجاء كتاب الدولة، أما الاتجاه الأول، فهو هجاء عام لطائفة الكُتّاب، وأمّا الاتجاه الثاني، فهو هجاء لبعض الأُسر العباسية المشهورة بصناعة الكتابة، وأما الاتجاه الثالث فهو خاص لبعض أعلام الكُتّاب، وفي كثير من الأحيان كانت هذه الاتجاهات الثلاثة تختلط وتمتزج مع بعضها بعضاً.

- هجاء طائفة الكُتّاب.

وفي الاتجاه الأول، يجد الباحث عدداً من المقطوعات التي تتركز حول اتهام طائفة الكتاب عامةً بالخيانة وسرقة أموال الدولة التي جعلوا أُمناء عليهم، يقول الشاعر أحمد ابن أبي فنن فيهم[١]:

رأوا مـــالَ الإمـــامِ لهـــم حَـــلالاً وقالـــوا: الديـــنُ ديـــنُ "أبي صَهارَى"
ولـــو كـــانوا يُحاســـبهم أمِـــينٌ لقـــد سَلَحـــوا كمـــا سَلَـــحَ الحُبارَى[٢]

يُحاول الشاعر هنا أن يسلط الأضواء على سلوك الخيانة الذي رُمي به الكُتّاب في هذا العصر، وهو سلوك سوغوا على أساسه سرقة أموال بيت المال، بل عدّوا ذلك من الحلال الذي

---

(١) السامرائي، يونس، شعراء عباسيون، مصدر سابق، ص١٥٧، وانظر: الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج٥، ص٤٤٨– ٤٤٩.

(٢) سلحوا: بالوا، والحبارى: طائر معروف.

لا حرام فيه، وما ذلك إلا لقلة دينهم وفساد ضمائرهم وانعدام الوازع عندهم؛ لأن الإنسان قد يأتي الحرام، ولكن البلية أن ينظر إلى هذا الحرام على أنّه حلال وأن لا حُرمة عليه فيه.

ويوجّه الشاعر بعد هذه المكاشفة، النقد إلى نظام الرقابة في الدولة العباسيّة، مُبيناً أن استغراق هؤلاء الكُتّاب في خيانة أموال الدولة سببه غياب الرقيب المدقق والمحاسب الأمين، ولو كان هذا الدور الرقابي معمولاً به لخاف أُولئك الكُتّاب من سوء العاقبة، ولكفوا أيديهم عن نهب الأموال، ولعل الصُّورة التي أوردها الشاعر في بيته الثاني، وهي صُورة إخراج الحُبارى فضلاته بصورة مُستمرة مفرطة، هدفها رسم صورة لجبن أُولئك الكتّاب وشدّة خوفهم لو كان ثمة من يراقب أعمالهم.

وإضافة إلى الخيانة التي رُمي به عامة الكتاب في هذا العصر، اتهم عامتهم بالجهل وقلّة المعرفة العلميّة، وفي ذلك ما يُناقض شُروط الكاتب المطلوبة، إذ كانوا قد وضعوا لكاتب الديوان شروطاً كثيرة، لعل من أهمّها كما يذكر القلقشندي: العلم، ووفرة العقل، وجزالة الرأي، والكفاية[١]، وقد وقف الشاعر أبو العيناء البصريّ وهو بصدد هجاء الكاتب أسد بن جوهر عند جهل طائفة الكتاب الذين جهلوا – من وجهة نظره – أُصول صفة الكتابة وقواعدها ورسومها وآدابها، مفتقرين إلى ما توجب عليهم هذه الصَّنعة من المعرفة والعلم والمهارة والدراية والكياسة، يقول[٢]:

تَعِسَ الزَّمانُ لقد أَتْى بُعِجابِ ... ومَحَا رُسُومَ الظَّرْفِ والآدابِ
وافي بكُتَّابٍ لو انْبسطتْ يَدي ... فِيهم رَدَدْتُهُم إلى الكُتَّابِ
جِيلٌ من الأنعامِ إلا أنْهم ... مِنْ بَينها خُلِقُوا بلا أذْنابِ
لا يَعْرفونَ إذا الجَريدةَ جُرِّدَتْ ... ما بَيْن عَيَّابٍ إلى عَتَّابِ

وكما هي عادة الشعراء، يُلقي أبو العيناء باللائمة على الزَّمان التعس ذي العجائب الكثيرة، ومن هذه العجاب أنَّ حفنة من الجهلاء صاروا كُتّاباً في دواوين الدولة يتحكمون بمصائر الخلق وأموالهم، وهم لكمال جهلهم لا يناسبهم أن يعملوا في الديوان، وإنما يناسبهم أن يعودوا إلى الوراء ليجلسوا في كتاتيب الصبيان؛ ليتعلموا من جديد مبادئ القراءة والكتابة، وليحصلوا بعض المهارات والمعارف التي فاتهم تحصيلها سابقاً، ويؤكد الشاعر – ههنا – أنه لو كان صاحب الحُكم على هذه الفئة من الكُتّاب الجهلاء لردهم إلى الكتاتيب ليعوضوا الجهل الذي اتصفوا به.

---

(١) القلقشندي، أحمد بن عليّ (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١، ص٩٨- ٩٩.

(٢) أبو سويلم، أنور، أبو العيناء: دراسة وتوثيق، مصدر سابق، ص١٠٥- ١٠٦.

ويصف الشاعر في البيت الثالث هذه الفئة الجاهلة بالأنعام التي لا تعقل ولا تفهم، وهو وصف شامل لكثيرٍ من مظاهر الجهل التي يُمكن أن يوصف بها الإنسان، ولا يرى الشاعر فرقاً بين أُولئك الجهلاء والبهائم سوى مسألة الأذناب التي يعدّها الشاعر العلامة الفارقة بين جهلاء الكُتّاب وبهائم الحيوانات!!.

ويختم الشاعر في البيت الأخير بمثالٍ يدلّ على مدى الجهل العظيم الذي غطى على طائفة كتاب الدواوين، إذا كانوا لفرط جهلهم لا يُدققون حتى في رسم الكلمات، فلا يُفرقون بين كلمتي "عَيّاب"، و"عَتّاب" على سبيل المثال، فتقارب صور الإملاء جعلهم لا يُميزون بما واجبه التمييز والتدقيق، فالدقة إحدى الشروط التي لا يسع الكاتب الاستغناء عنها في كتابته وإنشائه وسائر أعماله الديوانيّة.

وإلى جانب الخيانة والجهل، يتهم الشعراء العباسيون جماعة الكُتّاب في هذا العصر بسوء الأخلاق وبشاعة التصرفات واضطراب الطبائع، يقول كَشَاجم الرمليّ مُبيناً بعضَ مسالكهم السيئة[١]:

عـــدمتُ رِياســـةَ قـــومٍ شَـــقُوا ... شَبابـاً ونالـوا الغِنـى حِيـنَ شَابُوا
حَـــديثٌ بِنِعمـــتِهم عَهْـــدُهُم ... فلـيسَ لهـم فـي المَعَـالي نِصـابُ
يَـــرَوْنَ التَكَبُّـــرَ مُسْتصْـــوباً ... مِـنَ الكِبْـرِ، والـرّأيُ لا يُسْتصـابُ
فـإن كَاتَبُـوا صَادَقُـوا في الدُّعـاءِ ... كَـــأنَّ دُعـــاءَهُمُ مُسْـــتَجابُ

يستهل الشاعر مقطوعته بالدُّعاء على فئة الكُتّاب الذين لم يعرفوا الغنى إلا بعد ما حلّ بهم المشيب، فهم على ذلك من مُحدثي النعمة، وليس لهم ماضٍ عريق في الحياة الكريمة، كما أنه ليس لهم حظّ من المعالي، فهم قوم مُتكبرون مغرورون، يروون الخطأ صواباً، ولا يبالون بأصالة الرأي، وهم – أبداً – مُغرمون بكتابة الأدعية في كتبهم ورسائلهم، وكأن دُعاءهم مُستجاب لا يرده الله!!

ويشير البحتري في شعره إلى مسلكٍ آخر من مسالك الكُتّاب السيئة، وهو كثرة الأقسام والأيمان، فهم على ما فيهم من ثقلٍ يمله جليسهم ورفيقهم، يخدعون المُغترَّ بسلوكهم بإلقاء الأيمان المغلظة عليه، حتى يثق بهم، ليسهل عليهم خداعه والاحتيال عليه، يقول فيهم[٢]:

ألـــمْ تَرَنَـــي بُليـــتُ بشـــرِّ قَـــومٍ ... أقـــــلُّ إذا لِقَـــــتُهُمُ حَيـــــاتي

---

(١) كشاجم، الديوان، مصدر سابق، ص٢٩.

(٢) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٣٨٦.

إذا المُغْتَـــــرُّ لاح لهـــــم بَـــــدَوْهُ بأيْمـــــانٍ كَمِثْـــــلِ الأُمهـــــاتِ؟!

وواضح أن البحتري يُعبّر عن تجربة ذاتية عاشها مع هذه الفئة، فهو يصور هذه التجربة بالبلية، وهي بلية؛ لأن أصحابها أشرار، ثقال على النفوس، يملهم الجليس ولا يرتاح إلى مجالستهم ومحادثتهم، وهم في نفس الوقت غدّارون يُوقعون الأغرار وغير المجربين بشباكهم، ويكثرون من ضرب الأيمان الغليظة كذباً وتزويراً، يريدون أن يخدعوا الناس، حتى إذا اطمئنوا إليهم احتالوا عليهم.

وبمناسبة نكبة الكُتّاب المشهورة التي أشار الباحث إليها قبل قليل، قال عدد من الشعراء يهاجمون الكُتّاب المنكوبين ويتشفون ممّا جرى لهم على يد الخليفة الذي استطاع أن يكشف خيانة الكُتّاب وأموال الدولة، وفي هذه المناسبة قال الشاعر ابنُ أبي فَنَن يهجو الكُتّاب ويشمت بهم[١]:

نَزَلَـــــتْ بالخـــــائنينِ سَـــــنَة سَـــــنَةٌ للنَّـــــاسِ مُمتَحَنـــــة
سَـــــوَّغتْ ذا النُّصـــــحِ بُغْيَتَـــــهُ، وأزالـــــتْ دَولـــــةَ الخَونـــــة
فَتَـــــرى أهـــــلَ العَفـــــافِ بهـــــا وهُـــــمُ فـــــي دَولـــــةٍ حَسَـــــنَة
وَتَـــــرى مَـــــنْ جـــــارَ هِمَّتُـــــهُ أن يُـــــؤدي كُـــــلَّ مـــــا احتجنـــــه[٢]

يُشير الشاعر في هذه المقطوعة إلى المحنة التي نزلت بالكُتّاب الخائنين الذين لاقوا امتحاناً صعباً، فقد انكشفت خياناتهم، وظهر للناس ظلمهم وتعديهم، وزالت دولتهم وقوتهم، فأصبحوا في وضعٍ سيء مما دفعهم إلى إرجاع الأموال التي احتجزوها وسرقوها، وفي مقابل ذلك، كانت هذه المحنة نعمة ورحمة من الله لكل نظيف شريف ثم تحدثه نفسه بالسرقة، فقد علا شأن هؤلاء الشرفاء وأقبلت دولتهم بعدما زُج الخائنون بالسّجن.

* هجاء أُسر الكُتّاب.

استأثر هجاء أُسر الكُتّاب المشهورة بتعاطي الكتابة في هذا العصر بجانب مُهم من جوانب الهجاء، ومن أكثر العوائل تعرضاً للهجاء: آل وهب، وآل ثوابة، وآل فرج، وآل مخلد، وآل بسّام. وسوف نأخذ مثالاً من هذه الأُسر، وليكن آل وهب، فقد هجا هذه الأُسرة عدد من الشعراء، وانصب الهجاء في الغالب – على تعييرهم- بضرطة وهب، فقد أصبحت هذه الفعلة عند الشعراء مفتاحاً لقصائدهم في هجاء هذه الأُسر، يقول ابن الرومي[٣]:

---

(١) السامرائي، يونس، شعراء عباسيون، مصدر سابق، ص١٧٥.

(٢) احتجنه: ضمه وأخذه لنفسه.

(٣) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٣٤٥.

يـــا "آل وهـــبٍ" شِـــهدتْ ضَـــرطةٌ ... سَـــارت بهـــا الأمثـــالُ فـــي وَهْـــبِ
بأنهـــــا مـــــن ..... وأنَّهـــــا مـــــن .....
قـــد كُنْـــتم مِـــنْ قَبـــلِ إرســـالها ... أُحدوثـــةً فـــي الشَّـــرق والغَـــربِ
فـــالآنَ حقّـــاً أُطلقـــت فـــيكُمُ ... بكُـــلِّ ثَلْـــبٍ ألسُـــنُ الثَّلْـــبِ
لـــو كُنْـــتم تُعْقَـــونَ .... مـــا بِـــتُّمُ مِنْـــه مِنْهـــا علَـــى عَتَـــبِ
لكـــنهم تَحْشُـــونها دَهْـــركُم ... فكلكـــمُ .....

ويقول ابن بسّام في المعنى ذاته[١]:

ســـأذكرُ عـــن "بنـــي وهـــبٍ" أُمـــوراً ... ولـــيس الغمـــر كالرَّحـــلِ الخبيـــرِ[٢]
وأخـــلاقِ البغـــالِ إذا اســـتُميحوا ... وضَـــرْطٌ فـــي المجـــالس كـــالحميرِ
وجـــوهٌ لا تَهـــشُّ إلـــى المعـــالي ... . تَمـــشُ إلـــى .....

يعتمد الشاعر – كما هو واضح – في هجائه لآل وهب على معرفته وخبرته بهم، فهو يقدح في أخلاقهم وسلوكاتهم، ويصورهم تارة بالبغال، وتارة بالحمير، ويسجل عليهم بخلهم ومنعهم طالبي العطاء، كما يأخذ عليهم حادثة الضرطة المشهورة. وينتهي إلى نفي المعالي عنهم، مؤكداً أنهم مولعون بالشذوذ الجنسي، وهذا ما تهفو نفوسهم إليه فقط.

ويؤكد دعبل الخزاعي في هجائهم لهم معنى جديداً آخر يقوم على اتهامهم بالخنوثة وعدم الرجولة، حتى إن المميز ليحار في معرفة ذكرهم من أُنثاهم، ثم يجعل نساءهم تُبادر إلى فعل الفاحشة، بينما يُفْعَلُ برجالهم. ويستلهم في هذا المقام مقطعاً من سورة "يوسف"، فيجعل المرأة من بني وهب ينقد قميصها من قُبل؛ لأنها الفاعلة، ويجعل الرجل من بني وهب ينقد قميصه من دُبر؛ لأنه المفعول به!! يقول[٣]:

إذا رأيـــتَ "بنـــي وهـــب" بمنزلـــةٍ ... لـــم تَـــدْرِ أيُّهـــمُ الأُنثـــى مِـــنْ الـــذَّكرِ
قمـــيصُ أُنثـــاهُمُ يَنقـــدُّ مِـــنْ قُبُـــلٍ ... وقُمـــصُ ذُكـــرانهم تنقـــدُّ مـــن دُبُـــرِ[٤]

ويقف ابن الرومي في إحدى قصائده موقفاً آخر في هجاء هذه الأُسرة، مُتهماً إياهم بعداء الإسلام وإبطال شعائره، وإحياء شعائر النَّصرانية التي كانوا عليها قبل دخولهم الإسلام، ومن

---

(١) ابن بسام، الديوان، مصدر سابق، ص٤١.
(٢) الغمر: غير المُجرب.
(٣) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢٠٧.
(٤) تنقد: تنشق.

ذلك أنهم أبطلوا ما كان الخليفة المُتوكل قد ألزم به النصارى من الالتزام بزي خاص يميزهم عن غيرهم من فئات المجتمع، وذلك في سنة ٢٣٥هـ[١]. ويتهم هذه الأُسرة بالبطش والتسلط والتطاول والبخل والخيانة والخِسة ولؤم الأصل، يقول[٢]:

تسـميتُمُ فينـا مُلُوكـاً وأنـتُمُ ... عَبيـدٌ لمـا تَحْـوي بُطُـونُ المَـزادِ
ومَكُنْـتُمُ أذقْـانَكُمْ مِـنْ نُحـوركُمْ ... كـأنَّكم أولاد "يحيـى بـن خالـدِ"[٣]
فلـو أنَّ أعناقـاً تُمـدُّ لِخيـركُمْ ... لَقلّـدتموها خـاملاتِ القلائـدِ
متى – "آلَ وهبٍ" – يرتجى الرِّيَّ حائمٌ ... إذا كُنـتمُ مُـلاكَ سُـبْلِ المـواردِ؟
لقـد ذُدْتُمونـا عـن مَشـاربَ جَمّـةٍ ... وغَـرَّقتُمُ فـي غَمْرهـا كُـلَّ جاحـدِ
وأحْيَيـتم دِيـنَ الصَّـليبِ وقُمـتُم ... بِتَشْـييدِ أعْمـارِ وهَـدْمِ مَسـاجدِ
وإبطـالِ مـا كـانَ الخَليفـةُ "جَعْفـرٌ" ... تَخيّـرهُ زِيّـاً لكُـلِّ مُعانـدِ
ومَلَكـتُمُ لَيْثـاً كُنُـوزاً مَصُـونةً ... بِبـذلِ لأعـراضِ ومنـعِ قَواعـدِ
فكُـلُّ الـذي أظهـرتُمُ مِـنْ فِعـالِكُم ... دَليـلٌ علـى تَصْـديقِ خُبـثِ المَوالـدِ

- هجاء أفراد الكُتّاب.

وبالانتقال إلى الاتجاه الثالث، يجد الدارس عشرات القصائد والمقطوعات التي تناول فيها الشعراء كُتّاباً بأسمائهم وأفرادهم ذماً ونقداً وهجاءً، وقد يطول الحديث لو أراد الباحث أن يقف عند كل واحد من هؤلاء الكُتّاب وما قاله الشعراء فيه، ولذا سيتناول الباحث المعاني الرئيسة لهذا الاتجاه دون تتبع ما قيل في كُلِّ كاتب على حِدة

---

(١) انظر: الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، مصدر سابق، ج٩، ص١٧١– ١٧٥.

(٢) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٧٦١.

(٣) وهو كبير أُسرة البرامكة المشهورة.

* نقد جهل الكُتّاب وعدم كفايتهم.

لعلَّ أهم المعاني التي اشتملت عليها أهاجي الشعراء في الكُتّاب وصفهم بالجهل وعدم المعرفة بأُصول صناعتهم وضعف قدراتهم الكتابية والبيانية التي لا يستغني عنها الكاتب المتمكن من صنعته، يقول أبو العيناء في هجاء الكاتب أسد بن جوهر[١]:

أوَ مَا تَرى أسـدَ بـنَ جَـوْهَرَ قَـدْ غَـدا ... مُتَشَـبِّهاً بأجلّـةِ الكُتّـابِ
فـإذا أتـاه مُسـائلٌ فـي حَاجـةٍ ... رَدَّ الجَـوابَ لَـهُ بغيـرِ جَـوابِ
وسَـمِعتَ مِـنْ غَـثِّ الكَـلامِ وَرَثِّـه ... وقَبيحـهِ بـاللَّحنِ والإعْـرابِ
ثَكِلتَـك أُمُّـكَ، هَبْـكَ مـن بَقَـرِ الفَـلا ... مـا كُنـتَ تَغْلَـطُ مَـرّةً بِصـوابِ!!

يبدو واضحاً أنَّ هذا الشعر يقدح في معرفة أسد بن جوهر بأُصول صنعته، فهو يتشبه بجلّة الكتاب البارعين، ولكن الحقيقة أنّه ليس منهم، ومن مظاهر جهله عدم معرفته بأُصول الكلام، فضلاً عن أُصول الكتابة، ولذا، فإنّه لا يُحسن الردّ والجواب على مَنْ سأله، وإذا تكلّم جاء بالكلام الغثّ والقبيح، وغزا اللحن والخطأ الإعرابي حديثه، فليس هو صاحب بيان، ولا حظّ له من الصواب، فهو كالبقر الوحشيّ الذي لا يفهم ولا يعقل.

ويهجو الشاعر محمد بن علي المعروف بباذنجانة الكاتب صالحَ بنَ شَيْرزاد، واصفاً إياه بالحمارِ في صنعته، وهو وصف يحمل في ثناياه دلالات عميقة على مدى جهل الكاتب بأُصول الكتابة وعدم معرفته بمهاراتها، ويرى الشاعر أن ابن شَيْرزاد دَعيٌّ في هذه المهنة، وأن لا صلة له بالكتابة، فهو رجل عيي عدم فصيح، قليل الفهم والمعرفة، وادعاؤه الكتابة باطل كبطلان ادعاء معاوية بن أبي سفيان إخوةَ زياد بن أبيه[٢]، يقول[٣]:

حِمـارٌ فـي الكتابـةِ يُـدّعيها ... كـدعوى "آل صَـخْرٍ" فـي "زيـادِ"
فَـدع عَنْـكَ الكِتابـةَ لَسْـتَ مِنْهـا ... ولـو غَرّقـت ثَوبـك فـي المِـدادِ
وكَيْـفَ يحـوزُ فـي الكُتّـاب فَـدِمٌ ... عَـديمُ الفَهـمِ مَنْحـوبُ الفُـؤادِ[٤]

---

(١) أبو سويلم، أنور، أبو العيناء: دراسة وتوثيق، مصدر سابق، ص١٠٦.

(٢) التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، مصدر سابق، ص١٧٣.

(٣) الصابي، أبو الحسن محمد بن هلال (ت ٤٨٠هـ)، الهفوات النادرة، تحقيق وتقديم: د. صالح الأشتر، دار الأوزاعي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٤٧٤.

(٤) فدم: قليل الفهم.

ووصف كَشَاجم الرملي أحدَ الكُتّاب بأنّه دخيل على هذه الصنعة، وأنّه لا حظ له تحصيل مهاراتها، يقول[١]:

دَخِيـــــلٌ فـــــي الكتابـــــةِ لا رَوِيٌّ لـــــه فيهـــــا يُعـــــدُّ ولا بَدِيْـــــه

ويرى البحتري أن الأمير أصبح أمهرَ من كاتبه في تعاطي صنعة الكتابة واتقان مهاراتها، وهو أحد مظاهر الانقلاب التي أدت إلى دُخول الخراب على هذه الصنعة وجهل أصحابها بها، ويَعدُّ الشاعر هذا الانقلاب إحدى عجائب الدهر، يقول في هجاء محمد بن إسحاق الختلي الكاتب[٢]:

ومِـــنْ عَجَـــبِ الـــدَّهرِ أن الأميـــ ـــرَ أصْـــبحَ أكْتَـــبَ مِـــنْ كاتبـــهْ!

ونقد البحتري في إحدى مقطوعاته كلامَ بعض الكتاب، فهو كلامٌ طويل يُؤذي النفس ويُفسد العقل، ويثقل على السامع، حتى لكأنه صخور جاثمة قد وضعت على صدره، ولك أن تتصور حالة الضيق والشدّة التي تُصيب الإنسان حين يجثم شيء على صدره، فكيف إذا كانت صخوراً ثقيلة، وكذلك كانت أحاديث ابن عمرو بن مسعدة الذي كان يُسيء إلى جلسائه إذا ما أطال أحاديثه التي كانت لطولها تشق على الأنفس، فتشعر بالضيق الشديد بخلاف الأحاديث القصار المقبولة، يقول[٣]:

قَـــــدْ لَعَمـــــرِي آذَيْتَنـــــا يـــا "بـــنَ عمـــرِو بـــنِ مَسْـــعَدَةْ"!
بأحادِيثِـــــكَ التـــــي هـــــي للعقـــــلِ مَفْسَـــــدَةْ!
فأحاديثُـــــكَ الطِّـــــوا لُ صُـــــخورٌ مُنضَّـــــدَةْ! [٤]
وأحاديثُـــــكَ القِصـــــا رُ قِـــــلالٌ مُبَـــــرّدَةْ! [٥]

وقد نظر كثيرٍ من الشعراء إلى تولي الكُتَّاب العباسيين مناصب الدولة نظرةً سلبيةً، ولم يستبشروا بسيرهم المملوءة بالشُّؤوم على كلٍّ من عمل معه، كما قال البحتري في التشاؤم من ولاية أبي الحسن الحارثي بعض شُؤون الكتابة، يقول[٦]:

"أبـــا حَسَـــن" أنْـــتَ وَشْـــكُ الأجَـــلْ وثُكْـــلُ الغِنـــى، وانتقـــالُ الـــدُّولْ

---

(١) كشاجم، الديوان، مصدر سابق، ص٤١٤.
(٢) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٩.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٢٧.
(٤) مُنضدة: مصفوفة باتساق.
(٥) قِلال: جمع قلة، وهي وعاء يُتخذ لحفظ الماء وتبريده.
(٦) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٩٦.

زَعَمْـــتَ بأنَّـــكَ لَسْـــتَ الـــدَّمارَ ... ولَسْـــتَ العِثـــارَ، ولَسْـــتَ الزَّلَـــلْ
فَبـــيّنْ لنَـــا مَـــنْ لَـــوى شُـــؤمُهُ ... "أبـــا جَعْفَـــر" عـــن بَريـــدِ الجَبَـــلْ!
وتُظهـــرُ فـــي "آلِ وهـــبٍ" هَـــوًى، ... وأنْـــتَ نَحْسْـــتَهُمُ يـــا زُحَـــلْ! (١)
نَقَضْـــتُهُم عُـــروةً عُـــروةً، ... وفرّقـــتَ عَـــنْهُمْ جَمِيـــعَ العَمَـــلْ!

فالحارثي – في رأي الشاعر – علامة نحس وشؤوم، ولا يُتوقع أن يأتي الخير من جهته؛ لأنَّه أشبه بالدمار الذي يحل بكلِّ ما حوله إذا وقع، وهو مع ذلك كثير الخطا والزلل، وهو شؤم على كلِّ دولة يعمل فيها، وهو منذر بالهلاك والموت، فما من أحد عمل في معيّته إلا كانت الخسارة نهايته، إذ فقد الجميعُ أعمالهم وضاعت مناصبهم؛ بسبب شؤوم الحارثي وسُوء طالعه. ويصور الشاعر الحارثي المشؤوم بكوكب زُحل الذي كان أهل التنجيم يعدونه علامة نحس.

ويُشبه هذا المعنى ما ذهب إليه ابنُ الرُّومي في هجاء ابن طالب الكاتب، إذ جعله شُؤماً على أصحابه، فما من أحد عمل معه إلا أصابته محنة قاسية، ويُشبه الشاعر بالمريخ الذي كانوا يتشاءمون به أيضاً، ثم يشبهه بعاقر الناقة، وهو علامة شؤم على قوم صالح أيضاً، بل يقلب الشاعر التشبيه فيجعل عاقر الناقة "قدار" شبيهه، ويصفه بعنوت تدلُّ على الشؤم والنحس كقوله "أُزيرق مشؤوم" و"أُحمير قاشر". ويدعو الشاعر في أول قصيدته وخاتمتها إلى الحذر من نحس هذا الكاتب، لأن اسمه علامة تطيّر، ولأن أفعاله السابقة جرّت الشّرَّ والمصيبة على الجميع، يقول(٢):

أُحـــذِّر أهـــلَ الأرضِ حَـــدَّ "ابـــنِ طالـــبٍ" ... فَمـــا زَالَ مَشْـــحوذاً علـــى مَـــنْ يُصـــاحبُ
وقـــد جُرِّبـــتْ منـــه علـــى "آل مَخْلَـــدٍ" ... تَجـــاربُ لَيســـت مِـــثْلَهُن تَجـــاربُ
أُزيـــرِقُ مَشْـــؤوم، أُحميـــرُ قاشِـــرٌ ... لأصـــحابه، نَحْـــسٌ علـــى القَـــومِ ثاقِـــبُ
وهَـــلْ أشـــبهَ المِـــرِّيخَ إلا وفِعلُـــهُ ... لفعـــلِ شَـــبيهِ السَّـــوء شِـــبهٌ مُقـــاربُ
أعَـــوذُ بعـــزِّ اللهِ مـــن أن يَضـــمنّي ... وإيّـــاه فـــي الأرضِ البســـيطةِ جانـــبُ
شَـــبيهُ قُـــدارٍ، بـــل قُـــدارٌ شَـــبيهُهُ ... وإنْ قيـــل: كِلِّـــيمٌ، وإن قيـــل: كاتـــبُ(٣)
وهـــل يَتمـــارَى النَّـــاسُ فـــي شـــؤمِ كاتـــبٍ ... لعينيه لـــونُ السَّـــيف والسَّـــيفُ قَاضِـــبُ(٤)
ويُـــدعَى أبُـــوه "طالبـــاً"، وكفـــاكُمُ ... بـــه طِيـــرةً أنَّ المنيـــةَ طالـــبُ

---

(١) زُحل: كوكب عالٍ بعيد، وهو عند المنجمين علامة نحس.

(٢) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٨.

(٣) قدار بن سالف: عاقر الناقة التي أهلك الله بسببها قوم ثمود.

(٤) يتمارى: يشك، والقاضب: القاطع.

ألا فـــأهربُوا مـــن "طالـــبٍ" و"ابـــن طالـــبٍ" فمـــن طالـــبٍ مثلَيْهمـــا طـــارَ هـــاربُ

ولم يكتفِ الشُّعراء بالتعبير عن تشاؤمهم من تولي بعض الكُتّاب المهام الرسمية في الدولة، حتى أخذوا يحرضون الخليفة نفسه على الفتك بهؤلاء الكتاب غير الأكفاء وإبعادهم عن تلك المناصب المهمة التي تقلدوها، وكان شعر التحريض مُتسماً بصبغته السياسيّة والشَّخصيّة في آن معاً، وقد حاول الشعراء أن يكون شعرهم وسيلةً للتخلص من الكُتّاب الذين أظهروا لهم العداء، أو تجاهلوهم، ولم يعطوهم الرعاية التي كانوا يتوقعونها، يقول أبو نواس في هجاء إسماعيل بن صَبيح، كاتب أسرار الأمين[١]:

ألا قُـــلّ "لإســـماعيلَ" إنَّـــك شَـــاربٌ بكـــأسِ "بنـــي مَاهـــانَ" ضَـــربةَ لازمِ[٢]
أتُسْـــــمِنُ أولاءَ الطَّريـــــدِ ورَهْطَـــــهُ بـــإهزال آل اللهِ مـــن نَسْـــلِ "هاشـــمِ"!!
وإن ذُكـــر "الجَعْـــديُّ" أذْرَيْـــتَ عَبْـــرةً وقلـــتَ: أدال اللهُ مـــن كُـــلِّ ظـــالمِ[٣]
ويُخبـــرُ مَـــنْ لاقيـــتَ أنَّـــك صَـــائمٌ وتَغْـــدُو بِحُجْـــرٍ مُفطـــراً غيـــرَ صـــائمِ
فـــإن يُسِّـــرَ "إســـماعيلُ" فـــي فَجراتِـــهِ، فلـــيسَ أميـــرُ المـــؤمنينَ بنـــائمِ

تبدو هذه المقطوعة النواسيّة مشحونة بالهجاء السِّياسيّ، فإسماعيل بسبب سوء إدارته وغطرسته، سيلقى المصير نفسه الذي صار إليه آل ماهان، وإسماعيل يُظهر حربه على الهاشميين، ويُحاربهم في أرزاقهم، ويمدّ أعداءهم بما يضمن بقاءهم، وإسماعيل – فوق ذلك – ذو نَزْعة أُمويّة، فهو يترجم على مروان بن محمد، ويُذري الدموع عليه، ويغمز ويلمز العباسيين، بل ويدعو على دعوتهم ودولتهم أن ينتقم الله منها، وإسماعيل يظهر أمام الناس العبادة والنسك، فإذا خلا عكف على الفجور.

وبعد هذه السلسلة من مُخالفات إسماعيل، يلجأ الشاعر – وبطريقة ذكية– إلى إثارة الخليفة وتحريضه على الفتكِ بهذا الكاتب المُخالف المعاند، ويظهر هذا التحريض في البيت الأخير، حين يبدي الشاعر ثقته الكبيرة بالخليفة الذي يعرف صحيفة إسماعيل كاملةً، وذلك في قوله "فليس أمير المؤمنين بنائمِ"، وهي عبارة تحمل في طياتها التحريض، كما تهدف إلى تنبيه الخليفة بطريقة غير مباشرة.

---

(١) أبو نواس، الديوان، مصدر سابق، ص٥١٤.

(٢) آل ماهان: من الأُسر المشهورة في الدولة العباسيّة في عهدي الرشيد والأمين، غضب عليهم الخليفة فنكبهم.

(٣) الجعدي: أراد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأُمويين، وعبرة: دمعة، وأدال: انتقم.

ويلجأ البحتري إلى التحريض على الكاتب أحمد بن صالح بن شَيْرزاد بصورة أكثر مُباشرة من أبي نواس، فبعد أن ذكر الشاعر مساوئ هذا الكاتب، وبيّن سوء اعتقاده في الله ورسالاته وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وسوء إدارته، تساءل عن الخليفة أين هو من كلّ ما أحدثه هذا الكاتب؟! فقال[١]:

فـــأينَ الخليفـــةُ عَمّـــا أعَـــدَّ؟ وعَمّـــا أفـــادَ؟ وعَمّـــا أدَّخَـــرْ؟
أيتْـــرُكُ مـــا كـــانَ مُسْـــتخفياً فكيـــف بِتـــركِ الـــذي قـــد ظَهَـــرْ؟

ولا شك أن تساؤل الشاعر يحمل في طياته نقداً مُبطناً للسلطة الحاكمة، وعلى رأسها الخليفة، إذ سكتت هذه السُّلطة عن كثير من الممارسات الخطيرة التي قام بها رجال الدولة، ومنهم الكُتّاب بطبيعة الحال، وغضت الطرف عن سوء إدارتهم واعتداءاتهم على أموال الدولة ومُقدراتها، فأدى ذلك إلى استعمال ظاهرة الفساد. ويُنكر الشاعر في البيت الثاني على الخليفة أن يترك الفسادَ الظَّاهرَ، ولا يقف في وجهه ولا يحاربه، فإذا كان هذا سلوك الخليفة مع الفسادِ المُستخفي، فإن الشاعر لا يقبله من الخليفة في الحال الأُولى.

* موقف الشعراء من نكبات الكُتّاب.

أثمر التحريض في بعض الأحيان، فنال الكُتّاب من المحن والنكبات والقتل والتشرد ما نالهم، وبمناسبة نكبات الكُتّاب وجد الشعراء الفرصة سانحة لبسط ألسنتهم في هذه الفئة التي طالما رُميت بالظلم والجور وفساد الأخلاق وسوء الإدارة، والتعدي على أموال الدولة، وقد أظهر الشعراء الفرح والتشفي بما أصاب الكُتّاب من محن الدهر ومصائبه، يقول الشاعر علي بن الجهم مُخاطباً نجاح بن سلمة لما أسلموا إليه عمر بن فرج الرُّخَّجي؛ ليصادر أمواله[٢]:

أبلـــغ "نجاحـــاً" فَتـــى الفِتْيـــان مَأْلُكـــةً تَمضـــي بهـــا الـــرِّيحُ إصْـــداراً وإيـــراداً[٣]
لن يَخْرُجَ المـــالُ عَفْـــواً مِـــنْ يـــدي "عُمَـــرٍ" أو يُغْمَـــدَ السَّـــيفُ فـــي فَوْديـــه إغْمـــادا[٤]
"الرُّخَّجيُّـــونَ" لا يُوفُـــونَ مـــا وَعَـــدُوا و"الرُّخَّجيَّـــاتُ" لا يُخْلِفِـــنَ مِيعـــادا

يجمع الشاعر في مقطوعته بين التحريض والتشفي في آن معاً، فهو يُحرضُ على قتل الكاتب عمر بن فرج، ويُظهر فرحه بالقبض عليه ومطالبته بالأموال التي أخذها، ويصل الشاعر في البيت الثالث إلى هجاء قوم الكاتب، رجالهم ونساؤهم، فالرجال لا يعرفون الوفاء بالوعد، ولا

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٩٢٤.

(٢) ابن الجهم، الديوان، مصدر سابق، ص١٢٤.

(٣) مألكة: رسالة.

(٤) الفود: جانب الرأس.

يظهر منهم سوى الإخلاف، وأمّا النساء، فهن على عكس رجالهم لا يخلفن موعداً، بمعنى أنهن يأتين كل ما يدنس عرضهن، ولا يعرفن سبيل العفة والصون.

وبمناسبة نكبة نجاح بن سلمة على يد الخليفة المتوكل سنة ٢٤٥هـ، قال البحتري مُتشفياً من قتل نجاح، ومتحدّثاً عن سوء فعاله التي ساقته إلى حتفه المُقدَّر[١]:

دَواعِي الحَيْنِ سُقْنَ إلى "نجاحِ" رُكُوبَ البَغْيِ للأجلِ المُتاحِ[٢]
ولو نُصْحاً أرادَ لَكانَ فيهِ "عُبيدُ الله" أسْبقَ من "نجاحِ"[٣]
فَحاقَ برأسِهِ ما كان يَنْوي وحَلَّ بأهلِهِ سُوءُ الصَّباحِ
مُدِلٌّ بالسِّعاية والتَّبدِّي بها قَتَلَ الإمامَ بلا جُناحِ
وأكذبُ من "مُسَيْلمةَ بن صَعْبٍ" وأفَضْحُ في العَشيرةِ من "سَجاحِ"[٤]
بدت لخليفةِ الرَّحمنِ منهُ مَزاينُ خائنٍ نَطِفٍ وَقاحِ[٥]
فكانَ يُريدُ نُصحاً وهو مُضْبٍ على غِشٍّ كأطرافِ الرِّماحِ[٦]
فأُبْسِلَ بالذي كَسِبتْ يَداهُ وعَمّ النَّاسَ ذلك بالصَّلاحِ[٧]
فلا عَدِمَ الإمامُ صَوابَ رأيٍ نَفَى الجرباء عن عَطَنِ الصِّحاحِ[٨]
وأبقاه الإلهُ بقاءَ "نُوحٍ" لِتشييدِ المكارمِ والسَّماحِ

يُفصح البحتري في قصيدته عن الأسباب والدواعي التي أدت إلى قتل نجاح بن سلمة، ومن هذه الأسباب: الظلم والبغي والوشاية والسعاية والكذب والخيانة والغشّ، فوق ما كان يُكنه من عداء الخليفة والعمل ضدّ سياسته، وهي أسباب كافية جعلت الخليفة يأخذ الكاتب نجاحاً بما كسبت يداه، ويبدو الشاعر فَرِحاً بما فعله الخليفة من قتل نجاح، ويصور ذلك بإبعاد الناقة الجرباء عن جماعة الإبل غير المُصابة، ولذا يختم الشاعر قصيدته بالدعاء للخليفة بطول البقاء.

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٤٦٣- ٤٦٤.
(٢) الحين: الموت والهلاك.
(٣) عبيد الله: عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل.
(٤) مسيلمة الكذاب وسجاح اليربوعية ادّعى كل منهما النبوة، وتزوجا.
(٥) المزاين: جمع المزن، وهي العادة والطريقة والحال، والنطف: النجس والمريب.
(٦) مضب: مُسر وكاتم.
(٧) أبسل: أسلم للهلكة.
(٨) العطن: مبرك الإبل.

وبمناسبة نكبة الكاتب عيسى بن إبراهيم النصراني، يُظهر إبراهيم بين المُدبر تشفيه بما جرى لهذا الكاتب من الزجّ في الحبس ونهب داره، يقول[١]:

ألبسَكَ اللهُ مِنْ قَوارعِهِ آخذةً بالخِناقِ والنَّفَسِ[٢]
لا زِلْتَ يا بنَ البَظْراءِ مُرْتَهِنا في شَرِّ حَالٍ وضِيقٍ مُحْتَبسِ[٣]
أقولُ لمّا رأيتُ مَنْزِلَهُ مُنْتَهَباً خَالياً من الأَنسِ[٤]
يا مَنْزِلاً قَدْ عَفا مِنَ الطَّفَسِ وسَاحةً أُخْلِيتْ مِنَ الدَّنَسِ:[٥]
مَنْ لاقْتِرافِ الفَحشاءِ بعد أبي الشَّـ ـرِّ، ومَنْ لِلقَبيحِ والنَّجسِ؟

يُعبّر ابنُ المُدبر عن الحالِ التي صار إليها الكاتب النصراني بعد أن أصابته مصائب الدَّهر، فكانت كالطوق الذي التفّ حول عُنقه ومنعه من الحركة والنفس، ووقع الكاتب في شرِّ أعماله، فقد قِيد إلى السِّجن الضَّيق، فكابد ما كابد من البؤس والضيق وشر الحال. ويُثبت الشاعر مشاهدته دار الكاتب وهي منتهبة وقد خلت من كلِّ أنيس كان بها من قبل، وقد وقف الشاعر على الدار المنتهبة وراح يُخاطبها فرحاً بالمصير الذي انتهت إليه، فقد طُهرت ساحاتها، وزال عنها الدَّنس، ويجعل الشاعر آخر أبياته على سبيل أخذ العبرة، قائلاً: إن من تُطوع له نفسه اقتراف الفحشاء وإتيان السوء وفعل الشر، فسيكون مصيره مصيرَ الكاتب النَّصرانيّ.

* نقد مثالب الكُتّاب الأُخرى.

هُجي الكُتّاب، فضلاً عما سبق، بصفات كثيرة غير الجهل وقصور المعرفة، فقد وصفوا بالغدر والمكر والخيانة ونكث العهود، فقد أكد أبو تمام في عددٍ من مقطوعاته التي قالها في هجاء عبد الله الكاتب لزومَ صفة الغدر له، يقول[٦]:

أغزالَ قُولي للغَزالِ الأحْورِ أضرمتَ غَدْراً ليس عَنْكَ بِمضْمَرِ

ويصفه في مقطوعة أُخرى بالذئب الغادر الذي ينصب حبائله ليوقع الظِّباء الأليفة، يقول[٧]:

---

(١) السامرائي، يونس، شعراء عباسيون، مصدر سابق، ص٣٨٠.
(٢) القوارع: المصائب، والخِناق: موضع الخنق من الرقبة.
(٣) مرتهنا: محبوساً.
(٤) الأنس: المؤانسون، جمع أنيس.
(٥) عفا: درس وانمحى، والطَّفس: الدَّنس.
(٦) أبو تمام، الديوان، مصدر سابق، ص٥١٧.
(٧) المصدر نفسه، ص٥١٤.

ذئـــــــبُ فَـــــــلاةٍ كيـــــــدُهُ دَارعُ صَـــــادفَ ظَبيـــــاً كَيـــــدهُ حَاسِـــــرُ

ويبدأ الشاعر ابن الرومي إحدى مقطوعاته في هجاء إبراهيم بن المُدبر بوصفه بـــ "ناكث العهود"، مُتوعداً إياه بسوء العاقبة التي سيصل إليها جراءَ غدره وعدم وفائه بالعهد، يقول[١]:

أيَّهـــــا الناكـــــثُ العُهـــــودَ سَـــــتَجْني نَـــــدماً مِـــــنْ عُهـــــودكَ المَنْكُوثـــــة

وركّز بعضُ الشعراء على خيانةِ المال التي رُمي بها عامةُ الكُتّاب، كما مرّ سابقاً، من ذلك ما قاله ابن الرومي في هجاء صاعد بن مَخْلد الكاتب الذي تقلد الوزارة غير مرّة، فقد اتهمه بسوء إدارة الأموال والتعدي عليها بالسلب والنهب، حتى كادت خزانة بيت المال تصل إلى درجة الإفلاس، يقول[٢]:

واســـــتباحَ الأمـــــوالَ يُعْمِـــــلُ فِيهنْـــــ ـــــــنَ بـــــلا مَـــــدفعٍ ولا تَنْفِـــــيسِ
نَفقـــــاتٍ كـــــادت تُفَلِّـــــسُ بيـــــت الـــــ مـــــال أقصـــــى نِهايـــــةِ التَّفليـــــسِ

وتناولت أهاجي الكُتّاب صفة الظلم والتعدي التي اتصف بعضهم بها، فهذا ابن الرومي ينعت صاعداً بـــ "الظالم"، يقول[٣]:

بـــل هـــو الظَّـــالمُ الـــذي ظَـــلّ يرقـــى رَاكِبـــاً مَرْكَبـــاً مِـــنَ التَّـــدليسِ

ويدعو الشاعر ابن بسّام الكاتبَ ابنَ مُقلة إلى التّمهل وعدم العجلة؛ لأنَّه سيلقى جزاء ظلمه وتعديه على دُور الناس وأخذها جوراً ليزيد في داره، يقول[٤]:

قُـــلْ "لابن مُقلةَ": مَهـــلاً لا تَكُـــن عَجِـــلاً فإنّمـــا أنـــتَ فـــي أضْـــغاثِ أحْـــلامِ
تَبْنـــي بانقـــاضِ دُورِ النَّـــاسِ مُجْتهـــداً داراً سَـــتُنْقض أيضـــاً بَعْـــدَ أيـــامِ!!

ورموهم إلى جانب ذلك بالكبرِ والعُجب والتَّعالي والغُرور، يقول علي بن الجهم في هجاء عمر بن فرج الرُّخَّجي[٥]:

جَمعتَ أمـــرينِ ضَـــاعَ الحَـــزمُ بينهمـــا: تِيـــهَ المُلـــوكِ وأفْعـــالَ المَماليـــكِ!!

---

(١) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٤٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢١٢.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢١١.
(٤) ابن بسام، الديوان، مصدر سابق، ص٥٦– ٥٧.
(٥) ابن الجهم، الديوان، مصدر سابق، ص١٩١.

يُشخص الشاعر في هذا البيت السلوك المتناقض للكاتب المهجو، فهو يُطاول الملوك العظام في عُجبه وتيهه، ولكنه لا يأتي إلا بأفعال العبيدِ، وبذلك تتناقض أفعاله تناقضاً صارخاً.

ورموهم بصفات سلبية أُخرى كالجبن واللؤم والتخلف، يقول البحتري في هجاء الحسن بن رجاء، ويعيره بجبنه وتقاعسه عن المطالبة بدم أبيه[١]:

"أبـا علـيٍّ" عَليـكَ الفَـوتَ إن ذُكـر الـ ... إدراكَ مِـنْ طـالبي الأوتـارِ والإحِـنِ[٢]
لمّـا رَثَيْـتَ "رجـاءً" خِلْـتُ أنَّـكَ قـد ... ثَأرتَـهُ بِبُكَـا القُمـريِّ فـي الفَـنَنِ[٣]
فَنِمـتَ عَنـهُ، ولـم تَحْفَـلْ بِمَصْـرعِهِ ... لا متّـع اللهُ تلـكَ العَـينِ بالوَسَـنِ[٤]
بَلْ مـا يَسُـرُّكَ مـلءُ الـدّارِ مِـنْ ذَهـبٍ ... وأنَّ مـا كـان يـومَ الـدَّارِ لـم يَكُـنِ
حِرْصاً علـى إرثِ شَـيْخٍ ظـلّ مُضـطَهَداً ... "بالشَّـامِ" يَكْبُـو علـى العِـرْنين والـذَّقَنِ[٥]
دَعـاكَ والسَّـيفُ يَغْشـاهُ، فمِـنْ بَـدَنٍ ... بِغيـرِ رأسٍ، ومِـنْ رأسٍ بـلا بَـدَنِ[٦]
فلـم تَكُـنْ "كـابنِ" حُجْـرٍ حِـيْن ثَـارَ، ولا ... أخي "كُلَيْـبٍ"، ولا "سَيْـفِ بنِ ذي يَـزنِ"[٧]
ولـم يُقَـلْ لـكَ فـي وِتْـرٍ طَلَبـتَ بـه: ... "تلـك المكـارمُ، لا قَعْبـانِ مِـنْ لَـبَنِ"[٨]

كان البحتري يتوقع من الحسن بن رجاء أن ينهض بعزم وشجاعة للثأر لوالده الذي قُتل ظُلماً وعُدواناً، بيد أن الحسن تثاقل عن طلب دم والده، ونام عن المطالبة بحقه، واكتفى بتحصيل المواريث التي تركها والده المغدور، فكان مثال الجبن والنكوص، ولم يقم كما قام رموز الثأر الذين دعاهم نداءُ الثأر، فلبوا النداء من أجل شفاء الغليل بأخذ الثأر، وأشهرهم الشاعر امرؤ القيس الذي رحل إلى بلاد الروم مُستنجداً بقيصر للأخذ بثأره، والمهلهل بن ربيعة التي ثأر لمقتل أخيه كليب بن ربيعة، وسيف بن ذي يزن الذي رحل إلى كسرى يستنصره للأخذ بالثأر من الأحباش الذين احتلوا اليمن.

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣٤٧– ٢٣٤٨.

(٢) الأوتار: جمع الوتر وهو الثأر، والإحن: جمع الإحنة، وهي الحقد وإضمار العداوة.

(٣) ثأرته: أخذت بدمه، والفنَن: الغُصن المستقيم، والقُمري: ضرب من الحمام الحسن الصوت.

(٤) الوسن: النعاس.

(٥) يكبو: ينكبُّ على وجهه، والعرنين: الأنف.

(٦) يغشاه: يغطيه أو يأتيه.

(٧) ابن حُجر: امرؤ القيس بن حجر الكندي الشاعر المعروف، وأخو كليب: المهلهل بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي، وسيف بن ذي يزن: من ملوك اليمن في الجاهلية.

(٨) قعبان: مثنى قعب، وهو قدح يُحلب فيه، وهو صدر بيت لأُمية بن أبي الصلت.

ويقول البحتري أيضاً في هجاء إسماعيل بن شهاب الكاتب ورميه بالتخلف واللؤم والدناءة[١]:

فَلَـــم أُبْعـــدكَ مـــن أدَبٍ، ولكـــنْ "شـــهابٌ" فـــي التَّخلـــفِ مـــا شِـــهابُ!
وهـــانَ عَليـــكَ سُـــخطي حـــين تَغْـــدو بِعـــرضٍ لَـــيْسَ تَقْتُلُـــهُ الكِـــلابُ
وهـــل يَشْـــفي السِّـــبابُ مـــن ابـــن لُـــؤمٍ دِنـــيءٍ لَـــيْسَ يُؤلِمُـــهُ السِّـــبابُ!!

يستثمر الشاعر اسم المهجو، وهو شهاب، ليقلب المعاني الإيجابية لهذا الاسم إلى معانٍ سلبيّة، فالشهاب يحمل دلالات على العلو واللمعان، ولكن الشاعر يجعل الشخص المهجو شهاباً في التخلّف، لا شهاباً في العلياء، وزيادةً في تخلفه لا يأبه المهجو بالذم والسلب الذي ينال عرضه، وهذا دلالة على لؤمِ ودناءةِ نسبه، إذ لو كان شريفاً لما رضي بالهوان والمذلة.

وفضلاً عن الجبن واللؤم، هجا بعض الشعراء الكُتاب بالتهور والهوج والنزق وسوء المزاج وعدم الاتزان، يقول دعبل الخزاعي في هجاء أبي عباد ثابت بن يحيى بن يسار الكاتب، المشهور بحدّته وتسرعه وهوجه مع عجلته وسرعته[٢]:

أولـــى الأُمـــور بضـــيعةٍ وفَســـادِ أمـــرٌ يُـــدبرُهُ "أبُـــو عَبّـــادِ"
خِـــرقٌ علـــى جُلُســـائِهِ، فكـــأنَّهم حَضَـــرُوا لِملحمـــةٍ ويَـــومِ جـــلادِ[٣]
يَسْـــطُو علـــى كُتّابـــه بِدواتِـــهِ فَمضـــمَّخٌ بِـــدمٍ، ونُضـــحِ مِـــدادِ
وكأنَّـــه مِـــنْ "ديـــر هِزْقِـــلَ" مُفْلـــتٌ حَـــرِدٌ، يَجـــرُّ سَلاســـلَ الأقيـــادِ[٤]
فاشـــدُدْ أميـــرَ المُـــؤمنينَ وِثاقَـــهُ، فأصـــحُّ مِنـــهُ "بَقيّـــةُ الحَـــدّادِ"

تُصوّر هذه المقطوعة ما كان عليه أبو عبّاد الكاتب من سُوء الأخلاق، إذ كان فاسد الإدارة والتدبير، ذا مزاج حادّ، يظهر تهوره وطيشه أكثر ما يكون مع جلسائه، فهو يتعدى عليهم بالضرب والتطاول، حتى لكأنهم في معركة اشتد القتال فيها، وسالت فيها الدماء، فما كان حاضراً في مجلسه ناله من أذى أبي عبّاد الذي كان يتصرف كأنه مجنون فرّ من "دير هزقل" الذي كان أشبه بمستشفى للمجانين في ذلك العصر، ويرى الشاعر أن "بقية الحدّاد" المشهور بحمقه وضياع عقله كان أرجى وأصحّ من الكاتب أبي عباد، ويختم الشاعر بدعوة الخليفة إلى علاج طيش أبي عباد وتهوره، داعياً إلى تشديد الوثاق عليه، حتى يسلم جلساؤه من تعديه عليهم.

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص١٥٧.

(٢) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص١٨١– ١٨٢.

(٣) الملحمة: القتال.

(٤) دير هزقل: دير مشهور في العراق يُضرب به المثل لمجتمع المجانين.

ولعله يبدو واضحاً للقارئ أن الشاعر ضخّم مظاهر حِدّة الكاتب أبي عبّاد، وعبث بأبعادها حتى أحاله مجنوناً، وجعل من ديوانه بيتاً للمجانين، وأقامه فيه هائجاً مشدود العروق[١].

وهجا الشعراء بعض الكُتّابَ العباسيين بصفة الشره والإفراط في ملء شهوات البطن، يقول دعبل الخزاعي في هجاء أحمد بن أبي خالد واصفاً شراهته[٢]:

لـــم يُغْـــذَ بـــالمَلْبونِ عنـــد فِطامِـــهِ يَومـــــاً، ولا بِمُطَجَّـــنَ القُلْقـــاس[٣]

....

يَغْـــدُو عَلـــى أضـــيافِهِ مُسْـــتطِعماً كالكَلـــــبِ يأكـــلُ في بَيـــوتِ النَّاسِ

يسخر الشاعر – ههنا – من الكاتب الشر أحمد بن أبي خالد، مُبيناً أن شرهه ناجم عن سوء تغذيته منذ فطامه عن أُمه، إذ إنّه لم يُشبع بطنه من سائر المؤكلات المقلوة والمطبوخة، ودِلالةً على هذا الشره الذي اتصف به الكاتب، فإنّه يدور في الصباح على ضيوفه يطلب الطعام منهم، بل أن يبادر هو بتقديم الطعام لهم، وهو على هذه الصُّورة كالكلب الذي يغشى بيوت الناس ويدور عليهم يلتمس فضلات طعامهم.

ويصف البحتري شره أبي غانم الكاتب الخُتَّليّ الذي كان يُفرط في الشُّرب حتى يملأ بطنه فلا يكاد يطيق النَّفس، فعند ذلك يُسرعُ نحو إخراج ما في بطنه من الفضلات كأنه خنزيرةٌ ثقيلةٌ ضخمةٌ قعدت لتتلخص من فَضلاتها، يقول[٤]:

ألستَ تَـــرَى فـــي ..... إصْـــبعاً تَجـــولُ، وفـــي شِـــدْقِهِ إصـــبعُ![٥]

ويَنْقـــــــلُ بَيْـــــنكُمُ جَعْسَـــــةً إذا كَظَّـــــةُ القَـــدَحُ المُتْـــرعُ[٦]

إذا مـــا أغَـــارَ علـــى ..... رَبُـــوضٍ فَخِنزيـــرةٌ مُتْبِـــعُ[٧]

---

(١) الأشتر، عبد الكريم، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت، مصدر سابق، ص٩٩.

(٢) دعبل، الديوان، مصدر سابق، ص٢١٢.

(٣) الملبون: المُغذّي باللبن، والمُطجن: المقلو في الطاجن، وهو وعاء القلي، والقلقاس: لون من الخضراوات يُؤكل مطبوخاً.

(٤) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٨٤.

(٥) الشدق: جانب الفم مما تحت الخد.

(٦) الجعس: رجيع ما في المعدة، وكظه: ملاه حتى لا يكاد يطيق النفس.

(٧) السلحة: ما يخرج من فضلات البطن، والربوض: الضخمة، ومُتبع: صارت ذا تبيع، وهو الوليد يتبعها.

ووقف الشعراء عند ظاهرة شُيوع شُرب الخمر التي لم يسلم منها الكُتّاب، فضلاً عن غيرهم من رجال الدولة، وعابوا على الكُتّاب إفراطهم في الشرب إفراطاً كاد يذهب بعقولهم، ويزيدهم جهلاً فوق الجهل الذي رُموا به، يقول أبو تمام في هجاء عبد الله الكاتب[١]:

يكفيـــك خُزنـــاً أنَّ عَقْلَـــك ذاهـــبٌ ... يَبْكـــي عَليـــكَ وأن جهلـــكَ يَضْـــحكُ

....

لا تَفـــتكنَّ علـــى الكُـــؤوسِ بِشُـــربها ... فهـــي التـــي باتـــت بِعقلـــكَ تَفْتـــكُ

كـــم بِـــتَّ تأخـــذها، وبـــاتَ مُنـــادمٌ ... لـــك وهو يأخذُ مِنْكَ مـــا لا يُتْـــركُ

ويظهر للمُتأمل أن الشاعر يُبدي حُزناً على حال الكاتب المُدمن الذي لا يكاد يترك الشراب، حتى يذهب عقله، ولا يعود قادراً على حُسن التصرف، وعند ذلك يبكي عقله ويضحك جهله. ويدعو الشاعر الكاتب إلى عدم المبالغة في عدّ الكؤوس والقداح، لأنّ كثرتها تؤثر على عقله حتى تذهب به تماماً.

وعبّر الشعراء عن سوء نظرتهم إلى الكُتّاب العباسيين الذين اتصفوا بالشحّ والبخل والمنع، ويبدو أن دافع هذا الهجاء كان منع الكتاب العطاء عن الشعراء المتكسبين، أو مطلهم وتأخير مكافآت، وقد نظر الشعراء إلى هذا السلوك نظرة سوداوية، فراحوا يهجون الكتاب المانعين الذين حرموهم الجوائز والعطايا والمكافآت، يقول أبو دلامة الأسدي هاجياً علي بن صالح، أحد كُتّاب الدواوين في هذا العصر[٢]:

"لِعلـــيٍّ بـــن صـــالحِ بـــنِ علـــيٍّ" ... حَسَـــبٌ لـــو يُعِينُـــهُ بِسَـــماحِ

ومَواعيـــدُهُ الرِّيـــاحُ، فهـــل أنـــ ... ـــتَ بِكفَّيْـــكَ قـــابضٌ للرِيِّـــاحِ!!

يشير الشاعر إلى صفة البخل التي أساءت إلى حَسَب الكاتب، فهو وإن كان ذا حسب وأصل، فإنه ليس جواداً سمحاً كما يُفترض في كل ذي حسب ونسب، ودلالة على بُخله تأتي وعوده بالعطاء كالرياح التي تجري من غير أن يستطيع المرء إمساكها، أيّ أنّه مخلاف للوعد، لا يصدق مع سائليه، ولا يمنح طالبي المعروف ما يُسعدهم ويفرّج عنهم.

---

(١) أبو تمام، الديوان، مصدر سابق، ص٥٢٩.

(٢) أبو دلامة، الديوان، مصدر سابق، ص٤٤.

وقد يضطر الشاعر إلى أخذ العطاء القليل من بعض الكتاب المبخلين، لكنه يوجه في الوقت نفسه سهام النقد والهجاء لهذا الكاتب غير الجواد، مُسوغاً أخذ النزر، يقول البحتري هاجياً الكاتب إسماعيل بن شهاب[١]:

يـــا صـــاحبَ الأصْـــداغِ والطُّـــرَّهْ ... ولابـــسَ الحُمْـــرةِ والصُّـــفْرهْ! [٢]
لَيتـــكَ إذْ لـــم تُعطنـــي نَـــائلاً ... يُقْنعنـــي، أعْطَينـــي مَـــرّهْ
مـــا كـــانَ مَـــدْحِيكَ ووصـــلي بـــل الـــ ... ـــآمـــال إلاَّ سَـــفَر الغِـــرَّهْ[٣]
أُعْـــدُّ آبـــاءك مـــا فـــيهمُ ... "عـــوف" ولا "سِـــعْد"، ولا "مُـــرّهْ"
قبلـــتُ ذاك النَّـــزرَ إذا لـــم أجْـــد ... عِنْـــدَ بَهـــيمٍ مُصْـــمَتٍ غُـــرَّهْ[٤]
أخَذتُـــهُ وَقْحـــاً، ومِـــنْ قَـــوْلِهم: ... خُـــذْ مِـــنْ غَـــريمِ السَّـــوءِ آجُـــرَّهْ[٥]

يبدو أنَّ الشاعر اكتشف بعد حُصُوله على النَّزر القليل من عطاء الكاتب أن آماله التي عقدها على الكاتب تبخرت، بسبب بخله وتقتيره على الشاعر، إذ لم يمنحه سوى القليل التافه من العطاء، ومع ذلك قبله الشاعر لأنه لم يجد من يمن عليه بالعطاء سواه، ويرى الشاعر أن الكاتب لا عراقة له النسب تجعله كريماً معطاء كغيره من الأجواد المشاهير.

وقد ينال الشاعر مكافأة من قبل الخليفة أو الوزير، فيعطل الكاتب صرفها ويماطل في أدائها، وهذا ما مرّ به البحتري في تجربة مريرة عبّر عنها في شعره، إذ كان الخليفة المتوكل كتب له بعشرين ألف درهم، فماطل الكاتب أحمد بن دواد السِّيبي في دفعها، حتى قُتل المتوكل، فطمع الكاتب بالمال لنفسه، فلجأ البحتري إلى الحسن بن مَخْلد ومدحه، وما زال حتى أخذ المال من الكاتب بفضل الممدوح، ثم قال شعراً يمدح فيه الحسن ويهجو أحمد، وكان مما قاله في الهجاء[٦]:

أمُطْلقي من يد "السِّيبي" أنتَ، فقَـــد ... كَلَّـــتَ لديـــه رِكـــابُ الطَّالـــبِ الطُّلُـــحُ[٧]
أرى علـــى بابـــهِ صَـــرعى أقـــام بِهـــم ... طُولُ المِطـــالِ فـــلا أجـــدى ولا نَجحـــوا

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص١٠١٩.

(٢) الأصداغ: الشعر المتدلى على أطراف الوجه، والطُرة: من الشعر المقطوعة من جملته.

(٣) الغِرة: الغفلة.

(٤) البهيم: الأسود اللون، والمصمت: الذي لا يخالط لونه لون آخر.

(٥) الوتح: القليل التافه، والآجرة: الطوبة والقرميد.

(٦) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٤٣٩.

(٧) الطلح: جمع طليح، وهو المُتعب المصاب بالعياء.

لنـــا مَواقـــفُ فـــي أفنـــاءِ عَرْصـــتِهِ تُهـــانُ أخْطارُنـــا فيهـــا وتُطَّـــرَحُ[١]
نَغْشـــاهُ لا نحـــنُ مُشَـــتاقونَ منـــه إلـــى أُنـــسٍ، ولا هـــو مَسْـــرورٌ بنـــا فَـــرِحُ
إذا طالبنـــا بلـــينِ القـــولِ غِرَّتَـــهُ ظَلْنـــا نُعـــالج قُفْـــلاً لَـــيْسَ يَنْفـــتحُ[٢]

يُعبّر الشاعر في هذه الأبيات عن مدى المرارة التي لقيها من الكاتب المماطل، فقد اضطر إلى إراقة ماء الوجه، ليس هو فحسب بل جُموعٌ من أصحاب الحقوق الذين مطلهم وجعلهم يُطيلون الوقوف وراء بابه أملاً في إطلاق حاجاتهم، ويشير الشاعر إلى أن إطالة الوقوف والانتظار، وما تخللها من مشاهد، كان تعبيراً عن مدى الإهانة والإذلال التي لحقت به وبمن معه من ذوي الحقوق والحاجات.

ويصوّر الشاعر في آخر أبياته الكاتب المماطل بالقُفل المُغلق الذي يصعب فتحه، وهي صُورة تحمل في طياتها ما يدل على عُسر تخليص الحقّ من الكاتب السِّيبي الذي منع الناس حقوقهم وأخر مُكافأتهم من غير داعٍ إلى ذلك.

وواجه الكُتّاب شأنَ غيرهم من رجال الدولة العباسيّة تُهماً خطيرة كالقوادة والبغاء واللواط، ويبدو أن هذه التهم الخُلقية كانت تنال أكثر من تناوله الشعراء بالنقد والهجاء من رجال الدولة، حتى القضاة الذين يفترض فيهم الدِّين والالتزام كما يسلموا من هذه التهمة، وقد جعل ابن دنقش الحاجب اللواط سجية عامة في الكُتّاب، فقال[٣]:

وعلـــى اللـــواطِ فـــلا تلـــومَنَّ كاتبـــاً إنَّ اللـــــواطَ سَـــــجيّةُ الكُتّـــــاب

فقال الوزير الكاتب محمد بن عبد الملك الزيات يُجيبه:

وكمـــا اللـــواطُ ســـجيّةُ الكُتّـــابِ فكـــذا الحُـــلاقُ سُـــجيّة الحُجّـــابِ

وعندهم حديثهم عن هذه الآفة الخَلقيّة التي ابتلي بها الكُتّاب، أشار الشعراء إلى قيام بعض الكُتّاب بممارسة الشذوذ الجنسيّ مع الكبار، يقول أبو تمام في هجاء عبد الله الكاتب المتهم باللواط[٤]:

تعشُّـــقُكَ الكبـــارَ يَـــدلُّ عنـــدي علـــى أنَّ الرَّحـــى قُلِبَـــت ثِفـــالا
وإلاَّ، فالصِّـــــغارُ ألـــــذُّ قُربـــــاً وأشْـــــهى إن أردتَ بهـــــم فِعـــــالا

---

(١) العرصه: الساحة.

(٢) الغِرة: من غرَّة أي خدعه.

(٣) الجبوري، يحيى، محمد بن عبد الملك الزيّات، مصدر سابق، ص١٥٩.

(٤) أبو تمام، الديوان، مصدر سابق، ص٥٣٣.

متـــى أبصـــرتَ لُوطيّـــاً صَـــحيحاً يُحـــاولُ أن يُضـــابرهم رِجـــالا

وفي المقابل، قلب بعضُ الشعراء الآية، فجعل الكاتبَ المهجو مفعولاً به، لا فاعلاً، وهذا أبلغ في الطعن والتجريح من الصورة الأُولى، يقول البحتري هاجياً أبا غانم الختلي كاتب قاضي القضاة ابن أبي دُواد[١]:

أبـــا غـــانم فـــيمَ احتشـــامُكَ عِنْـــدنا وكِتْمانُـــكَ الـــدَّاء الـــذي أنـــتَ صـــاحبُهْ؟
فلســـت مَلُومـــاً أن ..... لِلـــذَّةٍ ..... لها قاضـــي القُضـــاة وكاتبُـــهْ
....
لـــه هَيبـــةٌ فـــي مَجلـــس الحُكـــمِ تُتقـــى وقـــد بـــاتَ مُلقًـــى ..... تُلاعبُـــهْ

ومثل ذلك اتهام الشاعر ابن الرومي الكاتب إبراهيم بن المُدبر بهذه المثلبة المخزية، يقول[٢]:

رأيـــتَ "أبـــا إسْـــحاق" ..... فَوقَـــهُ ..... فـــي الأحشـــاء منـــه خَفيـــقُ
فأومى بأن .....، فقلتُ له: انتظر فـــراغَ أخينـــا، والمكـــانُ مَضـــيقُ
فَقـــالَ مُجيبـــاً وهـــو فـــي سَـــكراته لـــه نخـــراتٌ بَيـــنهنَّ شَـــهيقُ:
"لَعمـــركَ مـــا ضَـــاقت بـــلادٌ بأهلهـــا ولكـــن أخـــلاقَ الرِّجـــالِ تَضـــيقُ"!![٣]

تتضمن هذه الأبيات صُورة ساخرة لحال الشذوذ الجنسيّ التي شاهدها الشاعر، إذ عاين ابن المُدبر يُفعل فيه، فطلب إلى الشاعر، كما يقول، أن يُمارس معه هذا الفعل البهيمي، فلم يرفض الشاعر، على حدّ زعمه، ولكنه طلب المهلة ريثما يأتي دوره؛ لأن المكان ضيق ولا يتسع لاثنين!! فبادر الكاتب المفعول به وقد استغرق في شهواته إلى الاستشهاد ببيتٍ من الشعر مشهور، مُنكراً على أساسه فكرة ضيق المكان التي تحدّث عنها الشاعر، وهي سخرية لاذعة من الكاتب الذي كان يستلذ بهذا الفعل الشّاذ.

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٨.

(٢) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٤، ص١٦٤٥.

(٣) البيت مشهور، وهو من قصيدة لعمرو بن الأهتم المنقري، انظر: المفضل الضبي، المُفضّل بن محمد بن يعلى (ت نحو هـ)، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة، ص١٢٧.

وفضلاً عن اللواط، اتهم بعض الكُتّاب بالقوادة، وهي ممارسة مهنة البغاء والدّعارة، وكانت هذه المهنة تُعرف بالمؤاجرة، يقول أبو تمام في هجاء عبد الله الكاتب واتهامه بهذه التهمة الخُلقية الشنيعة(١):

أيْقنـــتُ حـــينَ نَتفـــتَ أن سَـــتكابرُ وعَلِمـــتُ إذْ بادلـــتَ أن سَـــتؤاجرُ
أمَّـــا النَّهـــارُ فأنـــتَ فيـــه كاتـــبٌ واللَّيـــلُ أجْمـــعَ أنـــتَ فيـــه تَـــاجِرُ

وتحوّل الشعراء – أحياناً – من هجاءِ الكُتّاب بالرذائل الخُلقية إلى الهجوم عليهم بذكر عُيوبهم الخَلْقيّة والجسديّة، من ذلك ما قاله البحتري في هجاء الكاتب إسرائيل النصرانيّ، كاتب الوزير إسماعيل بن بُلبل(٢):

دَجَّالنـــا أحـــولُ مِـــنْ شُـــؤمِهِ والنَّـــاسُ دَجَّـــالهم أعْـــورُ!

ويقولُ فيه أيضاً(٣):

أرانـــا لا نَـــزالُ نُســـامُ خَسْـــفاً بِـــرِجْسِ الـــنَّفس رِجْـــسَ الوالـــدينِ
متـــى نَرْضَـــى ودَجَّـــالُ النَّصـــارى يُقَـــدِّمُ مـــا يَـــرَاهُ بِفَـــردِ عَـــيْنِ؟!

يُركّز البحتري عن صفة الدَّجال التي يُلصقها بالكاتب النصرانيّ، فالدَّجال والكاتب كلاهما على دينٍ واحدٍ، بيد أن الشاعر يتوصل إلى فرقٍ جوهري بينهما، وهو أن الدجال أعور، بينما الكاتب أحول، أي أن كلاً منهما مصاب بعيب في عينه، وهذا العيب داعية شؤمٍ من جهة وعدمِ تمييز من جهة أُخرى.

وإلى جانب هذه المعاني التي هُجي بها الكُتّاب، اتخذ الشعراء العباسيون من ضراط بعضهم وسيلة للسخرية والتهكم، ومثالاً على ذلك تناول العشرات من الشعراء ضرطة وهب بن سليمان الكاتب في أشعارهم، وفي خبر هذه الضرطة يقول الثعالبي: "أفلتت منه ضرطةٌ في مجلس الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وهو غاص بأهله، فطار خبرها بالآفاق، ووقع في ألسن الشعراء، وصارت مثلاً في الشُّهرة، حتى قالوا: أشهر من ضرطة وَهْب، وأفضح من ضرطة وهب، وعمل أحمدُ بن أبي طاهر كتاباً في ذكرها والاعتذار عنها، بعد كلام كثير قيل فيها"(٤).

---

(١) أبو تمام، الديوان، مصدر سابق، ص٥١٦.
(٢) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٢٨٢.
(٤) الثعالبي، ثمار القلوب، مصدر سابق، ص٢٠٦– ٢٠٧.

وقد يطول البحث فيما قاله الشعراء العباسيون في هجاء وهب بن سليمان وأفراد أُسرته، وأكثرهم ممن كانوا يعملون بالكتابة في الدواوين، وتعييرهم بهذه الضرطة التي نالت من الشهرة الممزوجة بالسخرية والضحك شيئاً كثيراً، فقد تناول هذه الحادثة الطريفة البحتري في طائفة من قصائده ومقطوعاته الهجائيّة[١]، يقول في إحدى هذه المقطوعات[٢]:

تَعَـــالى اللهُ يَجْـــزي كُـــلَّ أمـــرٍ ... وإنْ كَـــرِهَ العِبـــادُ بمـــا أحَبَّـــا
بَـــرَا شُـــوقاً وأمْلاكـــاً عَلـــيهم ... وقَـــدّر مـــنهم عَبْـــداً ورَبَّـــا[٣]
وفَضّـــلَ فـــي الكتابـــةِ "آلَ وهـــبٍ" ... وقـــدّم بيـــنهم بالضَّـــرطِ "وهْبَـــا"
أكـــبَّ علـــى الـــوزيرِ يُريـــدُ قَـــولاً ... فأرســـلَ ضَـــرطةً لمّـــا أكبّـــا
فيـــا لـــكِ ضَـــرطةً حَلّـــتَ مَكانـــاً ... وســـار حَـــديثُها شَـــرقاً وغَربـــاً!

تبدو السخريّة طافحةً في تصوير مقطعٍ من الحادثة المُضحكة التي بدرت من وهب في مجلس الوزير، إذ اقترب وهب من وزيره وانحنى ليخبره بشيءٍ من الأسرار، والناس يملؤون المجلس، فما استطاع أن يتمالك نفسه، فخرجت منه ضرطة مدوية سمعها الحاضرون كُلّهم، وهو موقف في غاية الإحراج، وتبوأت هذه الضرطة منزلة، وتناقلت خبرها الركبان في الشرق والغرب. إنَّ الشاعر لا يُنكر في بيته الثالث فضل أُسرة آل وهب وسبقهم في الكتابة، ولكنه يستثمر هذا السبق ليتحدث عن تقدّم وهب بن سليمان على أعيان أُسرته الكتاب بضراطه المشهور!!.

ويستثمر البحتري في سخريته من فعلة وهب التي أفلتت رُغماً عنه، ويصورها الشاعر بالكلام، ولكنه كلام الفرج، لا كلام الفم، وهي مُفارقة مُضحكة، وبناءً على هذه المفارقة التي نقلت الحديث من الفم إلى الفرج، يجعل الشاعر كلام وهب – أيّ ضراطه – غناءً يُطرب، ويجعل هذا الغناء بليغاً مؤثراً، حتى ليجعل درجته في البلاغة فوق بلاغة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، أشهر كُتّاب الدولة الأُموية، يقول[٤]:

يـــا ..... وهـــبِ بـــن سُـــليما ... نَ بـــن وهـــبِ بـــن ســـعيدِ"
قَـــدْ تحـــدّثتِ بِـــرَغمٍ ... منـــه عـــن أمْـــرٍ رَشـــيدِ
أنْـــتِ فـــي مَغْنـــاكِ ذا ... أبلـــغُ مـــن "عَبْـــدِ الحميـــد"

---

(١) انظر: ديوانه، مصدر سابق، ج١، ص٣٤٨، ٣٩١، ٤٧٩، ج٢، ص٧٨٤، ١٣٣٠، ج٣، ص١٥٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٣٤٨.

(٣) برا: خلق من العدم، والسوق: أراد السوقة، وهم عامة الناس.

(٤) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٧٨٤.

ومن الشعراء الذين تناولوا بسخريتهم المعهودة هذه الحادثة الشاعر ابن الرومي الذي هجا وهب بن سليمان وآل وهب في عدد من المقطوعات والقصائد التي ركّزت على ما بدر من فعلةِ هذا الكاتب، وما حظيت به من شهرة مدوية، بسطت ألسن الشعراء، وأثارت قرائهم، يقول في إحدى مقطوعاته[١]:

أَتَـــتْ مِـــنْ بَريـــدِّينا ضَـــر..... فأرســـــلها مَـــــثَلاً سَـــــائرا
كـــذا "آل وهـــبٍ" لهـــم فَضْـــلُهم يُورِّثـــــــــه أولٌ آخـــــــرا
مَضـــــوا بُلغـــــاءَ بـــــأفواهم وأســـــتاهم كَـــــابراً كَـــــابرا
وابقَـــوا لنـــا خَلَفَـــاً صَـــالحاً فلـــم يُلْـــفَ عـــن قَصْـــدِهم جَـــائِرا
"أبـــا حَسَـــن" يـــا لهـــا ضَـــر.... تركـــت السَّـــميرَ بهـــا سَـــامِرا
وزِدتَ بهـــا شَـــاعِراً فِطْنَـــةً وأنْبغـــتَ مَـــنْ لـــم يكـــنِ شـــاعرا!!

يشيع ابن الرومي ألواناً من سخريته في هذه الأبيات، وهو يقيم سخريته عن طريق قلب السيئات إلى حسنات، فبدلاً من الحديث عن مساوئ فعلة وهب، تراه يسترسل في الحديث عن منافعها وفوائدها، ومن تلك الفوائد أنها أصبحت مثلاً سائراً يتداوله الناس، ويتمثلون به في شؤون حياتهم، ومنها أن بلاغة الأفواه أثمرت بلاغة موازية في الفروج، فبلاغة الأفواه حُسُن حديثها، وبلاغة الفروج شُهرةُ ضُراطها، ومن تلك الفوائد أن الساهرين ليلاً المجتمعين في مجالس الأُنس والسّمر وجدوا مادةً لطيفة ليسمروا بها، ولتكون حديثاً جذاباً يُروّح عنهم ويحقق لهم متعةً وضحكاً وتسلية. وآخر تلك الفوائد أن ضرطة وهب حرّكت ألسن الشعراء، فزاد الفطين منهم فطنة، ونبغ في تعاطي الشعر من كان في أول طريقه.

ويُحلل الشاعر ابن الرومي في إحدى قصائده سبب فضيحة وهب بضراطة بين الناس، مشيراً إلى أن هذا الكاتب كان بخيلاً مقتراً، ولم يكن له ندًى معروفاً بين الناس، ولو كان كريماً معطاءً لغطى كرمه على فعلة الضراط القبيحة، ولكن الشعراء تناولوه لأول زلةٍ له، حتى وإن كانت غير مقصودة، يقول[٢]:

بُؤســـــاً "لوهـــــبٍ": مَـــــا لَـــــهُ بَـــــيْنَ الخَليقـــــةِ قـــــد فُضـــــحْ؟!
كَثُـــــر الأُولـــــى يَهْجونـــــه جِـــــدَّاً، وقَـــــلّ المُمتـــــدِحْ
قَـــــدْ سَـــــيَّروُهُ بِضَـــــر..... فـــــي الخَـــــافقينِ ومَـــــا بَـــــرِحْ

---

(١) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٥٥٧، ٧٤٩، ج٣، ص٩٩٦، ١٠٧٤- ١٠٧٥، ج٤، ص١٤٤١- ١٤٤٤، ج٥، ص٢٠٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٥٧.

حتّـــــى كـــــأن لـــــم يَجْتـــــرحْ ... مـــــا جَـــــاءَ مِنْـــــهُ مُجْتـــــرحْ
يـــــا "وهـــــبْ": أُقســـــمُ بالمقـــــا ... مِ وبـــــــالحطيمِ إذا مُسْـــــــحِ[١]
لـــــو كُنـــــتَ مَبْـــــذُولَ النَّـــــدى ... مِـــــنْ قبلهـــــا لـــــم تُفْتَضَـــــحْ
لكـــــن رَفضـــــتَ العُـــــرفَ مُطْـــــ ... ـــــطرِحاً وحظّـــــك تَطَّـــــرحْ
وربحـــــتَ مَالَـــــكَ ضَـــــلّةً ... والعِـــــرضُ أفضـــــلُ مـــــا رُبـــــحْ
لـــــو كُنـــــتَ غيثـــــاً صَـــــائباً ... لـــــم يُهّـــــجَ رَعْـــــدُكَ بـــــل مُـــــدِحْ

ويضافُ إلى المعاني المُهمة التي اشتملت عليها الأهاجي في هذا العصر اتهام الكُتّاب، مثلما هو الحال في بعض رجال الدولة الآخرين، بالتهم التي تتعلق بالدِّين كالكفر والزندقة والإلحاد والنِّفاق، يقول حمّاد عجرد هاجياً يحيى بن زياد الحارثي[٢]:

لا مـــــؤمنٌ يُعْـــــرَفُ إيمانُـــــهُ ... ولَـــــيْس "يحيـــــى" بـــــالفتى الكَـــــافرِ
مُنـــــافِقٌ، طـــــاهرُهُ ناسِـــــكٌ ... مُخـــــالفُ الظَّـــــاهرِ للبـــــاطنِ

ويبدو أن الشاعر يسلك المهجو في منزلة ما بين الإيمان والكفر، فليس يحيى معروفاً بين الناس بإيمانه الخالص فيعد مؤمناً، ولا هو معروف بكفره الصريح فيعد كافراً، ولذا فإن الشاعر يجعله بين هذا وذاك، فهو منافق يُخالف ظاهره باطنه، ظاهره النسك والتدين، ولكنه يبطن خلافهما، فهو أقرب إلى الزندقة والخروج عن الإسلام.

ومن القصائد الدالة على هذا المنحى من الاتهام بالعقيدة، ما قاله البحتري في هجاء أحمد بن صالح بن شَيْرزاد وهو كاتب قبل أن يلي الوزارة بعد إسماعيل بن بلبل[٣]:

فَقَـــــدْنا يَهُـــــوديَّ "قُطْربُّـــــلٍ" ... ومـــــا فَقْـــــدُناه بإحـــــدى الكُبَـــــرْ[٤]
عُلَـــــيْجٌ يَـــــدينُ: بـــــأن لا إلـــــ ... ـــــهَ، وأن لا قَضـــــاءَ، وأن لا قَـــــدَرْ![٥]
وشَـــــيامَةٌ لصِـــــحابِ "النَّبِـــــ ... ـــــيِّ"، يُزْجَـــــرُ عَـــــنْهم فمـــــا يَنْزجِـــــرْ[٦]
إذا جَحَـــــدَ اللهَ والمُرسليـــــ ... ـــــن، فكيـــــفَ نُعاتبُـــــهُ فـــــي "عُمَـــــرْ"؟![١]

---

(١) المقام والحطيم: معالمان بارزان مشهوران عند الكعبة الشريفة في البيت الحرام.

(٢) يارد، نازك، حماد عجرد، مصدر سابق، ص٥١.

(٣) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٩٢٣.

(٤) قطربل: قرية على مقربة من بغداد يُنسب إليها الخمر، وكانت مأوى للشاربين في ذلك العصر، والمهجو من هذه القرية.

(٥) عُليج: تصغير عِلج، وهو لفظ يُطلق على كُفّار العجم.

(٦) شَتّامة: كثير السَّب.

يُوجّه البحتري في هذه الأبيات تهمة الكفر والإلحاد صريحة إلى الكاتب أحمد بن صالح، ويصفه باليهوديّ، وينسبه إلى محلة "قطربّل" التي شُهرت في العصر العباسي بسمعتها السيئة، ويرى الشاعر أن هذا الكاتب ذي الأصل غير العربي مُلحدٌ مارق، فهو ينكر وحدانية الله ورسالاته السماوية، ولا يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشرّه من الله. ثم هو يُشارك الشيعة في اعتقادهم السيء بصحابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولذا، فإنهم، رضوان الله عليهم، لا يسلمون من كَثرةِ سَبّه و شتمه، ولا سيّما الفاروق عمر بن الخطاب، الذي يبغضه الشيعة ويسبونه أكثر من غيره.

ويتهم البحتري هذا الكاتب وابنه يعقوب بالزندقة صراحةً، ويسبه إلى مذهب ماني، زعيم الزنادقة القائلين بوجود إلهين: أحدهما إله خير والآخر إله شرّ، يقول[٢]:

ومـــا مِنْهمـــا إلا زُنَيْـــديقُ قَرْيـــةٍ يُلاكِـــنُ "مـــاني" حُمْقَـــهُ ويُعافِطُـــه[٣]

واشتملت أهاجي الكُتّاب كذلك على الطعن بالأنساب والمعايرة بالأحساب والأُصول والأعراق، وقد تكرر هذا المعنى في قصائد الهجاء السياسيّ في رجال الدولة العباسيّة عامةً، فقد هاجم بعضُ الشعراء النسب المزور لبعض الكُتّاب العباسيين، ولا سيما الأعاجم منهم، كما في قول البحتري في تكذيب نسب صاعد بن مَخْلد إلى بعض قبائل العرب[٤]:

واعْتـــزى كَاذبـــاً إلـــى "آلِ كَعْـــب" وانتمـــى زِيُّـــهُ إلـــى "بـــاذَغيس"[٥]

وركّز بعض الشعراء على مسألة ضعف نسب بعض الكُتّاب وعدم اتصال سلسلة أُصولهم، فحماد عجرد يطعن في نسب محمد بن نوح الكاتب، مُتخذاً من المحاورة الساخرة وسيلة إلى الطعن المتمثل بسقامة حسب المهجو، وجهله بأسماء أجداده وسلسلة نسبه، ليصل إلى نتيجة مفادها أن هذا النسب خامل وضيع، يقول[٦]:

قـــال "ابـــنُ نُـــوحٍ" لـــي وقَـــدْ أظهـــرَ بَعْـــضَ الغَضَـــبِ
أنْـــتَ الـــذي نَفَينـــي فـــي الشِّـــعرِ عـــن "نُـــوحٍ" أبـــي؟

---

(١) عمر: أراد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٣١.

(٣) يُلاكن: يتحدث في عيٍّ وثقل، يريد أنه لا يُتقن العربية؛ لعجمة لسانه، ويُعافطه: يُضارطه، وماني: من أصحاب المذاهب الدينية عند الفرس، إليه ينتسب الزنادقة.

(٤) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص١٢١٢.

(٥) باذغيس: ناحية من أعمال هراة في بلاد العجم.

(٦) يارد، نازك، حماد عجرد، مصدر سابق، ص٤١– ٤٢.

فقلـــــــــتُ: لا، لا تَرْمِنـــــــــي مِنْـــــــكَ بمحـــــــضِ الكَـــــــذَبِ
ويحـــــــكَ لـــــــم أفْعـــــــل وإن كُنـــــــتَ سَـــــــقيمَ الحَسَـــــــبِ
تكننـــــــي كُنـــــــتُ فتًـــــــى عَلامـــــــةً بالنَّســـــــبِ
فقلـــــــتَ لـــــــي: "نُـــــــوحٌ" أبـــــــي فقلـــــــتُ: جـــــــاوِزْ بِـــــــأبِ[١]
فلَـــــــمْ تُجـــــــاوزْهُ وفـــــــي ذلـــــــك بعـــــــضُ الرِّيـــــــبِ
فيـــــا "ابـــــنَ نـــــوحٍ"، يـــــا أخـــــا الـــــ ـــــحِلْسِ ويـــــا ابـــــنَ القَتَـــــبِ[٢]
ومـــــــن نشـــــــأ والـــــــدُهُ بـــــــين الرُّبـــــــى، والكُثُـــــــبِ[٣]

لقد أتاحت معرفة الشاعر بالأنساب أن يكشف عن حقيقة نسب الكاتب الوضيع، إذ لا يُعرف مُنتهى هذا النّسب، ولا تُعرف حلقاته، ولذا، فإن الشاعر يصطنع من عنده نسباً لهذا الكاتب الذي لا يعرف آباءه، ويتمثل النسب الذي يضعه الشاعر بنسبة الكاتب إلى أحلاس الحمير وأقتاب الجمال وإلى النشأة بين كثبان الرِّمال، وهذا مفاده أنه لا حظَّ للكاتب من ادعاء شرف النسب.

وجنح بعضُ الشعراء إلى توجيه سهام الهجاء إلى قوم الكاتب، ورميهم بالأوصاف الشنيعة، ومثالاً على ذلك الأبيات التي هجا فيها ابن الرومي الثقفي كاتب عيسى بن هارون الهاشمي[٤]:

أيـــــا ثَقفـــــيٌّ أراكَ الـــــذي سَـــــيُلْحِقُ أُخـــــرى ثمـــــودِ ثمـــــودا[٥]
فَيـــــا "لَثقيـــــفٍ" بقايـــــا "ثَمُـــــو د" أنـــــذرتُ مَـــــدْخُولكم أن يعـــــودا
قَبيلـــــةُ سَـــــوءٍ رماهـــــا الإلـــــ ـــــهُ بصـــــاعقةٍ تَـــــركتهم هُمـــــوداً[٦]
أصـــــــــابتهُمُ فأبـــــــــادتهُمُ ســـــوى نفـــــرٍ حَسِـــــبْتُهُم قُـــــرودا

واضحٌ أن الشاعر جعل الكاتب دخيلاً على ثقيف، ويبدو أنّه كان مولى لهم، ويذهب أن هذا الكاتب سيسبب لهم الهلاك، إذ سيجر على ثقيف ما جرى على ثمود التي أبادها اللهُ، ولم يُبقِ

---

(١) بأبِ: أي جاوز أباك، وذكر أجدادك الذين بعده.
(٢) الحلس: ما يوضع على ظهر الحمار، والقتب: الرحل يوضع على ظهر البعير.
(٣) الكُثُب: الكثبان، جمع كثيب، وهو كومة الرمل المرتفعة.
(٤) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص٦٧٤.
(٥) أُخرى ثمود: أراد قبيلة ثقيف، وثمود: قبيلة معروفة من القبائل العربية البائدة.
(٦) هموداً: أي هامدين من غير حركة.

منها أحداً. ثم يتحول الشاعر إلى هجاء ثقيف كلهم، فيرى أنهم بقايا ثمود الهالكة التي أصابتها الصاعقة فأبادتهم، سوى طائفة منهم هم ثقيف، ويصورهم الشاعر بالقرود الممسوخة.

واتجه بعضُ الشُّعراء إلى هجاء الكُتّاب الأعاجم بأُصولهم غير العربيّة، كما في قول البحتري يهجو الكاتب أحمد بن صالح بن شَيْرزاد وابنه يعقوب(١):

لَعَمــركَ مــا فــي "شَــيْرزادَ" ولا ابنِــهِ ... مَكــانٌ تُدانيــهِ العُــلا أو تُخالطُــهْ
حَمَتْــهُ الــدَّهَاقِينُ الرُّبــى، وتَسَــافَلتْ ... "بِقُطْرُبُّــلِ" أعلاجُــهُ وأنابِطُــهْ(٢)

ولعلّ في إشارة الشاعر إلى "الدهاقين" و"الأعلاج" و"الأنابط" ما يؤكد أن الشاعر يُنكر أصل المهجو العربي، مؤكداً انتسابه إلى الأعاجم، أو أخلاطهم الذين لا يمكن تمييز أنسابهم.

وقريب من هذا تعيير البحتري الكاتب يعقوب البريدي بأصله اليهودي الوضيع، مشيراً إلى مرباه في قرى العراق، لا في مدنه، وأنه ليس من نسل ملوك العجم كما يدعي، ولعل أوضح دليل على عُجمته وعدم عُروبته لحنه في نطق بعض الكلمات نطقاً غير صحيح، يقول البحتري(٣):

ابــنُ وضــيعٍ مــن "اليَهُــودِ" إذا اســ ... ــتُنْطِقَ لــم يَرتفــع بــه لَسَــنُهْ(٤)
تَرَبَّيْتَــهُ قُــرى "السَّــواد"، ولــم ... تُــبْنَ علــى أُمهّاتِــهِ مُدُنُــهْ(٥)
ألكــنُ مِــنْ عُجْمــهِ الــبلادِ إذا ... أرادَ "مِنْــهُ" يُقــال قــال: "مِنُــهْ"(٦)
لــم يَضْــرِب "الهُرْمُــزانُ" فيــه، ولا ... "مَارَمَّــةٌ" خَالُــهُ، ولا خَتَنُــهْ(٧)

ويلاحظ المتأمل أن الشعراء العباسيين نوعوا تنوعاً كبيراً في أساليب هجاء الكُتّاب، فتارة يلجأون إلى السخرية والتهكم، وتارة يلجأون إلى القدح والذم والثلب، وتارة يلجأون إلى التعبير بالأحساب والأنساب والطعن في الأعراض، وقد مرّت كلٌّ هذه الأساليب آنفاً، وبقي أخيراً أن نشير إلى أُسلوب السّب واللعن، فقد صَبَّ الشعراء فيضاً من لعناتهم على الكُتّاب، وحاولوا أن

---

(١) البحتري، الديوان، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٣٠.

(٢) الدهاقين: رؤساء الأقاليم عند الفرس، أو التاجر، أو زعيم الفلاحين، والأعلاج: جمع علج، وهو لفظ يطلق على الأعاجم، والأنابط: جمع النبيط، وهم قوم من أخلاط الناس من غير العرب.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٣٥.

(٤) اللسن: الفصاحة.

(٥) تربيته: ربيته حتى كبر وأدرك، والسواد: ضياع العراق التي افتتحها المسلمون.

(٦) الألكن: الذي ثقل لسانه، أو الذي لا يقيم العربية؛ لعجمة لسانه.

(٧) الهرمزان: أحد ملوك الفرس، ومارمّة: من سادات العجم.

يلتمسوا لأنفسهم معذرة في لعن بعض الكُتّاب، وبالغ بعضهم فجعل اللعن في حق هؤلاء أمراً مباحاً، حتى إن أحد الشعراء جعل لعنة عمر بن فرج الرُّخجّي تعدل حِجّةً تامةً، يقول[١]:

لا تطلب الخيرَ من "بني فَرجٍ" لا بارك اللهُ في "بني فَرجِ"
والعَنْ إذا ما لقيتَهُ "عُمَراً" لَعناً يَقينا بأعظمِ الهَرَجِ
فَلعنةٌ إن لعنتها "عُمَراً" تَعْدِلُ مَقْبولةً من الحِجَجِ
لَيْسَ على المُفتري على "عُمَرٍ" مِنْ ضَربٍ يَخْشى ولا حَرَجِ

وهكذا، تبين الناظر أن هجاء الكتاب شكّل جزءاً مهماً من هجاء رجال الدولة العباسيّة، مُعبراً عن وجهة نظر سياسيّة ونقد صريح ومبطن للدولة العباسية وكتّابها غير الأكفاء، ولا ننسى أن هذه الوجهة اختلطت بالجوانب الشخصيّة التي ظلت تحرك الهجاء السياسي وتُلهبه.

---

[١] الجاحظ، رسائل الجاحظ، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٧.

الخاتمـــة

لا بُدَّ للباحث بعد دراسة أهم الملامح الموضوعيّة لشعر الهجاء السياسيّ في العصر العباسيّ في المدة الممتدة من قيام الدَّولة العباسيّة إلى نهاية القرن الرابع أن يُسجل أهمّ النتائج العلميّة التي توصّل إليها، وأهمّها:

١. يعد الهجاء السياسيّ لوناً مهماً من ألوان شعر الهجاء في العصر العباسي، فقد شارك فيه كبار الشعراء كبشار وأبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام والبحتريّ وابن الرُّومي وابن المعتز والمتنبي وغيرهم.

٢. ركّز شعر الهجاء السياسيّ على نقد رجال الحكم والإدارة في السُّلطة العباسيّة، كالخلفاء والوزراء والولاة والقادة والقضاة وكتاب الدَّولة وغيرهم من الفئات.

٣. اختلطت البواعث السياسيّة بالبواعث الشخصيّة في هذا اللون من الهجاء، فقد انطلق الشعراء في هجاء رجال الدَّولة من رُؤى مذهبيّة وعقدية، ولكن الجانب الشخصيّ كان حاضراً، ولم يغب عن المشهد.

٤. أدّت المتغيرات السياسيّة وتدهور مكانة الخلافة وتسلط الجند وضعف هيبة الدولة وفساد النظام الإداري والقضائي إلى ازدهار شعر الهجاء السياسيّ واتساع مجالاته ومشاركة عدد كبير من الشعراء في هذا الميدان.

٥. عبّر هذا اللون من الهجاء عن مدى الفساد الذي داخل الحياة السياسيّة في هذا العصر، وصوّر مظاهر كثيرة من هذا الفساد.

٦. قام شعراء الهجاء السياسيّ بدور إيجابي في الإصلاح، إذ كشفوا عن مظاهر الضعف والانحطاط، ونبهوا على مواضع الخلل، وحاولوا رسم صورة إيجابية لما يجب أن تكون عليه الأُمور.

٧. حملت الأهاجي السياسيّة شيئاً من مواقف الشعراء السياسيّة، وكشفت عن مواقفهم من الدَّولة العباسيّة ورجال الحكم والإدارة في هذا العصر.

٨. رُغْم العوائق الكثيرة التي وقفت أمام انتشار هذا اللون من الهجاء، فإنَّ كثيراً من الشعراء أظهروا شجاعة وتحدياً، ولم يُبالوا بتهديد الدَّولة، فقد نال بعضهم القتل والتعذيب والسّجن، وحاول بعضهم أن ينجو بنفسه هرباً من سُيوف السُّلطة.

٩. اضطر كثير من الشعراء إلى كتابة قصائدهم غفلاً من أسمائهم، ممن جعلنا نقف أمام كمٍ من القصائد والمقطوعات الهجائية المجهولة القائل.

١٠. بالغ بعض الشعراء في معاني الهجاء السياسيّ، حتى تجاوزا الحقائق الموضوعيّة في كثير من الأحيان.

١١. نوّع شعراء الهجاء السياسيّ بين القصائد والمقطوعات، وكثيراً ما كانت الهجاء السياسي يأتي أثناء قصيدة المدح أو الرثاء، على أن كثيراً من الشعراء كان يؤثر المقطوعات القصار التي حمل هجاء شخصيات الحُكم.

١٢. يُمكن اعتبار القرن الثالث العصر الذهبي الذي ازدهر فيه شعر الهجاء السياسيّ، كما يمكن مُلاحظة تراجع هذا اللون في القرن الرابع.

١٣. لجأ شعراء الهجاء السياسي إلى الإقذاع والفحش والسبّ والشتم والسخرية والنقد في سبيل التعبير عن مواقفهم إزاء هجومهم من رجال الدولة.

ويوصي الباحث بما يلي:

١. إجراء مزيد من الدراسات التي تتناول الجوانب الجديدة في شعر الهجاء السياسي في هذا العصر؛ لاستكمال الصورة المطلوب الوفاء بها.

٢. جمع شعر الهجاء العباسيّ في ديوان خاصّ؛ للإفادة منه في الدراسات القادمة.

٣. عقد دراسة مختصة تتناول شعر الهجاء السياسي من وجهة فنيّة.

ويؤكد الباحث في نهاية هذه الدِّراسة أن الشعر العباسيّ ما زال مفتوحاً على مصراعيه للبحوث الجديدة والنافعة، ويرجو أن يكون قد وفق في تقديم ما هو جديد.

والحمد لله ربّ العالمين.

الباحث

المصـــادر والمراجـــع

* المصادر القديمة.

- ابن الأثير، أبو الحسن، علي بن أبي الكرم الجزري (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلميّة، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- الأمين (ت ١٩٩هـ) والمأمون (ت ٢١٨هـ)، ديوان الأمين والمأمون، جمع وتحقيق: د. واضح الصمد، دار صادر، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- الباهلي، محمد بن حازم (ت نحو ٢١٨هـ)، ديوان محمد بن حازم الباهلي، صنعة: شاكر العاشور، تموز للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، دمشق، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
- إبراهيم بن المهدي، أبو إسحاق العباسي (ت ٢٢٤هـ)، شرح ديوان إبراهيم بن المهدي، جمع وتحقيق: أنطوان القوّال، دار الفكر العربي، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)، الأغاني، نشره عبد الأمير مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- البحتريّ، أبو عبادة، الوليد بن عُبيد (ت ٢٨٤هـ)، ديوان البحتري، تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- ابن بسام البغداديّ، علي بن محمد بن نصر (كان حياً سنة ٣٠٦هـ)، ديوان ابن بسام، صنعة وتحقيق: د. مزهر السوداني، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- بشار بن برد (ت ١٦٧هـ)، ديوان بشار بن برد، قدم له وشرحه: د. صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- البيهقي، إبراهيم بن محمّد (من أهل القرن الرابع الهجري)، المحاسن والمساوئ، قدّم له وحققه: محمد سويد، دار إحياء العلوم، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- أبو تمام الطائي، حبيب بن أوس (ت ٢٣١هـ)، شرح ديوان أبي تمام، ضبط وشرح: شاهين عطية، دار الكتب العلميّة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- الثعالبيّ، أبو منصور، عبد الملك بن محمد (ت٤٢٩هـ)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)، رسائل الجاحظ، شرحه وقدم له: عبد الأمير مهنا، دار الحداثة، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الجهشياري، أبو عبد الله، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ)، كتاب الوزراء والكُتّاب، تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.
- ابن أبي حفصة، مروان بن سليمان بن أبي حفصة (ت ١٨٢هـ)، ديوان مروان بن أبي حفصة، شرحه: أشرف أحمد عدره، دار الكتاب العربي، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي- القاهرة ودار الفكر – بيروت، د.ت.
- ابن خلكان، شمس الدين، أحمد بن محمد (ت ٦٨٥هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٨- ١٣٩٢هـ/ ١٩٦٨-١٩٧٢م.
- دِعبل، دعبل بن علي الخزاعي (ت ٢٤٦هـ)، ديوان دعبل بن علي الخزاعي، جمع وتحقيق: عبد الصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- أبو دُلامة، زند بن الجون الأسدي (ت ١٦١هـ)، ديوان أبي دلامة، شرح وتحقيق: د.إيميل بديع يعقوب، دار الجيل، بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- ابن الرُّومي، أبو الحسن، علي بن العباس بن جريج (ت ٢٨٣هـ)، ديوان ابن الرُّومي، تحقيق: د.حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٣-١٤٠١هـ/ ١٩٧٣- ١٩٨١م.
- السيّد الحميريّ، إسماعيل بن محمّد (ت ١٧٣هـ)، ديوان السيد الحميري، شرحه وقدّم له: ضياء الأعلمي، مؤسسة النور للمطبوعات، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- أبو الشمقمق، مروان بن محمّد (ت نحو ٢٠٠هـ)، ديوان أبي الشمقمق، دراسة وتحقيق: د.كارين صادر، دار صادر، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- الصابي، أبو الحسن، محمد بن هلال (ت ٤٨٠هـ)، الهفوات النادرة، تحقيق وتقديم: د.صالح الأشتر، دار الأوزاعي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الصولي، أبو بكر، محمد بن يحيى (ت ٣٣٤هـ)، أشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق، تحقيق: ج. هيورث، د.ن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- ابن طباطبا العلوي، أبو الحسن، محمد بن أحمد الأصبهاني (ت ٣٢٢هـ)، شعر ابن طباطبا العلوي الأَصبهاني، جمع وتحقيق: د. شريف علاونة، دار المناهج، عمّان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- الطبريّ، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الأُمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، بيروت، د.ت.
- ابن الطقطقا، محمد بن علي طباطبا (ت٧٠٩هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، د.ت.
- أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم (ت ٢١١هـ)، ديوان أبي العتاهية، دار صادر، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- ابن عقيل، عمارة بن عقيل الخطفي (ت ٢٣٩هـ)، ديوان عمارة بن عقيل، جمع وتحقيق: شاكر العاشور، دار الينابيع، الطبعة الأُولى، دمشق، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- العكّوك، علي بن جَبلة (ت ٢١٣هـ)، شعر علي بن جبلة، جمع وتحقيق: حسين عطوان، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- علي بن الجهم (ت ٢٤٩هـ)، ديوان علي بن الجهم، تحقيق: خليل مردم بك، منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)، صُبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- كشاجم الرملي، محمود بن الحسين (ت ٣٦٠هـ)، ديوان كشاجم، دراسة وتحقيق: د.النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، الطبعة الأُولى، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- المرزباني، أبو عبيد، محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ)، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- المسعودي، أبو الحسن، علي بن الحسن (ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت.
- ابن المعتز، أبو العباس، عبد الله بن المعتز العباسيّ (ت ٢٩٦هـ)، ديوان ابن المعتز، شرحه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- المعري، أبو العلاء، (ت٤٤٩هـ)، معجز أحمد: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق: د. عبد المجيد دياب، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- المفضل الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى (ت نحو١٧٠هـ)، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة،
- أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت نحو ١٩٥هـ)، ديوان أبي نواس، تحقيق وشرح: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- الهمذاني، بديع الزمان، أحمد بن الحسين (ت ٣٩٨هـ)، ديوان بديع الزمان الهمذاني، دراسة وتحقيق يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الورّاق، أبو الحسن، محمود بن الحسن (ت نحو ٢٢٧هـ)، ديوان محمد الورّاق، جمع وتحقيق: د. وليد قصّاب، دار صادر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

- وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ)، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- ياقوت الحموي، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ)، معجم الأُدباء، دار الفكر، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

* المراجع الحديثة.

- إسماعيل، عز الدين، في الأدب العباسي بين الرؤية والفن، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- الأشتر، عبد الكريم، دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل البيت: دراسة تحليلية لحياته وشعره، المطبعة العلمية، الطبعة الثانية، دمشق، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- التطاوي، عبد الله، القصيدة العباسية: قضايا واتجاهات، مكتبة غريب، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- التميميّ، قحطان رشيد، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، دار المسيرة، بيروت، د.ت.
- الجبوري، يحيى وهيب، محمد بن عبد الملك الزيات: سيرته وأدبه وتحقيق ديوانه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ودار البشير– عمّان، الطبعة الأُولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- جيدة، عبد الحميد، قصيدة الهجاء عند دعبل الخزاعي وابن الرُّومي، دار الشمال، طرابلس، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- حاوي، إيليا، فنالهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- حسين، محمد محمد، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.
- خليف، يوسف، تاريخ الشعر العباسي، دار الثقافة، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- الرباعي، عبد القادر، شعر آل أبي عُيينة المهلبي: جمع وتحقيق ودراسة، منشورات أمانة عمان الكبرى، عمّان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

- السامرائي، د. يونس أحمد، شعراء عباسيون: محمد بن وهيب الحميري وأحمد بن أبي فنن ويزيد المهلبي وإبراهيم بن المُدبّر، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- أبو سويلم، أنور، أبو العيناء: محمد بن القاسم بن خلاد (ت ٢٨٢هـ): دراسة وتوثيق في حياته ونثره وشعره ونوادره وأخباره ومروياته، دار عمّار، الطبعة الأُولى، عمّان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- الشكعة، مصطفى، الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- الصَّفَّار، ابتسام مرهون، أبو العيناء الأديب البصري الظريف، منشورات جامعة بغداد، بغداد، د.ت.
- ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، الطبعة الرابعة عشرة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- ضيف، شوقي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، الطبعة الثالثة عشرة، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- العلي، عدنان عبيد، شعراء مغمورون بين الفن والالتزام (١٩٨- ٦٧٥هـ/ ٨١٤-١٢٧٧م): جمع وتحقيق ودراسة، زهران للنشر، عمّان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- عيسى، فوزي سعد، الهجاء في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- يارد، نازك سابا، حماد عجرد: شاعر عباسي: جمع ودراسة وتحقيق، دار الفكر العربي، الطبعة الأُولى، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

Abbasi Defamatory Political Poetry

Until the end of the fourth higry century

A study of significations

Prepaired by

Saa'd Saleh Swailem Al-Anzi

Supervision

Dr. Mohammed Mohmood Al-Droobi

Abstract

This study has dealy with objective aspects of defamatory political poetry in the abbasi age, since its beginning until the end of the fourth century. This era was ritch with poetry. Where there were many stimulant factors which contributed to prosperity of poetry which was utilized especially for political reasons, including the defamatory one which ralked about the ruling body of the abbasi state, expressing political views, atitututes and secte rianism that were intermingled with personal interests.

To study this type of political defamatory poetry, the searcher explored the matter and found out that defamatory caliphate and administration symbols formed a distinct type of political satire in that era. Poets charge their political attitudes, views and secterian thoughts, in addition to their personal positions. Consequently, the study was made up of five chapters.

The first shapter took up the satire of abbasi caliphates, which displayed stimulants of this satire and patterns which addressed authority heads. This chapter also dealt with what poets had said in describing the ruin of caliphate institution. The second chapter dealt with state ministers, where it revealed the motives of such satire along with poet positions against minister designations and their life history, their injustice conducts and aggressions. The third chapter talked about satire against rulers and leaders, revealing the motives of such satires and poet positions against designating those rulers and leaders along with activating the meanings of rulers and leaders satire and poets position against their misfortunes.

The fourth chapter took up satire against judges, talking about motives of such ssatire and most important meanings, revealing poets positions against judges catastrophe. Finally, the fifth chapter talked about abbasi state writers writers it denoted the motives for satire against them its direction and poet positions against their calamity.

The study reached to several significant results which demonstrated the importance of political satire in abbasi age, and participation of great poets in it and the role played by this poetry in reforms and in alerting the state against weak, defect and corrupt spots displaying the right approach in handling the matter.